دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وخصوصاً للجزائر (مجلة فتح الإسلام)
دراسة في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)

و. غَطِيطَ السَّرْزُوم الفَيَتُوري

عَامَّة النَّاسِ. فَيْسَمَّا التَّارِيخ

كلية الآداب جامعة بنغازي

مُنشورات
جامعة بنغازي
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى 1998 م.

لا يجوز طبع أو استنساخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على الموافقة الكتابية من الناشر

منشورات
جامعة بنغازى
بنغازى
الإهداء

إلى زوجتي وأبنائي
ويلد وأيمن وأسامه وأحمد ومحمد
أبناء هذا الوطن الذي هو جزء من إفريقيا.
توطنية

ليس هناك قارة من قارات العالم تعاني من مساوئ الاستعمار قدر ما عانته ولا زالت تعاني القارة الإفريقية حيث تعرضت لاستنزاف واستغلال ثرواتها ومواردها. كما تعرض سكانها إلى أ يجعل صور الاستغلال والإبادة. هؤلاء الأفارقة سواء داخل قارتهم أو خارجها يلقون معاملة وتفرقة من المستعمرين بشكل لا مثيل له في أي قارة أخرى، كما تعرضت لامرأة وأسوأ من ذلك وهو الإساءة لتاريخها وحضارتها ونشر الاعتقاد بأن الأفارقة لا تاريخ لهم.

وكان انتشار الإسلام وتأثيراته في المجتمعات الإفريقية هو المحور الرئيسي والمستهدف بالدرجة الأولى حيث تحمل ولا يزال الجزء الأكبر من حقد وهمية الغرب الاستعماري فحاولوا طمس وتشويه هذه المرحلة من مراحل تاريخ وحضارته القارة في ظل الإسلام.

إن الهدف من دراسة انتشار الإسلام في إفريقيا كموضوع خاص في تاريخ إفريقيا هو تقديم الخطوط الرئيسية لتاريخ هذه القارة وبصفة خاصة تلك الأقاليم الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

إن المصادر والمراجع الأجنبية أو تلك التي استقت معلوماتها عنها غالباً ما تسمى هذا الجزء من إفريقيا باسم (نيجريو إفريقيا) (Negro-Africa) الزنجية، وهذا الاصطلاح غير علمي وغير دقيق وهو مصطلح استعماري يبع من أهداف ودوافع استعمارية استخدمه علماء الأجناس والمؤرخون.
كاستطلاع يطلق على السكان الذين تغلب بينهم العناصر السودانية وشعوب البانتو وكذلك السودانين الأوست، وهو غير صحيح ولا يصح إطلاقه عليهم من الناحية العلمية والنظرية والواقعية وقد الكتابة تعتبر إهانة لشعوب المنطقة، فكلا الشعبين (البانتو والسوداني) له اسماً خاصاً به ويفمن إطلاقه ليعم جميع الشعوب السودانية وشعوب البانتو ونحن لا حاجة لنا للتمسك أو ترديد هذا الاصطلاح. وهناك اصطلاح آخر وهو الشائع الآن وهو إفريقيا السوداء ولو إنه أيضاً غير دقيق إلا أنه شاع استخدامه لأن كل الشعوب الإفريقيا تقبله ولا تعتبره إهانة لها، ولكن الأصح هو تسمية الإقليم وسكانها بإفريقيا جنوب الصحراء.

إن اصطلاح إفريقيا الزنجية المشهور خصص لذلك الجزء من إفريقيا الذي تسكنه شعوب فاحة اللون، وهذا يحمل في طياته بذور الكراهية والعقد العرقي إذ إن هذه التسمية وضعت بالأساس لتبين اختلافات عرقية وتركز على أهمية الشعوب الشمالية في التاريخ، ويعده لقب "نينجوة" صناعة خاصة للشعوب الساكنة في إفريقيا السوداء على إنهم عرق متصل عن شعوب الشمال الإفريقي وقد استخدمت هذه التمييزات كسلاح لنيل من هذه الشعوب وكسلاح استعماري يبرر أهداف الاستعمار الدولية تجاه هذه الشعوب حيث يعني أن الشعب الأسود هو شعب أدنى تحق ليخدم الجنس المتفوق وهو الجنس الأبيض.

إن هذا المفهوم العرقي لا يمكن قبوله فليس هناك أجناس متفوقة مستفزة وأخرى أقل منها، فالعرق والاختلافات البيولوجية ليست هي التي تحدد بأن هذا الشعب متفوق إنسانياً وحضارياً على شعب آخر، ولكن البيئة الثقافية وكذا الظروف الاقتصادية هي التي تحكم في مدى تفوق شعب على آخر وترمز دوره في الحضارة البشرية جمعاء.

لذلك فليس من الصواب تقسيم إفريقيا طبقاً لوجهة النظر التاريخية إلى قسمين: إفريقيا العربية أو الشمالية وإفريقيا السوداء وذلك بسبب لون بشرة
سكانها كما وأن التكلم عن جنس أسود أو زنبي متجانس يقطن في المناطق الاستوية أو جنوب الصحراء إنما هو خطأ من الناحية العلمية ومن وجهة النظر العرقية حيث أن:

1 - من وجهة نظر علم الأجناس فإن إفريقيا الزنبي مكونة من عدة جماعات عرقية، فلون البشرة لشعب "الخوي خويف" أو "الهنتون" والبوشمان اللذان يسكنان في جميع مناطق جنوب القارة ليس أسود بل أصفر.

كما وإن الأقسام الشمالية من إفريقيا الاستوية أي السودان الغربي والأوسط تمكنها مجموعة من العرق الذي لا ترتبط بالجنس الزنبي بل نجدهم بالعكس يرتبطون بشعوب إفريقيا الشمالية كما أن العديد من سكان أقاليم ووسط وشرق إفريقيا تشمل العديد من العناصر العربية، بينما نجد سكان مدغشقر قد اندمجت بها عناصر ماليزية.

2 - كانت إفريقيا مثل بقية القارات مسرحاً لهجرات أعداد كبيرة من الشعوب الأخرى خلال آلاف السنين وترتبط على ذلك خلق شعوب متنوعة مختلفة بينما نجد العرق الصافي النقي بقي فقط في مخلية الاستعماريين من علماء الأجناس الجرمان والأنجلو سكسون والصهيون.

وطبقًا لزعم هؤلاء الตนصور فإنه لا يوجد تاريخ لافريقيا السوداء ولا يمكن أن يوجد، ولكن الدائم الباقيء إنما هو تاريخ مئة الشعوب والقبائل التي تعيش في هذه المنطقة من العالم وكذلك تاريخ الاتحادات القبلية ونماذج لدول أنشؤها هم أنفسهم عبر التاريخ.

والذي يعيش في مخيلتنا إنما هو ذلك التاريخ الأسود الدامي البغيض لاستعمار الغزاة الأوروبيين، فمن وجهة النظر الأنثروبولوجية واللغوية نجد العديد من الأجناس الإفريقيا قد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا مع بعضها بينما البعض الآخر رغم أنهم يعيشون في حوار مشترك مباشرًا أو معا في إقليم ما يرجعون إلى مجموعات جنسية وعرقية ولغوية مخالفة.
فقد بعض فترات التاريخ الإفريقي نجد إن العديد من دول إفريقيا الاستوية والجنوبية لها ملامح مشتركة في تطورهم الاجتماعي والاقتصادي. بينما نجد البعض الآخر يختلفون عنهم، فتاريخ هؤلاء هو تاريخ هذه الشعوب والأقطار التي يجب أن يدرس كل منها على حدة.

ورغم أن إفريقيا السوداء، طبقاً لآراء هؤلاء، إقليم مسكون بشعوب قد ارتبطت برابط عرقي موحد، هو مفهوم خاطئ، غير أننا يجب الالتفات تاريخ شعوب هذا الجزء من إفريقيا كوحدة بصرف النظر عن العلاقات العرقية وذلك لأن مصائر هذه الأقطار والشعوب قد ارتبطت بالتاريخ نفسه.

لقد بقيت أقطار إفريقيا السوداء غالباً أرضاً مجهولة حتى مطلع القرن العاشر، فشعوب أوروبا وأسيا لم تكن لديهم أنواع معرفة أو دراية بهذا الجزء من العالم باستثناء بعض المحولات البيئية للكشف أو أطلق عليه العالم القديم الوسيط اسم (القارة الغامضة) والاتصالات التجارية التي قامت بها العرب في بعض الأقاليم الإفريقية خاصة على السواحل الشرقية فإن لم يكن هناك اتصال بين شعوب هذه الأقاليم الشاسعة والمليونات الجغرافية، فتاريخ العالم المتحضر سار في مجراه الخاص، بينما سارت الأقاليم الموحشة في إفريقيا في طريقها الخاص، وقد رفض العديد من المؤرخين إضفاء شرف مشاركة هذه الشعوب في سير وعطاء الحضارة الإنسانية فمن بين كل عشرة مؤلفات عن تاريخ العالم القديم والوسيط نجد نسخة منها تتناول تاريخ وشعوب أوروبا وأسيا وشملت إفريقيا ولا تذكر كلمة واحدة عن شعوب دول إفريقيا السوداء ودول إفريقيا الصحراء.

ورغم الاتصال بالعالم الخارجي فإن أغلي الشعوب الإفريقية ما زالت تعيش حياة بديئية والكثير منها يعيش في أدنى مراحلها ووابض منها ما يزال يعيش في عزلة تامة، فالدولة بطقاً للاصطفاء المدائي هو مفهوم غير معروف عند العديد من الشعوب الإفريقية، كما وأن النظام مدعوم لديهم، وهم وإن
وقد ظهرت أمامنا مجموعتان من الدول التي تعيش حياة تخفيض لنفس الظروف التاريخية والاجتماعية والعقائدية وهما مجموعتا أقطار إفريقيا الاستوائية والجنوبية وقد ظهر عامل جديد في تلك البلاد ربط بينهما وهو سيادة الرأسمال الأجنبي في حياة البلاد الاقتصادية. فمنذ مطلع القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر شنَّ الأوروبيون الغارات الوحشية على البلاد بدأ عن الذهب والبريق وأدى ذلك إلى غزوه لبعض سواحل القارة. وفي القرن التاسع عشر تابعت الحملات العسكرية للمنظمة بهدف احتلالها واستعمارها، وتتابعت الحروب والمنازعات بين الغزاة أنفسهم للتقسيم الغنيمة وتوزيع مناطق النفوذ.
كل هذا جعل دراستنا لهذه المنطقة يخضع لمفهوم وطريقة تجعلنا ندرس تاريخ إفريقيا كمجموعة من الدول المرتبطة بعضها بعض بنفس المصير التاريخي لشعوبها متعددة عن المفهوم الخاطئ الذي لا أرضية له في واقع التطور التاريخي والحضاري والذي يزعم بأن إفريقيا السوداء هي تلك المنطقة التي ترتبها روابط عرقية واحدة توحدها وتجمع بين سكانها «أي العنصر والعرق الزنجي» هو الذي يجمع بينها جميعاً - وهذا كما رأينا مفهوم خاطئ - إفريقيا ليست مسكونة بشعب واحد أسود بل هناك شعوب أخرى مختلفة وزائماً علينا أن نتحقق من صحة المفاهيم المتقدمة عن مسألة العقيدة والقومية في إفريقيا ويربط ذلك بانتشار الإسلام فيها للتدليل على الدور الطيفي الذي لعبه العرب قبل الإسلام ويعده في تاريخ القارة الإفريقية.

إن الهدف الأساسي لهذه الدراسة هو الدعوة إلى التعمق في تاريخ الشعوب الإفريقية التي انتشر فيها الإسلام وأصبح المحور الرئيسي لحياتها الفكرية والروحية وأن نربط كذلك بين الاتصالات القديمة للعرب القدماء بالThunder، وكذلك خلال مراحل التاريخ المختلفة ورغم أنها نجد مادة تاريخية كثيرة عن التاريخ الإفريقي غير أن القيمة العلمية وأمانة معظم تلك المؤلفات تخفض لأسف لمبولا وأهداف مريبة، فالمؤلفون الغربيون بدلاً من تحليلهم للمواقف الاجتماعية والاقتصادية للتطور التاريخي للشعوب الإفريقية يوجهون جهودهم نحو غاية أخرى، فمن ناحية نجدهم يدخلون حلقة مفرغة من البحث عديم الجدوى والذي لا يرتبط بمشاكل العصر الملحقة، بل يغرقون المكتبات بمؤلفات تدور حول أصل الزنجي أو عن أسرار حرائ زيمبابوي، ومن ناحية أخرى نجدهم يدرسون بعض الظواهر الثانوية للتركيبة الإفريقية فيكتبون الكثير عن حياة وفادة ما يسمى بعصر الكشف الجغرافي لإفريقيا أو حركة التبشير الليبرسي ودوره في تطور البلاد، وقد عندما يتناولون بالبحث والدراسة جوهر المشاكل الإفريقية وما يمره التطور الاقتصادي والتاريخي لشعوبها فإنهم يطلقون على مستنقع الاستغلال الاستعماري البشع ليخدموا مصالحهم فيزيون الحقيق
ليرروا محاسن الاستعمار المزعومة حول تطور الشعوب الإفريقية، ثم لا ينسى هؤلاء الدس للعرب والمسلمين إتهامهم بأنهم من كبار تجار الرقيق ويأنهم سبباً في تأخر هذه القارة.

وعتبر معظم المؤلفات المكتوبة عن إفريقيا عبارة عن حوار «دبالوج» وجدال لذكر محاسن الوجه البشع للاستعمار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، والفرق الوحيد بينها هو أن البعض يذكر محاسن الاستعماري البريطاني والآخر الفرنسي وهكذا، بينما نجد البعض الآخر منهم يحاول إضفاء صفة الشرعية على هذا النوع من الاستعمار بينما يحاول البعض الآخر منهم جلاء الفروق بين طرق الاستغلال المختلفة.

لذلك فإن أهداف دراسة التاريخ الإفريقي يجب أن تتجه نحو:

1- التوصل إلى طريقة واضحة للكشف عن الزيف الاستعماري وإظهار الأهداف الحقيقية للمؤرخين المستعمرین.
2- جمع وفرز وإنتاج الحقائق التاريخية من محيط الزيف والتزویر لتاريخ إفريقيا وإيرازها للأضواء في صورة واقعية تخدم الحقيقة لاستخراج العبر.

وإضافة إلى الأهمية العلمية المزدوجة لوجهة النظر التاريخية هذه، فإن دراسة التاريخ الإفريقي تختلف اختلافاً واضحاً بالنسبة لوجهات النظر السياسية والتاريخية تتركز على أسس إيجابية للجرائم التاريخية المكشوفة التي ارتكبها العالم الرأسمالي خلال قرون.

إن شعوب إفريقيا السوداء اليوم منا يزال تحت نير الاضطهاد ويكافح في سبيل حرية ومنهم من استقلال فهم جميعاً لا يزالون معرضين للاستغلال الأوروبي في صوره المختلفة ولا يمكن أن نفصل أي دراسة لتأريخ الشعوب الإفريقية عن وجهات النظر السياسية المختلفة. فهذا التاريخ يعتبر وثيقة سياسية وجزء من قائمة الحساب والذين الذي سوف يؤديه في الوقت المناسب أحقاد تجار الرقيق والغزاة وسفاكى دماء الشعوب الإفريقية فيما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر.
وأخيراً، فإن دراسة التاريخ الإفريقي له مضمون وأهمية سياسية من وجهة نظر أخرى فهي تعتمد على إثربة خبرات الشعوب الإفريقية في حاضرهم ومستقبلهم وتوحد كفاحهم ضد الامبريالية في سبيل حرية ورحيلهم واستقلالهم.

وتضمن هذا الهدف فإنه من الضروري خلال دراسة الحقب التاريخية للشعوب الإفريقية كل على حدة أن نجمع ونحلل بكل دقة أي مادة أو تفاصيل، ولست كانت بسيطة، ونجمع بينها وبين تاريخ المقاومة والكافح التحرري لهذه الشعوب ونركز على الحقائق لنخرج منها نتائج إيجابية أو دروساً ملهمة لهذا الكفاح.

لكل هذه الأسباب رأودتني فكرة إعداد هذا الكتاب وتشجعني عليها أيضاً قيامي بتدريس مادة تاريخ إفريقيا لسنوات طويلة لطلابي بالرحلتين الجامعية والعليا وإشرافي على رساليتي ماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر وهو محاولة لتسليط الضوء على هذا الجزء من القارة الذي شهد حركة واسعة لانتشار الإسلام وقيام دول وممالك إسلامية مزدهرة، مستهدفين إبراز السمات والخصائص العامة لها من خلال التطور السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، آملًا أن يجد فيه طلابي بعض الإجابات لتساؤلاتهم ومناقشاتهم التي كانت على اليوام خير مشجع وحازم لي على إعداده، والله من وراء القصد...

المؤلف
د. عطية مخزوم الفيتوري
أستاذ/ مشارك بقسم التاريخ
جامعة قاريونس - بنغازي
بنغازي/صيف 1997

14
الفصل الأول

شعوب إفريقيا قبل نهاية القرن الخامس عشر
شعوب إفريقيا قبل نهاية القرن الخامس عشر

لقد آتتنا في هذا الفصل دراسة شعوب وقبائل إفريقيا جنوب الصحراء حتى نهاية القرن الخامس عشر لسبرين رئيسيين هما:

أولاً: إن هذه الشعوب خلال هذه المرحلة وكما درسنا في العرض السابق عاشت في عزوة شبه تامة ولا يوجد أي اتصال بالمعنى الحقيقي بينهم وبين الشعوب الأوروبية طيلة هذه الفترة لذا اتخذ التشكيل السكاني لهذه المنطقة سمات خاصة وحدودية يمكننا دراستها بشكل مستقل.

ثانياً: منذ نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ازداد اهتمام وتدخل الأوروبيين في أقاليم عديدة نتيجة ما يسمى لديهم بحركة الكشوف الجغرافية وأصبح مصير الشعوب الإفريقية منذ تلك اللحظة مرتبطة بتاريخ الشعوب الأوروبية عامة ونشاطهم الاستعماري بصورة خاصة لذلك اتخذت هذه المرحلة سمات خاصة تختلف عن المراحل السابقة حيث تغيرت التشكيلات السكانية وتكتونيات القبائل حسب الأوضاع الاستعمارية في كل منطقة وهذا بطبعه يدخل ضمن التاريخ الحديث لهذه المنطقة وهو خارج نطاق دراستنا.

وسبب تعدد شعوب وقبائل دول إفريقيا فإننا لن ندرس تاريخها بالمعنى الدقيق لمفهوم التاريخ بل سنحاول دراسة تطورهم الحضاري والاقتصادي والسياسي والاجتماعي حتى الغزو الأوربي، ولدراسة هذه الموضوعات فإنه من
المحمدين علينا أن نأخذ أولًا فكرة واسعة عن هذه الشعوب التي سندرسها وإلى أي المنحنيات الاتيوبوليفية ينتمون؟ وكيف كان توزيعهم الجغرافي في مواطنهم وما هي الأقاليم التي كانوا يسكنونها في بداية عصر التدخل الأوروبي؟ وماذا عن هجراتهم وعلاقاتهم الحيوية أي تلك العلاقات العدوانية والسلبية وأندماجهم ... الخ؟ كل هذا في فترة تاريخهم المبكر حتى نهاية القرن الخامس عشر.

إن الكثير من المؤلفين عندما يكتبون عن تاريخ الشعوب الإفريقية وبصفة خاصة عن تاريخهم قبل التدخل الأوروبي نجدهم يهتمون بالدرجة الأولى بأصول الأجناس الإفريقية والاختلافات العرقية بينهم وهذا الموضوع لا يهمنا في دراستنا هذه فكل ما نهتم به هو الظروف المهيئة لنشأة وتطور هذه الأجناس وتوزيعهم الإقليمي وتطورهم الاجتماعي الاقتصادي ومميزاتهم اللغوية التي تربط بينهم وأخيرا الأميزات الحضارية، ونحن عندما نقسم الشعوب الإفريقية إلى مجموعات فإننا لا نقوم بذلك، تبعًا لانتماهم العرقي بل طبقا لأربعة عناصر أساسية في تشكيل الشعوب وهي التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري ويجب علينا من هذه الزاوية أن نواجه الحفائر التي نعرفها عن حياة وتطور الشعوب والقبائل الإفريقية قبل التدخل الأوروبي.

أهم المجموعات البشرية للشعوب الإفريقية

يتضمن معظم سكان القارة الإفريقية فيما عدا الشمال الإفريقي إلى ثلاثة مجموعات كبيرة وهي:

1- تلك التي تعيش في أقاليم السودان وهي عبارة عن مئات القبائل والشعوب التي تتكلم اللغات السودانية، والسودان بمفهوم العصر هو ذلك الإقليم الواقع بين الصحراء الكبرى وخط الاستواء وتمتد حدوده الشمالية على الخط الوهمي الذي ينحني ويتعرج من بداية عند مصب نهر النيل الصغير في بحر
تمبكرو إلى الخرطوم وكسل، بينما يمتد خط الحدود الجنوبية من سواحل غينيا على طول خط عرض 5 شمالاً حتى الحدود الأثيوبية.

2- القبائل والشعوب التي تسكن الأقاليم الإفريقية الواقعة جنوب السودان وهي تقريباً نصف القارة الجنوبية وهي أقاليم الشعوب والقبائل التي تتكلم لغات البانتو.

3- المجموعة الثالثة وهي التي تسكن الأقاليم الإفريقية الواقعة شمال وشرق السودان ثم الزاوية الشمالية الشرقية لإثيوبيا والتي تشمل أثيوبيا وأريتريا والصومال وجزء من كينيا شرقاً وتسكنها شعوب تتكلم اللغات الحامية والسامية.

وكل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث هي مجموعة أساسية كبيرة تمثل قبائل عديدة تسكن مناطقها المذكورة منذ أزمان غابرة وكانت من حيث العدد تتغلب على غيرها من الشعوب التي تعيش بينها إما منفصلة أو مدمجة معها.

وإلى جانب هذه المجموعات الثلاث الكبرى تعيش ثلاث مجموعات صغيرة من الشعوب الإفريقية هي:

1- قبائل الخوي خوي والساءان في الركن الجنوبي الغربي.

2- مجموعات البيجامي أي الأقزام وهم موزعون في مجموعات صغيرة داخل الغابات الاستوائية لإثيوبيا الوسطى.

3- قبائل ملاجاش (مدغشقر) التي تتكلم لغات ماليزية وأندونوسية.

وفتر الحديث بشيء من التفصيل عن هذه المجموعات القبلية يجدنا أن نلقي نظرة سريعة على إفريقيا فيما قبل التاريخ. فالنسبة للعصر الحجري القديم فقد اكتشف في جنوب إفريقيا منذ عام 1920 أول مواقع للإنسان القديم شبه المعتدل حيث وجدت له جماعيم وأدوات بدائية حجرية وهذه الأدوات كانت من
صنع الإنسان الأكثر تطوراً وهو الاكترويين وتعتبر تنجانشيا من أقدم المناطق التي وجد بها بقایا إنسان العصر الحجري القديم(1) كما اكتشف حديثاً في كاتانجا بعض الكهوف المدفونة التي يرجع عمرها إلى حوالي أربعمائة ألف سنة. م تحتوي على أدوات ترجع إلى الحضارة المسماة بالبيل كلتشر وهذا الأدوات كانت تستعمل في الصيد أو في الدفاع عن النفس، أما العصر الحجري الوسيط فقد تميز بتطور ملحوظ في الصناعات اليدوية الحجرية وتنوعت أشكالها التي أصبحت على هيئة سكاكين دائرة أو مجدية، ومخلفات إفريقيا في هذه المرحلة لا تحصى وقد وجدت في أماكن عديدة مثل الشمال الإفريقي والحبشة والصومال وكنينيا وأنجولا والكونغو وإفريقيا الجنوبية.

أما العصر الحجري الحديث فإنه تميز بتنمية واضح في مراحل الحضارة الإفريقي حيث تجسدت فيه مراحل مسكن الإنسان الإفريقي وتطور الصناعة ومنها الأسلحة ومواد أدوية النزعة وتطور الأدوات الحجرية كما بدأ في هذا العصر ظهور الفن المرسوم(2).

(1) الشعوب السودانية:

إن غالبية سكان إفريقيا أي سكان الأقاليم التي تحدها الصحراء وساحل غينيا العليا وامتدادها على خط 5 شمالاً أي من المحيط الأطلسي إلى النيل إلى جانب القناع العربي تشكل الأسرة الكبرى للشعوب السودانية والسودان الذي نعنيه هنا هو ذلك الإقليم الواسع الذي يحوي كل بلاد الأفراقة أصحاب البشرة السوداء وهي المنطقة الممتدة في قلب القارة من الغرب إلى الشرق ثم تحدى بعد هذا اسم السودان على تلك المنطقة شبه الصحراوية والتي تغلغل فيها الإسلام.

(1) فريد البحكي، "إفريقيا فيما قبل التاريخ"، محاضرات الموسم الثقافي الأول 79- 80، طرابلس، مركز الجهاد، 1989، ص 100.

(2) نفس المصدر، ص 101- 102.
والتي تعرف بغرب إفريقيا، وتربط هذه الشعوب بريباً يوحدها وهو الأساس اللغة ثم العناصر الحضارية بالدرجة الثانية، كما وأن العوامل لهذه الشعوب ترتبط بأصل واحد. ونبعد بين القبائل السودانية العديد من القوميات الأخرى التي تختلف في أصولها عن السودانيين، ولم تحتفظ شعوب هذا الإقليم بمقاومة عرقهم وخصائصهم الأنتوغرافية فنجد شعوبًا مختلفة العرق يحملون خصائص عرقية وخلطًا حضاريًا مستمد من العناصر الحامية والسلامية خلال عدة عصور مثل الهوسا والنيلية(3) كما وأن هؤلاء السودانيين لم يكون تقدمهم الاجتماعي والاقتصادي بنفس الدرجة المتجانسة الموحدة بين شعوبهم وبطونهم المختلفة، وقد اختلفت مصيرهم التاريخي وسماتهم التي كان لها طرازًا وأشكالًا مختلفة، فقد كان للبعض منهم دولة خاصة بهم وصناعات بدوية متدرجة في العصور الوسطى كالهوسا مثلًا، بينما بقي البعض يعيشون أحيانًا اجتماعياً واقتصادية بدائية مثل قبائل شمال نيجيريا الوثني وذلك حتى القرن التاسع عشر(4).

لقد استقرت الشعوب السودانية خلال قرون عديدة في مجتمعات زراعية وكانت أراضيهم خلال العصور القديمة هدفًا لإغارات وغزوات الشعوب البدوية الرعوية التي كانت تعيش شمال السودان في دواخل الأقاليم الشرقية والوسطى أي في الصحراء وغيرها من مناطق البحر المتوسط. كما رأينا ومن خلال تجاربهم ضد القبائل المعادية نشأت بينهم عدّة تحالفات واتحادات قبلية، وقد اختلفت تلك الاحتفالات التي قامت بين القبائل الضعيفة أمام القبائل المعادية القوية والتي أسسها عدد من الشعوب القبلية ذات طابع الدول المستقبيلة وكانت الدولة منهما تجمع عددًا من تلك الاحتفالات، هذا بينما استقر الغزاة

(3) حسين عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولايات، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1981 ص 35.

(4) للمزيد من المعلومات انظر:

 دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، بيروت، دار المعارف.
 seri eval نفسيهم في الأقاليم المفتوحة وهجروا حياة البداوة، واختلطوا بالأفارقة المهمزين وقد نقلوا إليهم بعض عناصر حضارتهم وأخذوا لغات وعادات الأغلبية المغلوبة على أمرها.

وهكذا قامت عدة دول قديمة في هذه المنطقة مثل غانا التي تأسست في بداية القرن الرابع الميلادي، ثم أن هذه الدولة تحولت فيما بعد إلى إمبراطورية إسلامية تحت اسم إمبراطورية مالي ثم تحول هذا الاسم إلى إمبراطورية السنغال، وينفس الطريق نشأت دولة كاتمن (غانام) في شمال بحيرة تشاد وقد أنشأتها قبائل (التيرو) ولكنها سرعان ما خضعت للعرب، كما أنو العرب في الأجزاء الشرقية من السودان دولة دارفور السودانية وذلك من بين شعوب كنبور والتيرو وقد قدم هؤلاء إليها من كان كنماً كما أنو العرب دويلات باقريي ووادي.

وفي القرنين العاشر والحادي عشر اعترفت القبائل الثلاث الكبرى لغرب السودان ودولة كان الدين الإسلامي وهذا ما قوى سلطة الدولة وسط السيادة العربية عليها ووسعت مجال تجارتها مع الدول الأخرى، كما بدأ النظام في التقلص درجة بعد أخرى وبدأت بالتدريج النظم التي تعتمد في اقتصادياتها على النظام الإقطاعية.

وإلى جانب الفاتحين العرب فقد لعبت عدة شعوب سودانية أخرى دورها.

(5) يعلى، أديس، الحضارة الإفريقية، ت علي شاهين، بروت، مكتبة الحياة، ص 28.
(6) أحمد بن خليفة محمد، "العروبة السنغال وإسلامها "، محاضرات الموسم الثقافي الأول، طرابلس، مركز الجهاد، 1989، ص 368.
(7) للمزيد من المعلومات عن هذه الدول وكيفية إنشاؤها وتطورها راجع مقالة: حسین مؤسس، فزان ودورها في نشر الإسلام في إفريقيا، مجلة كلية الآداب، بنغازي.
في التاريخ الحضاري مثل شعب الماندي وسونهراي والهوسا والفولولا التي أصبحت سودانية اللغة والحضارة، هذا إلى جانب تلك الشعوب الموحدة السودانية الجديدة التي ظهرت في أراضي دول السودان الأوسط مثل كاتوري وباجرمي والدارفورين، ففي السودان الغربي اتحدثت أعداد كبيرة من القبائل الصغرى والكبرى في اتحادات قبلية كبيرة بينما امتصت القبائل الكبرى غيرها من القبائل الصغرى التي انصهرت فيها، كما نجحت بعض القبائل الصغرى رغم ذلك في الحفاظ على أراضيهم مع خضوعهم للفصوص الكبرى في أقاليمهم، كما نجح البعض الآخر في الحفاظ على استقلاله وذلك بالانعزال في إحدى الأقاليم التابعة للدولة الجديدة، وقد اضطرت بعض القبائل السودانية الغير قادرة على المواجهة مع القوى الجديدة والذين لم يرغبوا في الخضوع لسلطتهم اضطروا إلى القرار وبمضي القرون قامت القبائل السودانية بالهجرة من داخل السودان الغربي نحو أربعة اتجاهات: نحو الغرب إلى حوض السنغال وجاما وجنوبا إلى الجنوب إلى سواحل خليج غينيا ثم إلى الجنوب الشرقي إلى آدامو وخلفها من الاقليم الواقع بين الكونغو والنيل وأخيرا نحو الشرق إلى السودان الشرقي وآثيوبيا.

أ- شعوب السودان الغربي:

تتكون معظم غالبية سكان السودان الغربي من أربع قوميات كبرى هي:
الماندي وسونهراي والهوسا وهي شعوب إفريقية كبرى استطاعت الوقوف على قدميها أثناء الصراع، أما الرابعة فشكلت من الشعوب القادمة للمنطقة أي الفولولا وهي شعوب رعوية وقد تحولت إلى شعب سوداني بعد أن اتخذت اللغة السودانية لغة لها كذلك بعض المظاهر الحضارية وأغلبية هذه القبائل والشعوب.

اعتقست الإسلام في فترات تاريخية متعددة وقد لعب المغرب الأقصى دوراً مهمّاً في نشر الدين بينهم.

١ - المانديجو:

إن شعب الماندي وهو يشكل غالبية السكان في الأقاليم الواقعة بين رواند علماً لثلاث أنهار رئيسية بالغرب وهي السنغال وجامبيا وأعلى النيل وقد انتشرت في جميع أقاليم السودان الغربي الواقعة في جنوب السنغال وأعلى النيل أي من المحيط إلى قلب نيجيريا وقد تفرعوا إلى عدة قبائل وبطون أهمها البابارا - المالنكي - غالونكي - السامانكي، وكان المانديجو هم العناصر الأساسية لشعوب دوليات غرب السودان في غانا ومالي فقد أنشأناهم أنفسهم دولة مالي التي مارست سلطتها العليا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر وذلك عندما اعتنق رؤساؤها الإسلام مع بداية القرن الثالث عشر وقد استولى سلاطنة مالي على أقاليم كبيرة من غانا وسونرهاي وكذلك تمبكتو إلا أنه حدثت تغيرات وتطورات في منتصف القرن الخامس عشر أدت إلى تجزئة هذه الدولة إلى دولتي صغيرة عديدة.

٢ - سونرهاي (صنغاي):

شغلت الأقاليم الواقعة جنوب تمبكتو وتمتد على ضفتي نهر النيجر إلى الشمال من داهومي عند مدينة داندي إلى جنوب فولتا العليا وشمال نيجيريا ونشأت هذه الدولة أو ما يسمى امبراطورية سونرهاي في القرن

---

(9) راجع الفصل الخاص بمملكة مالي الإسلامية.
(10) إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية، الجزائر، مؤسسة الكتاب، 1984، ص 242.
(11) سيتكي ميودي سيسوكو، الصنغاي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1988، ص 199.
الأولى الميلادية وأقامت علاقات تجارية وحضارية مع مصر وأعمال النيل ونقلت إليها مصر بعض العادات ومنها ألقاب الملوك بينما نقل إليها السودان الشرقي الدين الإسلامي وستتحدث عن مراحل تكوين هذه الامبراطورية ودخول الإسلام فيها في فصل لاحق.

3 - الهوسا:

تحتل الهوسا معظم دولة نيجيريا ويقدر عددهم بحوالي خمسة عشر مليونة(12) وقد كانوا يعيشون في السابق في الأقاليم الوسطى لجنوب الصحراء شرقي نهر النيل وقد أخرجتهم من موطئنهم بقاتل الطوارق فأخذوا يهاجرون نحو الجنوب، وفي القرنين التاسع والعشرين أقاموا لأنفسهم سبع دولات أساسية منها كانوا يتنسبوا وسبع دولات ثانية منها كيب نوب وبوريا وذلك في الأقاليم الواقعة بين النيل غرباً وبرونو جنوبًا أي في معظم النصف الشمالي لنيجيريا اليوم. ومنذ العصور القديمة كان الهوسا يختلفون مع بقية الشعوب السودانية وذلك بتقوفهم في الصناعات اليدوية خاصة صناعة المسجات وقاموا كذلك بنشاط تجاري مزدهر بمواطنيهم مع الشعوب الأخرى ونتجت علاقاتهم التجارية فقد تركت حضارتهم طابعاً مميزاً خارج مواطنيهم فأصبحت لغتهم هي اللغة السائدة المستخدمة في التجارة والعلاقات الدبلوماسية بغرب إفريقيا وكانت هذه اللغة مفهومة ومتداولة في جميع الأسواق الإفريقية منذ الأزمنة القديمة، بل واستخدمها حكام الدولات السودانية في علاقاتهم الدبلوماسية وفي القرن الخامس عشر أخذت هؤلاء الدولات تعرف الإسلام الذي انتشر بينها كما أن هذه القبائل قد وقفت موقف الحذر من الاستعمار البريطاني ونفت من الثقافة الأوربية كما أن المسيحية لم تجد منفذاً فيها بفضل انتشار الإسلام فيها(13).

(12) إبراهيم موسى جوب، ص. 9.
(13) زاهر رياض، المملكة الإسلامية في غرب إفريقيا، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968 ص 290.

26
وهذا ما سندرسه بشيء من التفصيل في فصل لاحق.

4 - اليوروبية:

ترتكز هذه القبائل في الجنوب الغربي من نيجيريا كما يوجد بعض منها في الإقليم الشمالي وهناك اختلاف حول المكان الذي جاءت منه هذه القبائل حيث يرى البعض بأنها جاءت من صعيد مصر، بينما يرى آخرون بأنها جاءت من الشرق أي مكة، وفريق ثالث يقول إن مصدرها غرب إفريقيا نتيجة ضغط قبائل يعرب بنى قطحان ويرجح حسن إبراهيم حسن الرأي الذي يقول بأنها جاءت من صعيد مصر حيث يوجد تشابه بين عادات وتقاليد الطرفين. وقد انتشر الإسلام بين هذه القبائل عن طريق الفولاني (14) وجمع الرحالة الأوروبيون على أن اليوروبا كانت لهم حضارات عظيمة مزدهرة حيث أنشأوا مدنًا عظيمة مثل إيفا وألوبيو وكانت تتميز بتنسيق عجيب وكان لكل حي منها طابعه الخاص المميز وكانت منازل الزعماء هي أهم هذه المدن، وكما أن أسواقها كانت تمتاز بالرواج والاستمرار حتى في الأيام التي تكون فيها القبائل مشغولة بحروب مع غيرها من القبائل وزعماء هذه القبائل يحظون بتقدير واحترام كبير من الجميع إذ يسود الاعتقاد بأنهم من سلالة السماء (14م).

5 - الفولانيسي:

تعدن قبائل الفولاني من أهم القبائل الإفريقية من حيث التأثير والانتشار، وقد اختالف المؤرخون حول أصولهم فمنهم من يرى بأنهم من الغيرونيين الذين هاجروا من مصر في عهد الفراعنة إلى شمال إفريقيا حتى انتها إلى فوتا سنجوميو، ومنهم من يقول بأنهم هم الذين سكنوا البلاد المعروفة الآن بالمغرب (14).

(14م) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط 2، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية، 1964، ص 125.

(14) نعيم قضاح، حضاراة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، دمشق، مكتبة أطلس 1965، ص 54 وما بعدها.

27
الأقسيم والهوسا ثم نزحوا جنوباً عندما أُجِبَت الصحراء الكبرى(15).
وال 않을اني هم مجموعة كبيرة من القبائل الرعوية البدوية ولغتهم هي السودانية، وقد أصبحوا خلال مراحل تاريخهم من أهم القوميات الكبرى في السودان الغربي والأوسط، ورغم الاختلافات التي أشارنا إليها فيما يخص أصولهم إلا أنه من الأكيد أنهم قد تسرموا في الأزمنة المبكرة في جميع أقاليم السودان وفي بداية الأمر هاجروا إلى غرب السودان ثم إلى السودان الأوسط واحتلوا أقاليم السنغال الأوسط حيث أقاموا هناك دولة صغيرة لهم ومنها تسرموا نحو الشرق والجنوب، وفي نهاية القرن الثالث عشر وصلوا إلى غربي إفريقيا واصبحوا تابعين للإمبراطورية غانا التي زحف عليها المرابطين فيما بعد فاعتقل معظم الفولاني الموجودين بها الإسلام مع الوفود التي اعتقلته آنذاك. وبعد استيلاء مالي على غانا في نهاية القرن الثالث عشر أصبحوا جزءاً من المملكة الجديدة وازداد انتشار الإسلام بينهم، وبعد سقوط مالي خضعوا لإمبراطورية السنغال التي سقطت أيضاً عقب الزحف المرابطي وقامت مكانة الفولاني في هذه البقاع لأن الاحتلال المرابطي لم يستطع أن يوطد سلطاته على جوانب الإمبراطورية وقد أتاح لهم ذلك أن يندفعوا نحو الشرق وانشروا كراعة بين القرى الزراعية ونشط التجار في البيع والشراء وما إن جاء القرن السادس عشر حتى ازدادوا قوة وقويت بوجودهم إمارات الهوسا التي استقرت بها(16).

لقد تمكن الفولاني من تأسيس إمبراطورية كبيرة حيث اهتموا بالزراعة وكانت الأراضي الفضحة التي تكونن منها الإمبراطورية في غالبيتها أراضي خصبة فكثرت بها المحاصيل الزراعية وازدهرت وعادت عليها بفوائد اقتصادية كبيرة مكنتها من التطور وسيطرت فوتا سنجومبا على هذه المناطق

(15) نعم ندا، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية، دمشق، مكتبة أطلس، 1965، ص 54 وما يليها.
(16) أبو بكر الوفري، تاريخ فوتي السنغالية، القاهرة، 1956، ص 6.
الواسعة بتسير أعمال التجارة فأخذت الأسواق المختلفة من جميع الاتجاهات تصل بها وكانت الطرق حافلة بالقوافل التجارية التي تسير في أمر وطمأينة. وهكذا انتشر الغني والرخاء بها وقد زارها الرحلاء الأجانب ووصفوا أحدهم بأن سكانها شعب له بشرة سمراء معظمهم يحفظون القرآن الكريم ويتكلمون اللغة العربية بحسب حفظهم للقرآن ويشعرون حياة قبلية لا يخضعون لأي ملك من ملوك البلاد التي يقيمون بها، وهم أصحاب طبعة هادئة تعلموها جيداً ما هو الحق وما هو العدل حتى أن من يركب الشر منهم يكون موضوعاً لكره الجميع، وهذه الجماعات على جانب كبير من النشاط الاقتصادي والاجتماعي فهم يزرون الكثير من القمح والقطن مما يزيد عن حاجتهم ويبيعون الزائد بسعر معتدل ويشتهرن بالكرم إلى درجة أن الإفريقيين من سكان هذه المناطق يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن يكون بجانبهم جماعة من الغولاني (17). ويقال إن هذه القبائل كانت تقطن المساكن التي يوجد بها الولوف اليوم والظاهر أنهم أخذوا اسمهم الجديد بعد أن كان اسمهم البوفر وبعد أن دخلوا الإسلام بالآلاف اشتركوا مع عبد الله ابن ياسين في فتوحاته في إفريقيا وقد كثر تواجدهم بالسنغال هم وقبيلة البوفر ويطلق الغولانيون على أنفسهم اسم يارم بمعنى (العرب) بتحرير الباب إلى مين. ويعرم بمعنى العرم أو السيل، وهؤلاء كان طريقهم الذي سلكوه طبيعياً من الجنوب في خط مستقيم ولا توجد جبال أو أي عراق في طريق رحلاتهم التي تتابعت على عدة قرون قبل الإسلام، ثم تطورت هجرتهم إلى الشرق ثانية انطلاقاً من السنغال حيث قامت هجرات منهم ومن أولادهم وأحفادهم إلى غينيا في فوتاجولون ثم إلى مالي ثم إلى فولتا العليا فالينجر وأخيراً نيجيريا حيث أسسوا دولة سوكوتا تلك الدول التي أسسها عثمان دان فوديو. حيث اختلطوا مع قبيلة البوفر الموجودة بالمنطقة قبلهم وولد خليط

فولاني ليس فولاني صرف وليس بورر وهم الذين يسمون التكرور ويطلقون على أنفسهم فولبي (18).

6 - التبو أو البتو (Toubou):
البتو عنصراً من عناصر سكان كوار وهم في الأصل شعب مستقل بنفسه يسكن منطقة متواضعة في غرب كوار وتمتد إلى مرتفعات الهجار كما ينتشر في فزان ويمتدون كذلك في جبال تبستي وما يجاورها وهناك مجموعات منهم في بحر الغزال وفي بلاد الكاف ومواحات كوار (19) ويقدر عددهم خلال الستينات من هذا القرن بحوالي 195.000 نسمة (20) ويتكلمون لغة خاصة بهم هي الدازاغية أو البندلية (Tedega)، (Dazaga) التي تنتمي إلى إحدى اللغات الصحراوية وهم فرعان البتا (Daza) والدازا (Teda) حيث يعيش الفرع الأول في تبستي والثاني في بوركر وإيندي، وتنقسم كل وحدة من هاتين المجموعتين إلى فئات مختلفة حيث تضم الأولى أربع مجموعات والثانية أربعة عشر قبيلة (21).
والتابو ليسوا بضناً صرحا ولا سوداً خالصين وإنما هم شعب هجين وهم مسلمون من زمن طويل، اشتهروا بالأباد على المشايخ والصالحين ومن ثم فهم كانوا دائما دعاة إسلام وهم حينما ذهبو بحملون إسلامهم معهم ويجذبون الناس إليه، وقد عملوا أدلة للقوافل وخدمة التجار وهم يفضلون اسم البتا أما التبو أو البتو فهي أسماء أطلقها عليهم الأوروبيون وهم يسمون في بحر الغزال بالاكتشر وهمون في وادي بأسماء بشتى منها أما وينوركو وكريدا ونوريا وغرفاد (22).

(18) إبراهيم موسى حوب، ص 12.
(19) أحمد بن خليفة محمد، ص 371 - 372.
(20) حسين مؤنس، ص 94.
(22) حسين مؤنس، 95.
وأكبر قبائل الدازا هي كريد التي تعيش في منطقة بحر الغزال والدازا وتعيش في كامن وتضم كذلك قبيلة الشكدار وموطنها راداي وتتمسك هذه القبائل إلى لحمات صغيرة وتركت في الماء والكلا وتحترف قبائل الدازا تربية الخيول والعذور والبقر بينما تعتمد اليدا على تربية الأبل التي تعد المصدر الأساسي لرزقهم، أما الكمجا (Kamadia) فهؤلاء يعتمدون في معيشتهم على زراعة النخيل في إقليم بوروكو(23).

وإلى جانب هذه القوميات الكبرى التي تحدث عنها لشعوب السودان الغربي نجد أن دواخيل هذه المنطقة كانت مسكونة لمجموعات عديدة من القبائل الصغرى والكبرى التي أسلمت بعضها للشعوب الحاكمة في دول السودان أو التي عزلت نفسها في مناطقها متبعة لطبيعة الحياة أو الأعداء أو الشعوب السودانية ورغم أنها كانت تتسم إليها لغويًا وحضاريًا فقد كانت قوية جبارة وقد وجدت مثل هذه القبائل في ثلاث أقاليم هي:

1 - أقاليم أعمالي ووسط مجرى النيجر حيث تعيش عدة قبائل مستقلة مثل قبائل كوارفكو وستنجراء وأسولوا... الخ.

2 - إقليم أعمالي ومنابع نهر النيل حيث كان يعيش بها عدد من القبائل مثل: موسى - حورما - حورونسي - بورغو - مونشي... الخ، والتي رغم عدم صمودها أمام التأثير الحضاري للسوندر لالهوسا والفوكلاني فإنها لم تعتنق الإسلام واحتفظت باستقلال دواليها الصغرية، ولعبت قبائل الموسي دورًا بارزًا بين غيرها من القبائل بالمنطقة فقد احتلت وما زالت حتى اليوم المنحدرات الشمالية لجبال كونجي داخل منحنى مجرى نهر النيجر، أي الأقاليم الواقعة حول مدينة واجادوجو والأقاليم الشمالية الغربية لساحل الذهب (غانا).

3 - مناطق نيجيريا الشمالية أي في أقاليم دويلات الهوسا والفوكلاني

(23) سعيد الجذيري، ص 38. 39.
الإسلامية وقد كان يعيش بها بعض القبائل الوثنية الصغيرة مثل قبائل انجار بيروم - حوري - جراوه - جوكون وكتب، وقد بقيت بعيدة عن تأثير أعدائها ولم يكن له أي شكل من أشكال الدولة وكانت تشكيلاتهم قليلة ومكونة من اتحاد بعض القرى تحت رئيس قبلي (24) إلى جانب شعوب غرب السودان الخالصة فإنها نجد من بين هؤلاء أعداداً كبيرة من الطوارق والعرب والمور (المايمركية) وسوف نتحدث عنهم في الفقرات القادمة عند الحديث عن بقية الشعوب الأخرى لأفريقيا.

ب - شعوب السودان الأوسط:

أدت عملية إنشاء الدولتين الكبرى في وسط السودان (كاثام - برينو - بارومي - داي - دافور) إلى مولد الشعوب الكبرى من الأمم البادية والاتحادات القبلية التي كونت عناصر أثيوغلافية مختلفة وكان إقبالهم على الإسلام واعتناقهم له من أهم العناصر التي أثرت على مصر المنطقة إذا وجد الإسلام بين العرب والقبائل السودانية وهي كانيمو - كانوري - بجروي - وداروين ودار فورون وكانت هذه الشعوب جميعاً تحمل الطابع السوداني المميز ورغم ذلك فقد عممتهم لمسات أثيوغلافية عربية وشملتهم حضارة هؤلاء العرب ولكن هناك بعض القبائل التي لم تظهر في تلك المؤثرات الجديدة وقد بقيت العديد من القبائل السودانية والتي لم تصبح عضواً في أسرة الشعوب الأساسية الكبرى لتلك الدولة على وثبتها وقد تمكنت البعض منهم من الاحتفاظ باستقلالهم الكامل، بينما البعض الآخر خضع للسلطة السياسية لسلاتين الشعوب الحاكمة في السودان الأوسط ولكنهم تمكنوا من الاحتفاظ بطابعهم السوداني وعلى طرق حياتهم وحضارتهم (25) وسوف نفرد فصلاً خاصاً لدراسة دول

Richard (L).

(24) راجع الفصل الخاص بانتشار الإسلام في كانم وبرينو بهذا الكتاب.

(25)
وشعب السودان الأوسط في مراحل انتشار الإسلام بها وهي كان وبرنو والدارفوريون ووادي وباجرمي.

ج - شعب السنغامبيا:

أي الشعوب السودانية التي هاجرت إلى الغرب إلى حوض نهر السنغال والجامبيا (السنغامبيا والذين شكلوا اتحادات قوية أو ضعيفة فقد قاموا بإنشاء دويلاتهم البدائية التنظيم. وقد كانت تلك الدويلات متاخمة لدول الماندنجو (الماندي) وفي فترة متاخمة مع دول قبائل الفولو. وقد ناضلوا لقرون طويلة الماندي والفولو في سبيل استقلالهم. ثم ضد إغارات القبائل المصرية الوافدة من الشمال ضد الغزاة الأوروبيين على مناطق الساحل.

ومن أهم شعوب هذه المجموعة الجغرافية الفولو (حولف) الذين احتلوا المناطق الساحرة الواقعة بين نهر السنغال والجامبيا (26) ولكنهم أجروا على الخروج منها بعد غارات قبائل الطراز المغربي وقد تركزوا في ستة تشكيلات من الدويلات وهي أوراولا - باول - كابور - سفود - سالوم، وأخيراً الفولو وكان يرأس كل منها رئيس منتخب وقد ارتبط هؤلاء الرؤساء بالولاء للرئيس الأعلى والرئيسي لقبائل الفولو والذي كان لقبه (الولفو الأكبر) وقد تفرعوا إلى أربع أوراق أساسية هي: استقراتيطية الأحرار وأرباب العمل والحرف اليدوية والمغناة ثم العبض الذين كان لهم حق تمكمل العقارات.

ولقد كانت معظم قبائل شعوب السنغامبيا ما عدا الماندنجو والفولو تخفض إلى حد ما لفوق الفولو. وفي غاتهم وعادتهم فإن السير جيران الفولو المحشرين من ناحية الجنوب كانوا يربطون بهم ارتباطاً وثيقاً وكذلك الذين كانوا يعيشون على الأرض الساحلية والأقاليم المتاخمة لها والواقعة ما بين مدينة داكار وأنه الجامبيا، وقد تفرعوا إلى مجموعتين فرعيتين هما: سيرور-

(26) أحمد بن خليفة محمد، ص 373.
ونه, وهو مجموعه صغيرة تتواجد بالشمال الغربي يحدهم الكايبور ثم السير..

سين, وهي قبائل صغيرة وعديدة, ولقد كانت لغة الولوف هي اللغة الرسمية
لدويلات السير وقد اختلفوا وامتنعوا بعضهم والماندينجو وكان يرأس
العديد من قبائلهم رؤساء من سلالة المندي.

وتعتبر قبائل التوكولور أو التكور هي المجموعة الكبرى الثالثة في
السينجامي كانوا يتقربون من الناحية اللغوية من الولوفاني, وقد حدث خطأ كبير
بين هذه القبائل وقبائل الولوفاني حيث يعتبر الكثيرون أنهم نفس القبيلة أو
الشعوب, والحقيقة أن لفظ تكرور هو الاسم الذي كانت تعرف به في وقت من
الأوقات مدينة بالقرب من نهر فوتنا سنقومباو, وعندما يذكر الكتاب الإنجليز أو
الفرنسيين هذه الكلمة أو المصطلح فإنهم يقصدون بعادة الشعب الذي يعيش
على ضفاف نهر سنقومباو وهي المنطقة التي تعرف حالياً بالسنغال وموريتانيا(27)

ويرى إبراهيم جوب أن هذا التحليل غير صحيح لأن كلمة تكرور عبارة عن اسم
مدينة مملكتهم وهذا الشعب كان يسكن الجزء الأكبر من ضفاف النهر من بندوا
وبلاد فوتنا على جانبي نهر السنغال (Futa) ولن كان أكثرها على الجانب الأيسر
من هذا النهر ويدخل فيها من الغرب إلى الشرق أقاليم دمار- وتورو - ولاو -
وأپلاده - وبورسيه - وجثار، وإن هناك موقع يطلق عليه اسم تكرور بالقرب من
فرع السنغال المعروف باسم مارجيوه, وهذا الموضوع هو غير موضوع تكرور الذي
حدد جغرافيا العرب آثار البكري والإدريسي وغيرهم, وأصبحت كلمة
تكرور في ظهرهم مرادفة لكلمة سوداني وقد تبعهم في هذا المؤرخون
السودانيون الذين كتبوا بالعربية, ومن أجل ذلك ظل المصادر الجغرافية
الأوربية مدة طويلة تطلق لفظ تكرور (Tekkrur) أو السدان على الجزء الجنوبي
من الصحراء الكبرى, ولا يتفق هذا التعميم مع الواقع لأن تكرور تدل بوجه
التحديد على المواطن الحقيقي فوتنا سنقومباو أو ما يعرف حالياً بالسنغال

(27) دائرة المعارف الإسلامية, المجلد الخامس, ص 427
وموريتانيا بعد الاستعمار الفرنسي للمستعمرة(28).

وقبل غزو الفولولا للبلاد كان لشعب التكروسر سلسلة خاصة من الدويلات.
ونحوت مجموعات متتالية منهم في أقاليم عديدة بالسودان الغربي وفي دويلات الهوسا بشكل خاص.

د- شعوب غينيا العليا:

يجب أن نفرق بوجه خاص بين السكان في الأقسام الشمالية في غينيا العليا وهو القسم البحري من نهر غامبيا إلى منتصف ساحل العاج الحالي وبين الأقسام الجنوبية، ففي نواحي الأقاليم الساحلية لإقليم غينيا العليا كان يعيش العديد من المجموعات الصغيرة المتتالية للشعوب السودانية والتي من الصعب علينا أن نميز بين تقاريرهم اللغوي على نطاق المجموعات الفرعية، ففي فولنا العليا وصفة خاصة الأقاليم الداخلية فقد سكنتها الماندينجو والفولولا وفي بعض مواقفها وشامل مستقل عاشت قبائل صغيرة سودانية غربية مثل كورانكو وأوسولو، بينما تركز بشكل أساسي معظم قبائل غينيا العليا في سيراليون وليبيريا وشامل خاص في داخل البلاد ومن أهم المناطق القاطنة على الساحل من الشمال إلى الجنوب بالترتيب فيليوي- كرو- بولاوما وأصا، ومن بين قبائل سيراليون وقبائل داخل ليبريانجدون- جالينزا- سوليا- فيي- جولادتة- بوسو وبيسي (29).

وتتمي القبائل القاطنة بالقطاع الجنوبي لغينيا العليا وما يبعها من داخل القسم الشرقي من ساحل العاج- غانانا- توجو- داهومي وجنوب نيجيريا إلى ثلاث مجموعات لغوية أساسية هي:

(28) إبراهيم جوب، ص 2.

Cornecc (J) La region du haut ginia Paris P.U. 1971, p 102. (29)
1- القبائل المتكلمة بلهجتها "توي" و "وجا" تعيش في أقاليم الجنوب الشرقي لساحل العاج والجزء الغربي من توجو ومن أهم هذه القبائل الأشتي بالأقاليم الداخلية لساحل العاج والفاتني على الساحل.

2- القبائل المتكلمة بلهجتها "أيوب" وهي تعيش في النصف الشرقي من توجو وداهومي ومن أمها قبائل الفون بداداهومي.

3- القبائل المتكلمة للهجة "البوروب" وهي تعيش في جنوب نيجيريا ومن أهم قبائلهم البوروب الكثيرة العدد والتي لعبت دوراً في تاريخ البلاد وقد أطلق اسمهم على مجموعة اللهجات المستخدمة في الإقليم، ثم نجد قبائل الأيو الذين ينتمون إليهم غنوباً وحضراماً(30).

وجميع هذه القبائل باستثناء القليل منها عاشت قبل ظهور الأوربيين على سواحل غينيا وفي عزلة تامة عن غيرها حياة بدائية، لذلك لا يمكن التحدث عن تاريخهم قبل القرن العاشر، بينما نجد قبائل الأشتي والفون التي لعبت دوراً هاماً في أحداث غرب إفريقيا منذ العصور القديمة لا تتميز عن سواها من القبائل الصغيرة المحيطة بها، ويمكن أن نستنتج فقط قبائل الصوصو التي كانت تسكن في أقاليم غينيا الحالية وكذلك بعض قبائل البوروب في جنوب نيجيريا.

أما شعب الصوصو الذين يسكنون الآن سواحل غينيا فيما بين نهر ريوونجو نهر سكارسي الصغير فقد لعب دوراً هاماً في حياة الأقاليم الداخلية للسودان الغربي، إذ أنهم في القرن الثالث عشر قاموا بإخضاع واحتلال تمبكتو وأصبحوا سادتها لعدة قرون إلى أن أجبرهم فيما بعد الماندنجو والفولو على الانسحاب إلى أقاليم الساحل(31).

(30) نفس المصدر ص 105.

انتشرت العديد من القبائل السودانية بعد أن أجرت على هجر مواطنها في وسط وغرب السودان إلى الجنوب الشرقي إلى أقاليم أداموا حيث توجد الكمبود اليوم، وقد عاشوا في أقاليم شاسعة وقد وصل البعض منها خلال تجوالها لعدة قرون إلى قلب إفريقيا الاستوائية واستقرت في تلك الأقاليم الواقعة بين نهر الكونغو والأيوي والنيل، وقد احتلوا معظم حوض نهر أوبانجي والأيوي، ومن الصعب تحديد الوقت التقريبي لهذه الهجرة، فنحن لا نعرف إلا القليل فقط عن حياة هذه الشعوب حتى نهاية القرن الخامسة عشر إذ ظهرت قبائل الأداموا على مسرح الأحداث في القرن الثلاث عشر فقط وقد تركز نشاط صراهم بالأساس مع قبائل الفولما والباتو الغربيين الذين زحفوا من الجنوب باتجاه الشمال.

وترجم معلوماتنا عن قبائل ما بين الكونغو والنيل إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد احتفظت قبائل أداموا بطابعها السوداني حتى الأيام الأخيرة. أما قبائل ما بين النيل والكونغو فإنها اختلفت بما يجاورها من القبائل النيلية والباتو مع احتفاظهم بلغتهم السودانية وبطابعهم الاقتصادي كملاحين وصيادين وعلى عكس جيرانهم النيليين والباتو فهم لم يعملوا في تربية الأبقار بل قاموا بتبري الدواجن وكان البعض منهم يربون الماعز.


د - القبائل السودانية الشرقية:

نتيجة هجرات الشعوب الإفريقية نحو الشرق خلال قرون طويلة استقرت بعض القبائل السودانية في أقاليم أعالي النيل والمناطق المحيطة بها واختلطت

مع القبائل الحامية التي تعيش في الركن الشمالي الشرقي لافريقيا، وقد أدى اختلاط هؤلاء بغيرهم من الشعوب إلى ظهور شعب جديد في دمه وحضارته وهو الشعب النيل فكلعه من اللغتين الحامية والسودانية وكان من بين ما ورثه عن السودانيين واستعاده من الحاميين وأشباه الحاميين هو العادات والحضارة فجميع الشعوب النيلية تتغلف بالزراعة وتربية الأبقار، حيث سارت الزراعة بين بعض فئاتهم وهم قبائل المادي والشولي، بينما يختص الدنكا في رعي الأبقار. ومما يميز جميع النيليين عن غيرهم في الرعي هو جيهم الشديد للحيوانات ذات القلاون الطويلة وقد وصلوا إلى اعتبارها من بين معتقداتهم الدينية وهي عبادة الأبقار، وقد انتشر بينهم تعدد الزوجات وتزوج الرجل العديد من الزوجات ليحصل على مهورهن من الأبقار وقد اعتبر ارتداء الملابس عملا لا يليق بالرجل، بينما ترتدى المرأة ساترا من السلاسل والأسلاك المعدنية وشرائح الجلود وتكدست عورتها، وفي بعض الأماكن كانت المرأة ترتدى تنورة من الجلد وقد تحلوا بالزواج والعديد(33)، ومن أهم القبائل النيلية الشياوك - الدنكا - النوير - الشولي - باري ومادي.

وإلى جانب الشعوب السودانية الشرقية المنتشرة بين الشعب النيلي وجدت مجموعات من القبائل السودانية الصغرى والكبيرة التي هاجرت إلى هتنا من وسط ومن داخل السودان وقد احتفظت وهي في هذا الخضم من الحاميين والعرب والشعوب النيلية بطباعها السوداني ومن أهم هذه الشعوب نجذوبة بالأسام الجنوبية من كرديلا، والفونج في نواحي أقليم ستار والبرتا في حوض نهر

(33) نفس المصدر، ص 72.
ولكنهم بخلاف أفرادهم بالسودان الشرقي احتفظوا بطبعهم السوداني، وقد توطنت تلك القبائل في غربي الحبشة إذ كلما انحدرا من أعقاب الهضبة الحبشية إلى السهول الممتدة في الجنوب الغربي كلما أصبح الدم السوداني الدخيل غالبًا وأكثر وضوحًا حتى نصل إلى مناطق أعالي النيل ويلقب الأجداد هؤلاء الذين تسربوا إلى النيل الأوسط باسم الشناقلة أو بني شنوق وهذه التسمية مرادفة للمصطلح الأوروبي نجو الشنوج. ومن أهم هذه القبائل نجد قبائل كوناما أو باتهن التي تسكن في أودية نهر النيل جنوب وتيكازى وما يجاورهما من هضاب أعالي الحبشة الشمالية (أرتريا) ثم قبائل باريا التي تحتل مناطق الجبال بين نهري النيل وبركة في الشمال الغربي للحبشة.

وقد تعرضت الشعوب السودانية القاطنة في الشمال الشرقي لافريقيا خلال العصور القديمة لإغارات الشعوب الحاكمة في مصر وفي الدول التي تعتمد على العمل العبيدي في مناطق السودان الشرقي والحبشة وهي بناتا - مرؤى - النوبة - اكسوم والدولة الحبشية (34).

ومن بين أنشط القبائل النيلية نجد الشيلوك ومن بين السودانيين نجد الفونج. وفي نهاية القرن الخامس عشر دخل الشبان الشيلوك والفونج في تحالف وغزوا معا دولة سنار حيث أسس الفونج دولتهم في بداية القرن السادس عشر.

ومن بين مميزات جميع القبائل السودانية في الشمال الشرقي لافريقيا نجد أنهم لم يقبلوا المؤثرات الحضارية القادمة من الخارج غير أن بعض تلك القبائل مع مضي الوقت اضطرت لقبول بعض المظاهر الحضارية للشعوب المجاورة لها فقبائل البري اخذت العديد من العادات المصرية القديمة، بينما قام الفونج قبل تأسيس دولتهم بقبول العديد من العادات العربية، غير أن تأثير الحضارات

Perox (E), Au Sudan francaise, Paris 1891, p 119.
الرفيقة المستوى قد فرضت نفسها بين النبلاء والقبائل السودانية في الحبشة
ولكن بعد أدنى ومعظم تلك القبائل التي تقيم في السودان الحالي وعلى أطراف
الحبشة تعني الإسلام منذ القرون الوسطى وذلك نتيجة لجهود الدعاة
الإسلاميين (35).

(2) شعوب البانتو:
تنتمي جميع شعوب جنوب القارة الإفريقية - باستثناء الموري خوي
والبيجامي إلى أسرة لغوية كبيرة هي مجموعة شعوب البانتو وتتكلم كل من هذه
الشعوب بلسان أو بلهجة خاصة أو فرع من اللغة الأساسية الأم أي لغة البانتو،
ولم تكن اللغة هي العامل الوحيد الذي يربط هؤلاء بعضهم البعض في أسرة
أنتوغرافالفية ضئيلة فهم بخلاف السودانيين يرجعون إلى أصل عربي واحد.
وقد انقسمت أسرة البانتو إلى فروع جغرافية وتاريخية قامت كل واحدة
منها بتطور كيانها الاقتصادي ودياناتها وعاداتها، ورغم ذلك فإن الكيان
الاقتصادي وطرق الحياة الحضارية لجميع شعوب البانتو قد ارتبطت ارتباطاً كلياً
أو جزئياً بعضهم البعض عن طريق اللغة والحضارة.
وفي العصور القديمة أصبح هؤلاء في شرق إفريقيا على اتصال بموجات
الهجرات الحامية المتقدمة نحو الشمال الشرقي، وخلال عدة قرون كانت أقاليم
هذه المنطقة هي الساحة التي شهدت تضارب قبائل البانتو مع الشعوب الحامية
فالحروب التي دامت عدة قرون والصعوات الثقافية والاقتصادية والاندماج مع
الحايمنين كل هذا أثر على العديد من قبائل البانتو وباشر كشكل متفاوتة وقد انتجت
كل قبائل منهم نحو سبل التطور الثلاث التالية:
1- نتيجة الاختلاط مع القبائل الحامية، فإن بعض قبائل البانتو قد
خضعت جزئياً أو كلياً لهذا التأثير بل وقعت تحت سلطتانهم وتأثيرهم. بينما
انصر الصغير من قبائلهم بمضي الوقت مع الشعوب الحامية إلى بعض الحدود.
(35) راجع الفصل الخاص بانتشار الإسلام بالحبشة.
رومان السومات
العاصمة
الناصر
الآبادة
إعصار
كالير
يوروس
أهم دوره لبانتو إفريقيين
2 - نجحت بعض القبائل نتيجة الحروب الطويلة في مقاومة تأثير الحاميين وفي الاحتفاظ بأقاليمهم في بعض الحالات.

3 - القبائل التي فضلت عدم الخضوع للحاميين واضطرت للفرار إلى خارج حدود مواطنها فانتهجت نحو الجنوب والغرب.

وهيذا انقسم الباونتو إلى ثلاث مجموعات هي الشرقية والجنوبية والغربية، بينما انقسم الباونتو الذين أقاموا في إفريقيا الاستوائية الشرقية إلى مجموعتين أساسيتين هما: القبائل التي خضعت للتأثير الحامي والقبائل التي لم تخضع لهذا التأثير.

أ - قبائل الباونتو الشرقيون:

انقسمت قبائل الباونتو الشرقية التي خضعت للمؤثرات الحامية إلى ما يلي:

1 - قبائل دول واهوما:

قامت في المناطق الشمالية الغربية لأقاليم الباونتو - أي في إقليم - الشعوب الرعوية الحامية ومن أهمها واهوما (واهوما) واهنيدا حيث قامت بإخصاع قبائل الباونتو المستقرة في القرى والمشتغلين بالزراعة ووحدتها في اتحاد قبلي كبير تحت زعامتهم وقاموا بحكمهم وقد أدى ذلك إلى قيام ما يسمى بدول واهوما وفي أول الأمر قامت دول كتيارا - هانجريو - كاراويج ثم فيما بعد دول باغوندا - بونورو - أوغولي وتورو وكانت هذه الدول عبارة عن اتحاد لشعوب الباونتو تحت زعامة حكام واهوما واهنيدا الذين كانوا من أصول حامية وقامت تلك القبائل الحاكمة بعد أن استقرت بالامتزاج مع القبائل الحاضرة لها وتكلموا بلسانها وقد اتخذت نتيجة لذلك القبائل المختلفة التي تكملت بلغة الباونتو وحتى يومنا هذا نجد بأن مجتمع القبائل بالمنطقة قد انقسم إلى غالبية من قبائل الباونتو التي أطلق عليها اسم (واهوما) ثم الأقلية الحاكمة من قبائل واهوما التي أطلق
عليها اسم «واتوسي»، وقد عملت الشعوب الأولى بالزراعة بينما كان الواتوسي يعملون برعى الماشية (36).

وقد انقسمت شعوب وأهوتو إلى مجموعتين لغويتين أساسيتين هما:
- الشعوب المتكلمة بلغة الكنيورو وقد سكنت مناطق بوغندا السابقة وبونيورو وأوكولو وأخيرًا تورو، أي كل أفاليم دولة أوغندا اليوم، ومن أهم شعوبها أوغندان وآنياكولي وواترو.
- الشعوب المتكلمة بلغة الكيروندى وقد سكنت أفاليم رواندا وأورندي ومن أهم شعوبها وانبارانى وواراوندي.

ونلاحظ هنا بأن سابقة الاسم (وا) إذا أضيفت إلى اسم المكان أصبحت ساكن المكان وهي تمثل باس النسب في اللغة العربية.

2- القبائل البانتو حامية:

قامت بعض قبائل البانتو التي كانت قد أنشأت اتحادات قبلية قوية بالماضي، رغم وجودها في جوار مباشر مع الحاميين وأشباه الحاميين - بالبقاء في مواطنهم ولكنهم امتلكوا الكثير من العناصر الحامية المهاجرة إليهم والتي أقامت بينهم وقد ألحق على هؤلاء عادة البانتو حامية أو البانتو المنتمين بالحاميين ومن أهم هذه القبائل: واجوجو - واجاجا - واتينى - كيوكولاكاما -

وقد ظهرت هذه القبائل في القرن التاسع عشر (37).

3- البانتو النيليون:

بالإضافة إلى قبائل البانتو الشرقية التي تأثرت بالدرجة الأولى بالمؤثرات الحامية نجد أنهم قد تأثروا بعض الشيء بالنيليين، فقد قطعت على شواطئ


Gargeaves (J) West Africa, the forme french states enlewood, cliffs, (37)

N.J, prentice, Hall, 1976, p 112.
بحيرة فيكتوريا الشرقية. وفي الركن الأيمن لأوغندا والركن الجنوبي الغربي لkichaka
قطعت مجموعة من الشعوب ترجع في أصولها إلى الباباس الشرقين ولكنها قد
اختلطة مع جيرانها من القبائل النيلية بل والقبائل الحاملة ولذلك أطلق عليهم
اسم الباباس الشرقيين ومن أهم هذه القبائل والكافيرنديو التي أطلق اسمها على
مجموعتين من القبائل المختلفة هما:

الكافيرنديو الساكنين بالألقاص من شمال شرق بحيرة فيكتوريا
ويتكلمون اللغة النيلية وهم في عاداتهم وطاعبهم أقرب إلى التيليين منهم إلى
الباباس.

4 السواحليون:

في وقت متأخر لاتاريخ الباباس نجد أن القبائل التي أقامت على طول
السواحل الشرقية بآفريقيا قد تأثرت كثيرا بالعرب واختلطا بهم وأدى ذلك إلى
القضاء على النظام القبلي ونشأة الشعب الساحلي (38) وستحدث عن هذه
القبائل في بعض التفصيل في الفصل الخاص بالصومال.

أما عن الباباس الشرقيين غير الخاضعين للتآثر الحامي فقد انقسموا إلى
مجموعتين تاريخيين إقليميتين هما:

الباباس الشرقيين الذين احتلوا دواخل غرب ووسط ألقاص دولة تنجانيقا
سابقا وقد عاشوا وهم تحيط بهم بعض قبائل الباباس الشرقيين الأخرى ومن أهم
هؤلاء وانيمويزي وأمجها وقد لعبت دوراً بارزاً في التاريخ الحديث لشرق
إفريقيا.

الباباس الشرقيين الذين اندمجوا أو انصروا في قبائل الباباس الجنوبية التي
هاجرت عائدة من الجنوب إلى الشمال، الذين عاشوا في أقاليم جنوب تنجانيقا
المجاورة لموزمبيق وذلك في جنوب نهر لogra ورونيجي ومن بين قبائلهم

Bulin (J) The Arab Role in Africa, benguin S.E, 1962, p 112. (38)
نبذة واماوريا - أوامانجنجب - أوموانا - أوموانا - ونيسا - وأينيدي، وأخيراً وايوجو، وقد لعبت هذه القبائل دوراً بارزاً في التاريخ الحديث للمناطق الإفريقية التي تواجد بها الاستعمار الألماني حيث قاومته مقاومة عنيفة(39).

ب - البانتو الغربيون:

وجدت قبائل البانتو المتجهة نحو الغرب نفسها في ظروف حياتية مختلفة أمثلها عليهم مواطنهم الجديدة فالإقليم الذي احتله هؤلاء في وسط غرب أفريقيا الاستوتية كان يقسم إلى قسمين متمايزين هما:

1 - المساحات الشاسعة من الغابات الاستوتية في الشمال.
2 - أنالييم السافانا المكشوفة في الجنوب.

وقد امتدت هذه الأقاليم بحيث شملت روافد الكونغو وأعمال متابع أنهر كونيني وزمبوي وكوبا نحو وكوبو وشوبو وسانكوندو وكاساي بل إلى منابع الكونغو نفسه. وبالتالي فإن طبيعة الأقاليم قد أثرت على تطورات مجرى حياة القبائل الاقتصادية بطريقة خاصة في كل منها وذلك في مجال التطور السياسي والاقتصادي، ففي منطقة الغابات الاستوتية انصفت الحياة الاقتصادية على الزراعة البدائية وفي جمع الطعام والصيد، أما في مناطق السافانا فإن الظروف الحياتية قد سارت في مسار آخر.

وقد عاشت القبائل في مناطق الغابات في مجموعات صغيرة العدد بسبب طبيعة الإقليم، أما في الأقاليم المكشوفة والسافانا فقد وجدت الظروف المهيئة لقيام اتحادات قبليّة كبرى بل وقيام دول، ولهذا فقد اختلف المصير التاريخي لشعوب البانتو طبقاً لمواطنهم وظروفهم الحياتية والاقتصادية.

وقد أرتبط توزيع القبائل التي أوجدت لها موطن في تلك الأقاليم (39) راجع تاريخ إفريقيا العام، المجلد السابع، إفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية البيئنكو - أديفرا، 1990.
بالماضي التاريخي الذي أставил الموطن الجديد وطبيعته، فقرب مواطن بعض القبائل أو بعدها عنه لعب دور كذلك في تغيير الظروف وتطوير اقتصاديتها والسير بها في مسار تاريخي جديد وقد لعبت مناطق السواحل والأقاليم الواقعة بينها وبين قلب القارة دوراً هاماً في حياة الإنسان بهذه القبائل فيما بعد وذلك في فترة التدخل الأوروبي فقد شكلت تلك المواقع الاستراتيجية للقبائل في صراعها مع العدو الغازي، ولذا اتجهت القبائل في اتجاهات مختلفة لتطويرها القومي معتمدة على موقعها الجغرافي أي وقوعها على الساحل أو الأقاليم الوسطى من قلب القارة ونتيجة لذلك خضع القبائل المقيمة على الساحل لسلاسة وتأثير الأوروبيين كما شكلت الأقاليم المتاخمة للساحل منطقة تسكنها القبائل التي كانت في خدمة المستعمار، وإجمالاً كانت قبائل هذه المنطقة تتأرجح مصالحها بين التعاون مع الأوروبيين أو الوقوف ضدهم. أما الأقاليم داخل البلاد فهي كانت حتى الفترة الأخيرة من التقلقل العربي لا تزال تعيش حياتها المستقلة ولم تخضع للمؤثرات الخارجية(40).

ولا نعلم كما قلنا وقت محدد لهجرات قبائل البانتو الغربيين ولا توجد مصادر معقوله عن تاريخهم حتى بداية التدخل الأوروبي وكلما استطاع قوته هو أن هذه القبائل لا ترجع إلى أقدم الهجرات بل إلى هجرات حديثة وكلما نعرفه هو بعض معطيات عن بعض الحقائق بينما مصادرنا عن حديثة العهد. فعلى سبيل المثال فإن قبائل مجموعة بكوندي التي تعيش على سواحل الكاميرون نعرف منها أنها منذ الأيام الأولى كانت تقوم بعلاقات مع القبائل السودانية وعن طريقهم اتصلوا بالغولان والعرب. وكانت قبائل الفانزي (بانجوي) تسكن فيما يعرف الآن بإقليم شمال غرب جابون بين نهري أوغوي والحدود الجنوبية لمستعمرة غينيا الإسبانية وبين الركن الجنوبي الغربي من الكاميرون وقد عرف عنهم أنهم عاشوا فترة من الوقت أثناء هجرتهم في جوار قبائل الأزرد والذين كانوا على صلة بهم.

Martin, p 119.
 وكلما نعرفه عن شعوب البانتو الغربيين هو أن عدداً منهم قد انشأ دولة كبرى قبل ظهور الأوروبيين بفترة طويلة ومن أهمها دول الكونغو وإمبراطورية لوندا في المناطق الجنوبية لوسط وغرب إفريقيا الاستوائية وبلاد البوشانجو والروا في داخل أقاليم الغابات.(41). 

دولة الكونغو: 
أقام قبائل باكونجو أو بافيويت التي تقطن معظم الإقليم الساحلي لأنجولا من مصب نهر الكونغو حتى فم نهر (شمال لوندا) والمنطقة الصغيرة التي تلتقى مصب الكونغو شمالاً وقليل إقليم الشواطئ الملاصقة، أقامت في الأزمنة القديمة سلسلة من العشائر والتي في وقت ظهور البرتغال في إفريقيا ظهرت واضحة قوية بهذا الجزء من إفريقيا وقد اتحدت في دولة كبرى كانت عبارة عن اتحاد قبلى تحت زعامة رئيس واحد هو (الأب الأكبر مافوما) أو كما كان البرتغاليون يسمونو ملك الكونغو وكان هذا اتحاد يضم فيما يضمن لوانجو، باكونجار، نيجوبا ودول الكونغو، وكانت كل ولاية تحكمها نائب لملك الكونغو وقد ساد في هذه الولايات النظام الإقطاعي.

دولة لوندا (موانا بافوما): 
كانت لوندا التي تضم كالوندا، كاروندا، بالواومولوا، من أهم شعوب البانتو الغربيين وكانوا يشكلون معظم سكان شرق أنجولا وإقليم الجنوب الغربي من الكونغو أي بين الحجري الأعلى لنهر كوانجو ومنبع نهرى زميزي والكونغو فعلى هذه المناطق الشاسعة والتي يقع نصفها الصغير الغربي في مناطق السافانا ونصفها الأكبر الشرقي في مناطق الغابات، أقام شعب كالوندا دولة كبرى هي إمبراطورية لوندا والتي كان نفوذها يسري على العديد من شعوب البانتو الغربيين.

وطبقاً للروايات فقد أسس هذه الدولة رئيس قوي وصياد من قبيلة بالونا

(41) نفس المصدر ص 122.
والذي قدم من الشمال الشرقي واستمر مع قبيلته بين شعوب بالوندا وسميت الدولة باسم إمبراطورية لوندا أو دولة موايامفو وكان يطلق على رئيس الدولة وفموئات كانت تعني سيد وامفو كان اسم ابن مؤسس الإمبراطورية وقد صار علماً من الأسماء السائدة فيما بعد(42) وقد تميزت هذه الدولة عن غيرها من دول الكونغو بارزة، وهي الساكنة التي عكست بوتخي القائد الباقي من نظام الأم، فعلى جانب موايامفو كان للدولة حاكم آخر هو لو كوكيشا أي أم الجميع، وكانت الدولة مقسمة إلى قسمين كان الموايامفو هو السيد المطلوب على إحداهما بينما اللوكوكيشا هي الحاكمة بالقسم الآخر، وكانت الشؤون العامة ذات الصفة الشعبية بث فيها جماعياً.

ومع ذلك لم يكن يمكن للوكوكيشا بالزواج، ولكنها في الواقع كان يمكنها أن يكون لها عدد من الأزواج الذين كانت تختارهم، وكان أي ذكر اختياره يصبح عبداً لها وهو في الواقع زوج لها. وقد أطلق على أزواجها (العبيد المحبوبين) وكانا يتمتعون بامتيازات كبيرة حتى ولو كانوا قد اختيروا فعلاً من العبيد، ولما كان من المفروض أن تكون عذراء رسمياً، لذلك كان عليها ألا تنجو أولاداً لذلك كانت تنقل الأطفال الذين تلدتهم(43).

وتشبه دولة لوندا الكونغو في نظم تشكيكها وهو التشكيك العام الذي يميز دول البانتو الغربيين أي أن ملكها له السلطات المطلقة إلى جانب تواجد استقراطية لها امتيازات مع وجود حكومة لها طابع ديمقراطي. فالملك كان حاكماً مستبداً برعاياه وهو الذي يعين جميع الرؤساء والحاكم نفسه ولكن الأمر الحساسة التي كانت تهم الأميرة كانت بيت فيها مجلس الشعب الذي له حق نقض أي عمل يقوم به الملك بل كان له سلطة عزله عن العرش.

نفس المصدر، ص 124. (43)
ومن أهم حقوق سيادة كل من المواتيابنها وللوكوكيشا في إقليمها نجد حق فرض الضرائب على القبائل الخاصة وعلى رؤسائها، ولم تكن مقادير هذه الضرائب ونوعيتها تفرض مسبقاً بل كانت كمية ثابتة يطلبها الملك أي وقت براه ولنها بثلاثة ورئاسة وغيرهم من كبار المسئولين والرسميين وقد شكل الأمراء والوزراء وذوي الجاه رؤساء الأقاليم طبقة النيابة المميزة وهي طبقة كيلولو.

ومن أهم واجبات الملك تنظيم التجارة وإرسال الحملات العسكرية ضد القبائل المعايدة أو إخضاع من يزيد إخضاعه، وكان للملك مجموعة من ألقاب التجنيل وكان يتزعم مجموعة من الملابس واللحي طبقاً لطقوس خاصة، وكان الملك ينتخب بواسطة أربعة وزراء من بين أبناء إحدى الزواجات الرئيسية للملك الراحل وذلك لا يتم إلا بعد اعتماد وإقرار اللوكوكيشا، كما كانت اللوكوكيشا تختار عادة بواسطة الوزراء الأربع من بين بنات إحدى زواجات الملك الراحل، وكان الاختيار لا يتم إلا بعد إقرار المواتا يامفو وكان توحي الملك يجري طبقاً لطقوس خاصة دقيقة من أهمها قيامه بإشعال النار الجديدة والتي تؤخذ منها جميع النيران.

وكان للبلانوندا طقوساً وتقاليد ذات معان خاصة ويتشهدون في تطبيقاتها ويجب مراحلتها من قبل كل عضو من أعضاء القبيلة أو الدولة، وكانت توضح كيفية قيام الرجل العادي بالدخول على الملك وتحيته، وكذلك كيفية احترام الرؤساء، كما كان الملك نفسه يخضع لسلسلة من الطقوس والتقاليد التي تقيد وتحدد من حريته، وكان عليه أن يمنع عن التدخين أو شرب الخمر ولا يتناول أي طعام بحضور أي أحد من رعاياه، ولا يظهر أمامهم إلا جالساً أو محمولاً على أكتاف العبيد، وقد اختلط البلانوندا خلال قيام دولتهم مع غيرهم من القبائل وذلك لأن سلطنة الدولة كانت تمتد وتتشكل شعوباً أخرى لب وشملت العديد من العناصر الأجنبية مثل قبائل كيلولو وبابشار ولوبالا وهي التي انبهرت بمرور الوقت معهم وقد قامت في جوار دولة لوندا العديد من الدويلات المشابهة والتي قام
تأسستها بعض أفراد الأسرة المالكة في لوندا، وكانت هذه الدوامات أثناء مصيرها التاريخي أما دولاً تدفع الجزية للموطنين يافمو وأما كانت مستقلة عنه في بعض الأحيان. ومن بين هذه الدوامات نجد مملكة كازيمبا في شرق لوندا ودولة ماي مونين في شمالها وأخريًا مملكة كاسونجو في الشمال إلى نهر لولايبا(44).

دولة البوشونجو:

احتلت قبائل باكوبا أو البوشونجو (كما يحلو لهم تسمية أنفسهم) الأقاليم الواقعية بين نهرين شانكورو ولوالوا بالكينغو البلجيكي وقد انقسموا إلى بطن قبيلة كان من أهمها قبيلة بامبالة.

وتذكر الروايات بأنهم قد هاجروا من الشمال الشرقي إلى مستقرهم الحالي، وكانت دولتهم قد أنشأت قبل قيام إمبراطورية لوندا بوتول طويل وكانت هذه الدولة عبارة عن اتحاد قبلي كبير لعبت فيه قبيلة بامبالة الدور القيادي وكان رئيس هذه القبيلة في نفس الوقت هو ملك البلاد وكان بالنسبة لقبيلته يعتبر الزعيم الروح والديني وكان يحرم عليه أن تطاوئه الأرض فكان يحمل على أكتاف الرجال وإذا جلس فعله ظهور العيد. وكان له ستة من الوزراء الذين، وهم الكيمي كامبلا أي رئيس الوزراء ثم اليابتنو وهو وزير الحرب ثم أربعة من الوزراء يمثلون كل من الأقاليم الأربعة التي تنقسم إليها الدولة وعادة ما كان أبناء الملك أحقادهم هم حكام تلك الأقاليم. ونجد كذلك وزيرين كانت إحداهما هي التي تقرر أمور السلام والحرب، وكان للملك هيئة كبيرة من موظفي البلاط وهم الذين يمثلون التجار والجماعات القبلية ومن بينهم الأفراد.

كما كان يوجد بالبلط مؤرخون ملكيون ومحافظ التقاليد وأساتذة الذين يجب أن يكون من الأسرة الحاكمة، وكانت أم الملك تعتبر أعلى درجة منه وكانت تحضر اجتماعاته مع وزراءه وتحتال مكان الصدارة بينهم(45).


(44) نفس المصدر، ص 115.

50
ومن الناحية الشكلية كان الملك حاكماً مطلق السيادة ولكنه في الواقع لم
تكن له الكلمة المطلقة، حيث كان البث في الأمر في يد مجلس ممثلي الأقاليم
والمجموعات القبلية المنتخبة، وحيث كان البث فيها يرجع بالأساس إلى الرأي
العام الذي كان كثيراً ما يعارض رغبات الملك نفسه.

وعند اعتلاء العرش كان الملك يتولى قائمة أسلافه من الملكين الذين بلغوا
المائة والعشرون وكان معظم هؤلاء الأسلاف أما شخصيات ميلوية أو
شخصيات تاريخية حقيقي، وكان من بينهم البطل القومي للبوشونجو شامبا
بالونجونو، الذي أسس نظام الحكم الحالي في الدولة (46).

دولة روا (واروا):

وكان الواصل شعباً كبيراً يقطن الأقاليم الجنوبية الشرقية لمناطق غابات
الكونغو كما كانوا من أكبر الشعوب عملًا بالوساطة التجارية بين قبائل البانتو
الشرقين والغربيين. وقبل زمن طويل من التدخل الأوروبي كانت جميع قبائل
الروا متحدة في اتحاد قبلي كبير وهو دولة الروا أو دولة الكاسونجو التي
انقسمت إلى ولايات وكان الملك يعين على كل ولاية رئيساً يشغل وظيفته لمدة
أربع سنوات، وقد تمتعت ملك الرواامتيازات خاصة لا يعرفها أي شعب من
شعوب البانتو الغربية فقد كان شخصية مقدسة وهو زوج جميع النساء في دولة
باستثناء أمه وهو كراه لم يكن في حاجة للأكل والشراب، لذلك كان يأكل
ويشرب سراً دون أن يراه أحد، وكان لأبناءه الحق في أخذ كل ممتلكات رعايا
والدهم، وكانت أخت الملك تحتل مكاناً ممتازاً في الدولة لأنها كانت تعتبر
زوجة الإله الرئيسي، أي مؤسس الدولة والذي كان صممه في حزمة غابة لا
يدخلها إلا الملك وانتخت فقط.

وكان للزوجة الأولى الحق في حكم البلاد أثناء غياب زوجها وعند موتها


(46)
كان يقوم بطقوس مقدسة وهي أن يرقد يطمأناً بجوار جثتها في سرير واحد أما إذا مات الملك فإن زوجاته كن يذفن أحياء مع الزوج الميت(47) وقد تعرض شعوب الروا لأساليب الاستغلال من جهة الملك ثم أولاده ثم العديد من الرؤساء وأخيراً من تجار الرقيق.

3 - الشعوب الحامية والسامية:

شكل الحاميون معظم عناصر سكان شمال وشمال شرقى إفريقيا واليوم يتكلم اللغة الحامية حوالي ثلاثين مليون وهم خمس القارة تقريباً وتنقسم هذه اللغة وتفرع إلى سبعة وأربعين لساناً إلى واحد وسبعين لجها تتكلمها الشعوب السامية.

ولم يتفق العلماء حتى اليوم على أصل الحاميون والبعض منهم يعتبرونهم من أصل آسيوي هاجروا من القوقاز إلى هذه البلاد عن طريق مصر والنيل، بينما البعض منهم ربما قد يكون قد مر على طريق الجزيرة العربية، ويبدو أن هؤلاء الحاميون قد وصلوا إلى تلك الجهات في موجات ومجموعات متعاقبة اختلطت مع مورال الزمن مع أهل إفريقيا السوداء، ونشأ عنهم ذلك العنصر السائد في تلك المنطقة ولكن ذلك الاختلاط لم يكن على درجة واحدة بين مختلف المناطق وبين مختلف القبائل التي تسكنها(48) بينما البعض الآخر يرجح أنهم حصيلة اختلاط الشعوب السودانية بالساميين(49) غير أن هذا الرأي أو ذلك لا يهمنا، والأهم هو إن الشعوب الحامية قد وجدت بالمنطقة منذ عصور قديمة، وفي بداية العصور التاريخية ظهرت أعداد كبيرة من الشعوب الحامية التي لم تسكن شمال إفريقيا فقط بل اندفعت إلى الجنوب وإلى السودان الغربي.

(47) نفس المصدر، ص 116.
Jean Claud (M), Afrique et culture, M.I Et AE culture, No, 102, 1978, p 12.(48)
(49) نفس المصدر، ص 114.
والوسط إلى الجنوب الشرقي أي إلى القرن الإفريقي أي إلى قسم من السودان الشرقي والحبشة والصومال.

وكان الساميون هم العنصر الأساسي الثاني الذي ساد في شمال وشمالي شرقي إفريقيا، فهي العصور القديمة لم تخضع الأقسام الشمالية والشمالي شرقياً لأنها تأثرت بالحضارة السامية (الفينيقية والعربية القديمة) فقط بل كانت معرضة للاستيطان السامي إذ كانت إفريقيا محط الشعوب السامية القادمة من الجزيرة العربية إلى القرن الإفريقي بصفة خاصة.

وخلال القرن السابع تتابعت الهجرات العربية وذلك عند ظهور الإسلام فازدادت بشكل واضح هجرات العرب إلى إفريقيا وأصبحت منطقة شرق القارة تعيش بالشعوب الحالية التي امتدت واختلطت مع القبائل السودانية القادمة من الغرب ناشئة الإسلام بها.  

والذي يهمتنا هنا دور الساميين والحاميين في تاريخ شعوب غرب وشرق وسط إفريقيا غير العربية وذلك لأنها كانت العنصر الأساسي الطبيعي في نشر الإسلام بها.

الحاميون:

إنطلاقاً من وجهة النظر اللغوية والمصري التاريخي المشترك يتسم الحاميون إلى فرعين كبيرين أساسيين هما: الحاميون الشرقيون والحاميون الشماليون.  

الحاميون الشرقيون وهم من ثم تطورون إلى الشام ومن ثم تطوروا إلى هذين الفريدين. يوجد لهما في القرن الأول والثاني مسئولية كبيرة في التم#__ه__  

باختصار، يُعتبر الشامون الشماليون من الجماهير السامية، حيث تزعمهم شعب شمال إفريقيا إلى شعوب بعيدة، هدف هذه المبادلات الاستعمارية. وحقيقة أنه

Perox (E) p. 182.

(50) راجع الفصلين الخاصين بانتشار الإسلام في الحبشة والصومال.
كان يعيش مع الشعب السامي العربي منذ آنتم العصور شعب حامي، ولكن خلال التاريخ الطويل منذ الأزمنة الغابرة أنصهر الشعبين وهكذا شعب شمال إفريقيا الذي أصبح منذ الفتح العربي شعباً واحداً مسماً، ونحن إذ نستقبل لفظ بربر وطره ومار إذا سنقبله فقط على أساس أنه تسمية لإحدى فروع الدرجة العربية العظيمة وليس بصفتهم. غير عرب الأُوار يرتجون إلى القبائل الشمالية التي استقرت في جبال الأوراس والأطلس، كما انثر الطوارق الرعاة في الصحراوية العربية منذ العصور السحيقة إلى أن تعرفا خلال هجرات الموجات السامية القديمة وكان هؤلاء على صلة بالشعوب السامية الواقعة خلال التاريخ إلى إفريقيا فاختطفوا بهم وأخذوا بهم حضورتهم في العصور القديمة، وهذا ما جعل ابن خلدون ينظر إليهم نظرته الخاصة ويوجه إليهم اهتمامه في مقدمته (52).

وفي الفترة التاريخية بعد أن تعرَّب لسان شمال إفريقيا بالفتوح العربية لعب سكان المنطقة دوراً غير مباشر في مصير شعوب إفريقيا الاستوائية وذلك لقيامهم بدور الوسيط التجاري مع شعوب غرب ووسط السودان الذين قاموا بهم بأنفسهم بدور الوسيط لشعوب إفريقيا غير السودانية.

أما الطوارق فيصرف النظر عن حياتهم البدوية وعاداتهم فإنهم أقرب إلى كونهم عرباً من انتشائهم إلى جنس آخر، وقد احتفظوا ببقائهم السامي الأول العتيق وقد نعموا دوراً هاماً في نشر الإسلام في دويلات غرب السودان ولا يعرف على وجه التحديد أصل لفظ طوه ولا معنى الحقيقي فالمعرف أن أهل إفريقيا يلفظون اسمهم توارج أو توارج بدون آداة التعريف. وابن خلدون يرى أنهم بقية الصرفين والرشيدين بقية الموسفين الذين قضوا سنوات طويلة في حرب مع الموحدين (53). أما الفرع الشرقي للشعوب الحامية في شرق إفريقيا فقد

(52) لمزيد من المعلومات راجع مقدمة ابن خلدون.
(53) حسين مؤنس، ص 107.
انقسم إلى فريعين كبيرين هما الكوشيون والشعوب الحامية السامية التأثير، وكان الكوشيون وهم أسلاف النوبيين في العصور الحديثة في الأزمنة القديمة عبارة عن شعب واحد وهو كوش ثم عُمّ اسمهم ليشمل غيرهم، وقد كان النوبيين القدماء من هذه السلالة.

وقد انت工作报告 تلك القبائل الكوشية منذ الأزمنة الغابرة مع شعوب السودان أو مع شعوب البانتو الشرقيين ونتج عن ذلك أن القبائل الحامية نفسها قد اختلقت اختلاطاً أو انت工作报告 مع الشعوب النيلية والبانتو والتي سبق أن تحدثت عنها. وكان من هؤلاء دولة وآهوما في شرق إفريقيا ومن أهم شعوبها الصومال - الجالا - الدناكل - النوبة - الأجاو - البوجو، وقد ظهر النوبيون ومن بينهم الصوماليين في مراحل التاريخ القديم والوسطى. وإلى هذه المجموعة من الشعوب تنتمي قبائل وآهوما وآهوما التي هاجرت إلى منطقة البحيرات الكبرى حيث أسسوا بها دول وآهوما (54).

وقد أنجبت أسرة الحاميات الشرقيين شعوب تاريخين كانا على عكس الكوشيين منذ العصور القديمة لم يمتزجا فقط مع الساميين بل تأثروا تأثيراً كبيراً في لغتهم وحضاراتهم على مدى كبير بالساميين وشكلوا بذلك حضاراتهم السامية الحامية العظيمة وأحد هذين العشرين هو مصر القديمة التي ازدهرت حضاراتها منذ آلاف السنين، ثم الشعب الآخر وهو الحبشة التي نشأت حضارتها الخاصة بها في أوائل العصور التاريخية، أمًا الحضارة المصرية فقد لعبت دوراً هاماً في خلال مراحل تاريخها القديم والوسطى على تاريخ وحضارة الشعوب السودانية وأثرت تأثيراً كبيراً على مصائرها.

كما نذكر من بين الشعوب الشرقية شعب الصومال الذي كانت له علاقات وطيدة بالعرب حتى تأثرت بهم تأثيراً لغويًّا وثقافياً وتاريخياً فأصبح تاريخه

الصومال منذ العصور القديمة مرتبطة بتاريخ هؤلاء العرب حتى أصبحت الصومال مع مرور الوقت دولة عربية وسُتفرد فصلاً خاصاً لدراسة التطورات الثقافية والحضارية والتاريخية لهذا الإقليم والمناطق المحيطة به.

البجح:

البجح أو البجاء هو اسم تلك القبائل الحامية الشمالية وإن كان الاسم المتناول حالياً هو البحج بكسر الباء، ويميل علماء الأجناس إلى الربط بينهم وبين قبائل المصريين في أقدم عصور التاريخ بما يستدل منه على وجود قبائل البجح بشكلها المستقل ومناطقها المحددة منذ أقدم العصور.

ويرجع نسب البجح إلى تلك القبائل التي نزحت في بادئ الأمر من جزيرة العرب ثم اتصلت بقادة المصريين ومن هنا كانت الروابط بينهما منذ القدم ولكن اختلاف الطبيعة وكثرة الأمطار في مناطقهم جعل منهم بذواً رحل ورعاة أبقار، وغلبت هذه الطبيعة على طبعهم وأنجبتهم في صفات البداوة المشهورة وإن كانت صلاتهم قد قويت مع المدن الكبيرة المستقرة على شاطئ النيل مثل مروى ودنقلة حيث تركزت سلطتها مملكة مروى النوبية التي اعترفت الديانة المسيحية الأولى، فإن قبائل البحج البدوية لم تتأثر بالمسيحية وبقيت على وثبيتها قروناً طويلة.

وانتقشت قبائل البجح إلى مجموعات ثلاث هي:

1- المجموعة الشمالية: وهم العبادية وكانت لهم علاقات وثيقة بالفراعنة وقد اتخذت اللغة العربية فيما بعد لغة لها.

2- المجموعة الجنوبية: وهم بنو عامر كانوا تحت التأثير الحبشى الشديد عليهم وقد تكلموا لغة البنغري.

3- المجموعة الوسطى: البشارة والهندية وقد أحتفظوا بلغتهم ذات الطابع الكوشى.
وقد اختلف لسان العبادة وبي معاً عن اللى المصري والحبشي بل وجدت كذلك اختلافات لغوية بينهم، وهذه الاختلافات عكست الطابع السائد بينهم أي عدم الوحدة القومية بين فروعهم المختلفة غير إنهم جميعًا قد خضعوا فيما بعد للمؤثرات العربية فيما يخص العقيدية فقد اختنقوا جميعًا الإسلام واتخذوا مظاهر الحياة العربية ووسائل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية شأنهم في ذلك شأن قبائل الصومال والداكن.

ورغم طبيعة قبائل البحر البودية فإن اتصالهم بحجرائهم وخصوصاً المصريين كان كبيرًا حيث تبادلوا التجارة معهم واتسبوا منهم المعارف عن الزراعة وتربية الماشية، وتذكر المصادر الحديثة أن من أهم مناطق الاتصال بينهما كان وادي العلاقي وما يليه من جهة الجنوب حيث توجد مناجم الذهب التي كان المصريون القدماء يقبلون على استغلالها(55).

ويبدو أن البلاد التي كانت تعيش فيها قبائل البحر ومملكة مرودي النوبة كانت أغزر أمطارًا وأكثر نباثًا في العصور القديمة ولكنها بدأت في الختاف بعد ذلك مما دفع هذه القبائل إلى الهجرة إلى الجهات الأخرى ماءً فنزحت إلى الشرق في أعداد وأفواج كبيرة وصلت السهول والوديان والمرتفعات الجبلية من شرق السودان إلى البحر الأحمر مكتسحة أمامها بلاد البوغوس وشمال الحبشة، وهذا ما جعلهم يشكلون مصدرًا دائمًا للقلاقل والمشاكل لمملكة النوبة التي طاردتهم وعاونت بذلك على ازدياد موجات الهجرة(56) وما إن جاء القرن السابع والثامن الميلاديين حيث دخل الإسلام إلى مصر وتوطدت أصوله بها حتى بدأت مناوشاتهم مع مملكة النوبة المسيحية حيث كانت هجرتهم إلى الشرق قد بلغت أوجها وأصبحت حاجزاً منيعاً في شمال الحبشة يجعل اتصالها مع العالم الخارجي متعذرًا عن هذا الطريق لعدة قرون.

(55) نفس المصدر، ص 119.

(56) Jaque, (L) p 162.
وكانت تباثل البجه وعدها الوفر مصدراً من مصادر القوى العاملة التي استعان بها قضاء المصريون في العرب فيما بعد للعمل في المناجم الموجودة في شمال السودان وأرتريا وأهمها مناجم الذهب وكان لاستقرارهم حول هذه المناجم أثر كبير في عقائدهم. وعندما بدأ العرب يلون محل المصريين اختطوا بالبجه وتزوجوا منهم كما زادت روابطهم في كثر من المناطق الأخرى وأهمها الموانئ فاتنتشر الإسلام بينهم واستمر انتشاره حتى أصبح جميع البجه مسلمين (57).

العرب:

يوحي وضع القرن الإفريقي- محيطاً بجنوب بلاد العرب- بضرورة وجود صلة قوية بين الجانبين ولقد اتبعت أن هذه الصلة كانت ذات أثر فعال في الألف عام الأول قبلي الميلاد، كما وضح أن هذه الصلة كانت طوال تلك الفترة عبرة عن حركة مستمرة في اتجاه واحد من الشرق إلى الغرب عبر باب المنكب، وكانت هذه الهجرات هي السبيل الذي دخلت عن طريقه القبائل السامية أي العرب قبل الإسلام من جنوب الجزيرة العربية إلى شواطى إفريقيا.

ومنذ اللحظة الأولى لوصول هذه الموجات من المهاجرين الساميين وضع تغويقهم على أهلاء البلاد في وسط الهضبة الحبشية وشمالها وكان تأثيرهم عليها كبيراً، ومنذ تلك العهد السحياقة وهذه القبائل المهاجرة تسربع على نواحي وأوجه النشاط المختلفة وأهمها التجارة، فازدهر نفوذ العرب وتطلت نشاطهم التجاري في شرق إفريقيا في الوقت الذي أخذ فيه النفوذ المصري القديم في الاضمحلال (58).

وكلما توغل تجار العرب القدماء داخل الحبشة والمناطق المحيطة بها

(57) لمزيد من المعلومات انظر: عثمان صالح سي، ص 74 وما يليها.

(58) راجع الفصل الخاص بانتشار الإسلام في الحبشة.
كلما صادفوا مزيداً من الخصب والاعتدال في الجو يرغبهم في الاستقرار في تلك الأنجحاء، ولا زالت كثيراً من المواقع القريبة من مصوع تحمل من الأسماء ما يؤيد تغلغل هؤلاء المهاجرين والتجار داخل الأراضي الإفريقية.

وسرعان ما استقر هؤلاء المهاجرين واختلطوا بأهالي البلاد وأدخلوا إليها تلك الأنظمة التي ألفوها في بلادهم في شؤون المجتمع والسياسة وكذلك الثقافة والحضارة، وكان لهم على وجه الخصوص تأثير كبير في تطوير البلاد وتثبيق قوانين الملكية وتهذيب أساليب العمارة وتنظيم عملية تربية الحيوان وما إلى ذلك من وسائل الحضارة (59) ومنذ ذلك التاريخ أصبح العرب وأغلبهم من اليمن وحضرموت جزءاً لا يتجزأ من بلاد الحبشة والصومال كما لعبوا دوراً هاماً في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء إلى جانب الشعوب الحادية المتذئة بالسادين وقد بني فيما سبق دورهم بين الشعوب السودانية وعلى السواحل الشرقية، وسوف نبحث بشيء من التفصيل في الفصول اللاحقة عن دورهم هذا في الفترة التاريخية التي ظهروا فيها على مسرح الأحداث في العديد من المناطق الإفريقية.

واخيراً، يتبقي علينا أن نذكر شعبيين أو قوميتين إفريقيتين هما: الملاجاش

أي مكان مغتشر ثم الأزام أو البيجامي، غير أن كلا الشعبين لم ينتشر بينهما الإسلام في وقت مبكر بالنسبة للطرف الأول وعلى الإطلاق بالنسبة للشعب الأخير. ونحن لن نتعرض إليهما في دراستنا هذه التي هي مكرسة لاستعراض تاريخ إفريقيا التي انتشر بها الإسلام أي الشعب الإفريقية المعروفة والتي استعرضنا أهم ملامحهم وتاريخهم قبل القرن الخامس عشر الميلادي أي قبل بداية دور جديد في التاريخ الإفريقي يرتبط بظهور الاستعمار الأوروبي الشرس على الأرض الإفريقية واستعباده لشعوبها جميعاً.

Jaque (L), p 161.

(59)
الفصل الثاني

علاقة العالم القديم والوسط

شرق إفريقيا وجنوب الصحراء
علاقة العالم القديم والوسط
بشرق إفريقيا وجنوب الصحراء

في هذا الفصل سنحاول أن نتبع علاقات شعوب العالم في مرحلة التاريخ القديم والوسطى حتى نهاية القرن الخامس عشر وذلك في إطار محاولات هذا العالم التعريف على هذه القارة حيث إنها لم تكن معروفة لديهم ولا توجد أي اتصالات. وبالذات في العصر القديم بين سكان هذا الجزء من إفريقيا وبين الشعوب الأوروبية فقد استمرت حياة سكان هذا الجزء تسير في طريق تطورها ونموها. وهي في عزلة تامة عن أوروبا ورغم ذلك فقد قام بعض الأشخاص في أنحاء أخرى من العالم بمحاولات من وقت لآخر لاستكشاف سواحل إفريقيا في أول الأمر ثم دواخلها فيما بعد. ففي العصور القديمة كانت هناك صلات تجارية بسيطة قادمة بين شعوب المبكرة في العالم القديم أي بين الفينيقيين والفرطاجين والعرب وبين بعض الآلاف الساحلية الإفريقية وبصفة خاصة السواحل الشرقية، وقد استمرت في العصور الوسطى مثل هذه المحاولات لخلق الاتصالات التجارية والكشفية وقد قام بها العرب ناشرين ازملام بها. كما سئر في الفصول القادمة - واستمر هؤلاء في النسر إلى بعض مناطق إفريقيا الاستوائية، ومع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ازداد اهتمام وتدخل الأوروبيين في أقاليم عديدة نتيجة اكتشاف أمريكا والقيام بتجارة الرقيق مع العالم الجديد وأصبح مصدر الشعوب الإفريقية منذ تلك اللحظة مرتبطة بتاريخ الشعوب الأوربية عامة ونشاطهم الاستعماري بصفة خاصة، لذا
إذا درستنا لهذا الموضوع تركز على محاولة تتبع تاريخ علاقات الشعوب الإفريقية بالعالم القديم والوسيط بصفة خاصة من خلال عنصرين هما:

أ - محاولات الشعوب القديمة اكتشاف إفريقيا واستغلالها.

ب - التغلف العربي إلى دواخل إفريقيا.

أما الانتشارات الجغرافية مع بداية العصور الحديثة فهي ليست لها صلة

بموضوع دراستنا هذه.

أ - محاولات العالم القديم

لتعرف على إفريقيا

كما ذكرنا لم تكن إفريقيا جنوب الصحراء معروفة للعالم الأوربي القديم.
فكل ما يعرف عنه إفريقيا كان عن مصر وشمال إفريقيا الواقعة على البحر المتوسط والتي تحدها الصحراء الكبرى جنوباً. وكان كل ما يقع في جنوبها في نظرهم عالم رعب وغموض وأنها إمبراطورية خرافية يسكنها متروحشون يمتلكون ثروات هائلة(1).

ولم يكن العالم القديم يعرف أي شيء عن الأقاليم والأقطار الواقعة
جنوب خط عرض 30° شمالاً سوى الحبشة وما يحيط بها من مناطق من السودان الشرقي (النوبة - باناته - مروي) حيث أقامن مصر والفينيقيون والإغريق والرومان علاقات تجارية مع هذه الشعوب إلى جانب بعض الاعتداءات والتدخلات العسكرية وفي نفس الوقت قامت بعض شعوب العالم القدسي العربية ببعض العلاقات التجارية مع أقاليم سواحل شرق وغرب إفريقيا حيث احتكر الفينيقيون والفراماجيون التجارة مع عرب إفريقيا ولكنهم لم يبتعدوا في رحلاتهم

______________________________
Taun- (H), Histoire del'Afrique occide ntale, nahan, Paris, 1970 p 30. (1)
التجارية إلى ما بعد مستعمرة ريويدورو الإسبانية. كما أقام العرب منذ التاريخ القديم العديد من المواقع والمستوطنات التجارية على سواحل إفريقيا الشرقية.

وقد امتدت من الصومال إلى موزمبيق وقليماني(2).

ولم يكن العالم الأوروبي القديم يعرف شيئاً عن جنوب ووسط إفريقيا وكذلك عن دول ساحل غينيا فقد عرفت هذه الشعوب فقط بأنه يوجد في جنوب الصحراء العديد من دول شعوب سوداء والتي أطلق عليها اليونان والرومان اسم «أثيوبيا» أي الأثيوبيين وتعني «ذوي الوجه المحترق» وفي نفس الوقت الذي كان يجهل فيه العالم القديم كل شيء عن هذه الأقاليم كان للفرانسيين علاقات دائمة بها أسس من ذلك. بينما قام الرومان في ذلك الوقت يتبرد الحملات العسكرية على الشعوب القاطنة جنوب الصحراء أي الجرمنتيين وذلك في القرن الأول الميلادي(3) وكان الفرانسيون يصدرون إنتاجهم وصفة خاصة إلى دول السودان الغربي بل وأبعد من ذلك إلى نهر النيل ومن هناك استوردوا الرقيق والذهب والأحجار الكريمة والتمور ولكن هذه التجارة كان يقوم بها نبيمة عليهم الوسطاء من الشعوب البدوية الصحراوية ولم يغامروا في الدخول إلى بلاد الأثيوبيين كما أنهم قاموا بثلاث رحلات نجارية إلى أقطار إفريقيا جنوب الصحراء وذلك عن طريق القوافل التي احتُرت الصحراء إلى هذه الأقاليم ولكنهم رغم أنهم جمعوا معلومات عن هذه المناطق التي وصلوا إليها إلا أنهم آثروا الصمت حرّساً على مصالحهم التجارية(4).

ويُعتبر المصريون القدماء أول الذين اتصلا بشرق إفريقيا واختبروها في ذلك الوقت جزء من بلاد النوبة (كوش) والأرجح أنهم وصلوا إلى هذه المناطق

(2) نفس المصدر ص 42.
(3) Gane- (L), L’Europe et L’Afrique Paris, 1945, p 72.
(4) نوري (أحمد) «العلاقات العربية الإفريقية» مجلة السياسة الدولية، القاهرة العدد العاشر، 1970، ص 120.
عن طريقين: الأول عن طريق الغرب متبوعين مجري النيل، والثاني عن طريق البحر بعد وصولهم إلى الشاطئ الصومالي بحثاً عن التوابل والبخور والعاج والذهب وهي المنتجات التي كانت تشتهر بها بلاد القرن الإفريقي في ذلك الوقت، ويبعد أنهم وصلوا إلى هذه المناطق خلال الألف الثالثة ق. م. حيث أنهم جلبوا معهم إلى ملكهم ببي الثاني القرود والحيوانات الإفريقة وبعض الأرزام. وفي عهد الأسرة الثالثة عشر أي في القرن السادس عشر ق. م، تكررت هذه الرحلات حتى جاء ذكرها في تاريخ الملكة حتشبسوت والمسجنة على جداران معبد الدير البحري في الأقصر، كما نصيحة رمسيس الثالث بلاد العرب وبنى أسطولاً أرسله البحر الأحمر وأرسله إلى بلاد بونت وكان غرضه الرئيسي تدويل طريق التجارة البحري بين مصر وبلاد الشرق وقد استطاع أن ينشئ طريقاً بريباً بين القصير على البحر وفقد على النيل بالصعيد وكانت قصير إحدى موانيء مصر في الجنوب والتي تعمل بالتجارة الإفريقة وكذلك طريقاً بحرياً بين المحيط الهندي والبحر الأحمر عن طريق بلاد العرب والساحل الإفريقي.

وكان أول محاولات للكشف عن القارة السوداء في أفواه القرن السابع وفي القرن السادس ق. م. قام ثلاثة حملات كانت إثنتان منهما للكشف عن سواحل إفريقيا والثالثة عن دواخل القارة وهم حملات الملك نخاو وهانو القرطاجي وحملة قمبيز. ففي عام 603 ق. م أرسل الملك المصري نخاو الثاني فرعون مصر حملة بحرية يقودها بحارة فينطيوس وقد قامت الحملة من خليج السويس وكانت مهمتها كشف السواحل الإفريقية والانتقال حول جنوب إفريقيا وقد استغرقت هذه الحملة ثلاث سنوات ولكننا لا نعرف أي شيء مما توصلت إليه عن شعوب وأقطار وأقاليم القارة التي مرنا بها سوى ما ذكره لنا.

المؤرخ هيرودوت الذي نقل كل ما أذاعوه عنها منها:

1 - إن الحملة قد أتت مرتين ولفترات طويلة على أرض القارة حيث زرعوا القمح وانتظروا الحصاد ثم أقطعوا بفسنهم.

2 - ذكر البحارة بأنهم أثناء سفرهم «عاقتدون» كانت الشمس على أيديهم اليمنى، وقد ذكر هيرودوت هذه الواقعة على أنها من أكاذيب البحارة(6) ولكن النظريات العلمية الجغرافية والفلكلية في العصور الحديثة أثبتت صدق هؤلاء فيما ذكرهم عن موقع الشمس في السماء وقت الظهر إذ أن هؤلاء قد تخطوا الاستواء وبالتالي فإن موقعها في السماء قد تغير بالنسبة لهم. فمن المعروف أن الشمس في جنوب خط الاستواء تظهر ظهراً في شمال السماء وليس في جنوبها والمسافر الذي يواجه الغرب لا بد وأن تظهر الشمس على يده اليمنى بخلاف الوضع في شمال القارة(7).

وهكذا قام الفينيقيون برحلاتهم إلى القارة قبل البرتغال بألف سنة على الأقل.

أما ثاني الحملات فهي الحملة البحرية بقيادة هانو بن هاميلكار القرطاجني التي دارت حول الشاطئ الغربي للقارة وقد انتهت عكس وجهة الحملة المصرية، فقد خرجت من قرطاجنة إلى الغرب عبر مضيق جبل طارق ثم السواحل الغربية والبيزنط بها وقد جهت الحملة تجهيزاً قوياً وتكونت من ستين سفينة ويقال أن طاقهما وما تحمله من بشر حوالي ثلاثين ألف وهذا العدد الضخم يؤكد لنا أنه لم يكن هدف الحملة الاكتشاف فقط بل الاستيطان إذ كان من بين هؤلاء أسر كاملة كانت تريد الاستيطان في مراكز ومحطات التجارة

(6) نفس المصدر، ص 85.
الفرطاجية الممتدة على سواحل إفريقيا الشمالية الغربية وكان هؤلاء يغادرون سفنهم إلى الشاطئ أثناء تقدم الحملة حيث أنشأت مستعمرات فرطاجية ومن بينها مستعمرة كبرى في إقليم وادي الذهب وقد تابعت الحملة إبحارها نحو الجنوب وتجاوزت نهر السنغال وجامبيا ودارت حول الرأس الأخضر ووصلت إلى ما يعرف اليوم بسواحل سيراليون ولكن نقص المؤن اضطر الحملة إلى العودة.(9) أما الحملة الثالثة فهي حملة قميزة التي تعتبر أولى المحاولات للتوغل في قلب القارة الأفريقية حيث قام الملك قميص الفارس في نهاية القرن السادس ق.م بعد احتلاله ل مصر في 525 ق.م وبعد حملته الفاشلة ضد الأثيوبيين قرر أن يكتشف أعلاه النيل ومتابعة وقد خرج على رأس جيشه وعبر النوبة إلى وادي النيل الأبيض واختفى مع جيشه في صحراو النيل الأوسط دون أن يترك أثرًا.(10)

أما عن دور الإغريق والرومان ونشاطهم الكشفي فإن نشاط الشعوب الأوروبية بالعالم الكلاسيكي تجاه القارة الأفريقية لم يكن يهدف إلى الكشف الجغرافي ومعرفة القارة بقدر ما كان بالأساس موجهًا نحو التجارة والحملات العسكرية على شمال إفريقيا فإلى جانب التجارة والقادة العسكريين ورحلات الإدارة وجدنا بعض علماء اليونان والرومان قد ذهبوا إلى إفريقيا لتحقيق هدف آخر يخليهم أهدافهم التجارية وهو محاولتهم الكشف عن أحوال الإقليم وأهله، وبالفعل أقاموا علاقات تجارية مع سواحل إفريقيا الشرقية وجزرها وكان من النادر أن تطاو أقدام الإغريق والرومان أراضي داخل إفريقيا ولكن رغم ذلك فقد أبدى كل منهما اهتماماً متزايداً في محاولة دراسة هذه المناطق الغامضة وقد أبدى قوادهم الاهتمام بإفريقيا الاستوائية المتناحمة لمصر والنوبة بينما كان

Jaque, L’Anncien Egypte, p 80. (8)
 نفس المصدر، ص 87. (9)
 Ganiag (J) Voyages en Afrique, Paris Marchale, 1962, P 122. (10)
تجارهم يحلمون بإقامة علاقات تجارية ناجحة وذلك بالكشف عن الأنفاق الجنوبية المشهورة ببروناتها الخرافية، كان الإغريق أسبق من الرومان في محاولة التعرف على القارة ففي أوائل القرن الخامس ق. م. قام هيكاتوس ببعض الرحلات لمصر كذلك قام هيرودوت في منتصف القرن نفسه بنفس الرحلات حيث وصفوها لنا كما تعرضوا كذلك للأشكال الإغريقية المجاورة لمصر وكانت معلوماتهم مأخوذة عن روآيات المصريين والرحلة المعاصرين وقد استمر الوضع كما هو عليه في منتصف القرن الثالث ق. م. حيث قام أراتوستاينس (276 – 196 ق. م) أمين مكتبة البطالة الشهيرة بالكتابة في الموضوع نفسه، وكانت أول رحلة لشاهد عيان هي تلك الرحلة التي قام بها المؤرخ العسكري اليوناني بوليبايوس في منتصف القرن الثاني ق. م وكان في خدمة الرومان وقد قام بالكشف والكتابة عن السواحل الشمالية لدولة موريطانيا اليوم، وكان أيدوكسيوس هو الإغريقي الوحيد الذي قام بعملية كشف هامة جنوب خط عرضه 30° شمالاً وكان ذلك في نهاية القرن الثاني ق. م وقد بدأ رحلته من جبل طرقو وأبحر بجوار سواحل غرب إفريقيا بهدف الاتفاق حولها ولكننا لا نعرف إلى أي حد قد بلغ في رحلته هذه والأكيد أنه قد وصل إلى سواحل الكاميرون لأنه تقابل في طريقه بالأثيوبيين الذين يتكلمون لغة سواحل شرق إفريقيا، أي إنه التقى مع قوميات من شعب البابتو.
وفي خمسينيات القرن الأول قام التجار اليوناني ديوجينوس برحلة طويلة إلى داخل قلب إفريقيا الشرقية(11).
أما الرومان في القرنين الأول والثاني الميلادي بدأ نشاطهم بوجه غير مباشرة منها إبحارهم حول سواحل البحر الأحمر مثل حملة إيليوس جالوس على الجزيرة العربية عام 34 م وحملاتهم العسكرية ضد الأثيوبيين وربما يكون

(11) نفس المصدر، ص 132.
المقصود هنا هو السودان الأوسط في إقليمي برتو و كان حيث قام جاليوس
باتونيوس في النصف الثاني من القرن الأول بحملته عليهم، وفي القرن الثاني
قام سيبيموس فيكوس ويوليوس نارينوس بحملاتهم ضد الجرمنتي جنوب
ليبيا(12).

وفي عام 66 أرسل الامبراطور نيرون أول حملة ذات هدف علمي إلى
قلب القارة الأفريقية لاكتشاف منابع النيل وقد اكتشفت هذه الحملة النيل الأبيض
حتى النقلة مع بحر الغزال ونهر السوبات وقد قمت لنا الحملة تفاصيل عديدة عن
الرحلة وعن سدود النيل النباتية وقد اعتمد المؤرخون والجغرافون الرومان
وغيرهم على تلك المعلومات التي قدمتها الحملات السابقة وأكملوا بذل ذلك
معارف العصر عن وصف القارة(13). وفي هذه الفترة تواجد لدينا أربعة من
المؤلفات الشهيرة وهي كتاب كل من ستراوين- بونونيوس ميللا- فلاني من
كتاب القرن الأول ثم كلاوديوس بطليموس في القرن الثاني الميلادي، وقد قام
ستراوين وبطليموس بنفسهما بالرحلات على طول النيل بينما قام الآخر برحلته
على طول البحر الأحمر ويعتبر مؤلف بطليموس أهم وأدق المؤلفات الأربعة
السابقة الذكر(14).

وقد ظهر في عام 80 م إلى جانب المؤلفات السابقة مؤلفان جغرافيان
تناولا بالذكر معارف العصر الهلنستي عن القارة الأفريقية وكان ظهورهما بمدينة
الإسكندرية، والمؤلف الأول كتب كتاب إغرافي يروى وهو كتاب "رحلة إلى
 البحر العربي" والثاني من أعمال المؤرخ السوري "مارينوس السوري" ولم يبق
من كتاباته إلا ذلك الجزء عن متابعة النيل الذي نقله إلينا بطليموس الذي أخذته
عن حرفياً، وفي بداية القرن الميلادي الأول كتب جوبا ملك نوميديا بشمال

Hervé (L) L'Empire Romain, Presse, Universitaires, Paris, 1971, P 19. (13)
نفس المصدر، ص 27. (14)
إفريقيا وهو حفيد الرومان كتاباً عن منابع النيل إلا أن الكتاب ضاع وقد وصلت
إليها رواياته خلال كتاب فليني (15).

ورغم أن الإغريق والرومان قد اشتهوا بإفريقيا ولكن ما ذكروه عنها كان
سطحياً وساذجاً للغاية، وكلما كتبوا بجانب النهج العلمي في أغلب الأحيان
فقد صور لنا هيرودوت النيل كنهر واحد ينبع من الغرب ويجري مستقيماً عبر
مناطق مروية والنوبة حيث ينحى بعد ذلك نحو الشمال، هذا بينما كان كل من
هيرودوت وسترابون يعتقدان بأن إفريقيا لم تكن تمتد كثيراً وتصوروا بأن القارة
لم تكن تزيد مساحة عن شبه جزيرة العرب بينما كان الملك جوبا وهو في دولته
على علاقات بإفريقيا الغربية يعتقد بأن النيل كان متصلاً ببحر النيل وأن متبعه
كانت في غرب موريتانيا وأنه كان متصلاً ببحر النيل وإن متبعه كانت في غرب
موريتانيا وأنه كان متصلاً ببحيرات وذلك في مجرى تحت الأرض، أما
فليني فقد خلط بين نهر النيل ودرعه في جنوب المغرب، كما خلط بين النيل
والنيل، وقدم وقعت بطليموس الجغرافي الشهير في خطاً فادحاً حين خلط بين
الخيال والحقيقة بالنسبة لمجري أنهار إفريقيا ولعله يوجد ثلاث أنهار كبرى
فيها فقد كان النيل طبقاً لما ذكره ينبع من بحيرتين كبيرتين في الجنوب على
ستجمع القمر ومنها يخرج فرعان للنيل نحو الشمال وطبقاً لقلمه يوجد نهر
كبران داخل الإقليم هما النيل والنيجر وكلاهما ينبع من قلب بحيرة كبيرة (16).

واقتضا معافرو أهل أوروبا وآسيا في العصور القديمة والوسطى في الواقع
عديدة إلا أنها خاطئة وخطرية وسطحية في نفس الوقت كما كانت مؤلفات
العصور القديمة تتناول فقط المعافرو الجغرافية للقارة دون أي ذكر لتاريخ
شعوبها.

(15) نفس المصدر، ص 32.
Aymaru et Augoycr, Rome et son empires, Tomel Ouedat, Liban, P 82. (16)
أما سواحل إفريقيا الشرقية فإنها كانت أوفر حظاً حيث زارها الملاحون الإغريق الذين أطلقوا عليها اسم إقليم العطور - أريانوتياريبريو - ونقلت إليها أعمال الجغرافيين الرومان الكثير عن أحوال سكان المنطقة فالجغرافي سترابون ذكر فيما كتب عن إفريقيا الكثير من عادات أهل البلاد ووصف لنا طرق الدفن والجنائز عند سكان ساحل الصومال اليوم وتشبه هذه الطقوس الكثير من الطقوس التي يزاولها الصوماليون اليوم(17).

أما التجارة الرومانية أريتيوس فقد صرف رحلته لسواحل البحر الأحمر وهي التي حدثت في القرن الأول الميلادي حوالي عام 85 م حيث ذكر الكثير عن قيمة تسمى أورثايوس وهي على ما يبدو قبائل جيلى الصومالية وذكر كذلك بأن سكان جزيرة سقطرى كانوا من أتباع ملك أرض التوابل والبخور وقد حاول الرومان إخضاع الشعوب الفنية في بلاد العرب والاستيلاء على مواطن تجارة التوابل والطور وإيجاد الطريق المنشودة إلى الهند فجردوا حملة إيليوس جالوس في عام 34 م على جنوب الجزيرة العربية واستعوانا بالأنطاك الذين ضللوهم حتى لا يفقدوا احترامهم للتجارة الشرقية فعادت الحملة خائبة مهزومة(18) ولعبت اليونان أيضاً دوراً في هذه المنطقة تجارياً وحضارياً فقد أثرت الحضارة اليونانية في الحبشة التي استخدمت اللغة اليونانية فيما بين القرنين الثالث والرابع الميلادي.

ومن المعروف أن الساحل الأريتي كان حلقة إتصال بين الأفجاس وكثير من الأمم الأخرى وقد يرجع تاريخ هذا الساحل إلى فترة أقدم من قيام دولة أكسوم حوالي القرن الثالث ق. م، فعلى هذا الساحل كانت تقيم جاليات يونانية تشتغل بالتجارة ولهما موائية عريقة فيها سنفهم وكان لمنيع عدول الذي تأسس في عهد بطيضوس فيلادلفس في القرن الثالث ق.م أهمية تجارية عظمى

Copans, (L), Histoire de L’Afrique Noire Dakar, 1982, P 117.  
(17) نفس المصدر.  
(18) نفس المصدر.
حيث استعمل لتصدير أنواع العاج وقرن الكركون وجلود الحيوانات والرقيق الذين خصصت لهم أسواق تجارية يردون إليها من بلاد شرق إفريقيا لتصديرهم إلى غيرها من الدول، وقد أقام اليونان في عدول وغيرها من المناطق المحيطة بها، وفي القرن الأول ق.م. كثر فيها البحرية الإغريق القادمين من مصر والإسكندريه، وفي العصر المسيحي سكنت دولة أكسوم نفوذها على عدل فأصبحت المكان الذي يحسدون فيه أسلحتهم وغذائهم عند مارية الين وقد تركوا فيها نقوشًا كثيرة تفيد ذلك، وقد نبت آثار الميناء أن بلاط الملك والحكومة الأكسومية وربما الشعب الحبشى أيضاً كان متآثراً بالحضارة واللغة الإغريقية وإن كانت قد استخدمت استخداماً محدوداً(19).

وهكذا يضح لنا أن العالم الأوروبي القديم كانت معارفه واتصالاته بجنوب الصحراء محدودة وسطاحة خاصة غرب إفريقيا ولم ينجحوا في الوصول إلى أعماق هذه المناطق ولم يكن هناك اتصال بينهم وبين سكان هذه الأجزاء التي عاشت كما ذكرنا في عزلة تامة عن العالم الأوروبي الخارجي وما قام به الرحالة والعلماء والتجار من نشاط في هذا المجال يعتبر محدوداً إلى حد كبير، وإن كان هذا النشاط قد وضح بصورة أكثر في الساحل الشرقي الإفريقي إلا أنه لم يتجاوز بعض الأقاليم كما ذكرنا.

ب- التنقل العربي إلى دواخل القارة

تحدث المصادر التاريخية عن وجود علاقات اقتصادية بين مناطق الشمال وغرب القارة الإفريقيا ووسطها في العصور الكلاسيكية، وقد ازدهرت هذه العلاقات وتطورت بعد الفتح العربي لمصر وشمال إفريقيا(20).

Ganiag (J), P 112.

(19) أحمد سعيد الفيروزي، "البحاريات العربية المبكرة في بلاد السودان" مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1981، مركز الجهاد، طرابلس، ص 245.

(20)
وترجع أصول العلاقات القديمة بين شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا على وجه الخصوص إلى قرون كثيرة وقد جاء هذا التصوير عبر مناطقين هامتين حملتا مختلف المؤثرات العربية إلى هذه المناطق وهما المنطقتان هما الجزء الجنوبي من البحر الأحمر والخليج العربي.

لقد بيع باب المندب منذ عصور مبكرة بين العرب والأفارقة حيث عبرت
الموجات الأولى التي شكلت السكان في المنطقة، ولما كانت المصالح التجارية بين شاطئ باب المندب الإفريقي والأسيوي أخذت في تطور فقده أدى ذلك إلى تطور العلاقة والمصالح بين الشعوب المطلة عليه والمتمثلة في الروابط السياسية والاجتماعية والحضارية وقد تطورت هذه العلاقات أيضاً عن طريق الخليج العربي وترجع جذورها إلى حقب قديمة يمكن تحديدها حسب الأدلة التاريخية بالنصف الأول من القرن الثالث ق. م(21).

لقد قامت مملكتي مغين وحضرموت في عصور ما قبل الميلاد بدور تجاري هام بين منطقتي شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا وكان من الطبيعي أن يكون لكل منهما سفنهما التجارية العاملة بين الخليج والساحل الإفريقي، وفي الألف الأخير قبل الميلاد صارت الملاحة أموعاً معروفاً من البحر الأحمر إلى السواحل الإفريقية والهند حيث كان تجار صور يبحرون عبر البحر الأحمر إلى السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وسواحل شرق إفريقيا في القرن العاشر ق. م بحثاً عن السلع الإفريقية، كما لعبت دولتي هوزان العربية التي أكدت الآثار ووجودها في نهاية النصف الأول من الألف الأخير ق. م دوراً بارزاً في تعزيز وتقوية الصلات العربية بساحل إفريقيا جنوب القرن الإفريقي ربما أقيم على المعطة التجارية على ذلك الساحل، كما فعل الفينيقيون في البحر المتوسط وما يدل على عمق الأثر الذي تركته هذه الدولة على تلك السواحل.

منذ أكثر من ألف عام أن سواحل الصومال وكينيا وتانزانيا غرفت في المصادر القديمة باسم (ساحل هوزان) أو وازني(22)، وبينما كانت عمليات الكشوف والدراسات الجغرافية عن إفريقيا في أوروبا في بداية العصور الوسطى قد وصلت إلى مرحلة الخمود التام فلم تكن الشعوب المسيحية الأوربية مهتمة بها ونسبت أعمال جغرافيا العالم القديم وضعت في غياب الظلام والنسيان وكانت خرائط العصور الوسطى عن إفريقيا تحتوي على النافذ من المعلومات المغلقة والساذجة ومنها أن النيل يفصل بين إفريقيا وآسيا، بينما اختلفت عن الوجود تلك المراكز التجارية التي أقامها العالم القديم على سواحل إفريقيا الاستوائية ولم يعد أحد يعرف عنها شيئاً، وبانشغال أوروبا بمشاكلها واستجلاء الغموض الذي يحيط بالغارة وكان ذلك ضمن خطة هدف إلى تحول نشاطهم هذا وفتحاتهم في إفريقيا إلى مراكز وأسواق تجارية. فقد ظهرت المستعمرات والمحميات التجارية العربية على سواحل شرق إفريقيا كما أشارنا في الفترة السابقة على ظهور الإسلام، وفي القرن السابع كانت هناك مراكز ومصطلبات تجارية عربية في الأقاليم الشمالية لنهر النهجر وفي شمال المستغان حيث أخذ العرب يتعاملون مع الصحراء الكبرى.

إن تسخيم واحات الصحراء الكبرى بالجزائر تدل على أن العرب لديهم فكرة واضحة عنها وعن اتساعها الشاسع وطبيعة أراضيها ومناخها وكيفية عبورها والعيش فيها بل كانت لديهم فكرة واضحة عن الحざم الصحراوي الذي يحيط بالكرة الأرضية في نصفها الشمالي فيما بين عرضي 10، 40 على وجه التقرب(23). كما أنهم عرفوا الطرق الرئيسية التي تشقها في أطرافها المختلفة ووضعوا وعرفوا مراحل كل طريق وما عليه من الجزائر أو الواجهات التي تحيط

(22) نفس المصدر ص 228 ـ 229.
(23) حسن مؤنس، فزّن ودورها في انتشار الإسلام في إفريقيا، مجلة كلية الآداب، العدد الثالث، 1969، بنغازي، الجامعة الليبية، ص 69.
بها القوافل للراحة، وعرفوا كذلك المسافات وحدودها بالمسافات والأيام والأميات وتحدثوا وتحدثوا عما يجده المسلمون من أصناف الزاد في كل محطة من هذه المحطات وما يمكن أن يحمل إليها من البضاعة وما يمكن أن يصدر منها(24).

وفي فترة ظهور الإسلام كانت معلومات العرب عن شرق إفريقيا وبعض مناطق جنوب الصحراء وممالكها وافية، فبعد هذه المرحلة التي تمثلت في قيام الدولة العربية الكبرى في آسيا وشمال إفريقيا وإسبانيا قامت في بعض أقطار وسط إفريقيا وبصفة خاصة على الساحل الشرقي وبعض أجزاء جنوب الصحراء العديد من الدول والمدن وهي غالبًا ما كانت تابعة للسلالات العربية الرسمية وقد ازدهرت هذه المدن والسلالات العربية خلال العصور الوسطى وقامت بالإتجار مع بقية العالم العربي والهندي وكانت أهم صادراتها الذهب والتوابل، لقد شكّلت هذه المدن والسلالات بالإضافة إلى الأفارقة الذين أسلموا في الجاليات العربية التي توافدت في فترات مختلفة على هذه المناطق والتي كانت تتبع القبائل السياسية والاقتصادي في الممالك السودانية. ففي البداية تواجدوا في غانا ثم ارتحلوا إلى مالي ثم إلى سنغالي وحملوا معهم العقيدة الإسلامية والحضارة العربية التي فتحت آفاقاً جديدة في حياة هذه الشعوب وقد أثرت تلك الجاليات تأثيراً بارزاً في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية في المناطق الإفريقية التي وصلت إليها(25).

إن العرب القديمي بإمكاناتهم المتواضعة في تلك العصور استطاعوا أن يركزوا وحدهم بإفريقيا إلى يومنا هذا في حين ظل الاستعمار هامشيًا رغم إمكانياته وطول فترة بقاءه بالقارة، لأن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء المنطقة فهم يتجرون ويشترون الإسلام واللغة العربية ولم يطغ أي هدف آخر

(24) نفس المصدر، ص 73.
(25) أحمد سعيد الفيhoresي، ص 252.
غير نبيل بينما كان للاستعمار أهداف مرتبطة واضحة تمثلت في الاستغلال الاقتصادي للمنطقة ونفي الدور التاريخي والحضاري لها(26).

لقد قام العرب إلى جانب نشاطهم التجاري والاستيطاني نشاطًا كثيفاً له أهميتي بالنسبة لتاريخ إفريقيا، ومنذ القرن العشرين الميلادي قام الرحالة والجغرافيون العرب - كما سئل بالتفصيل عند حديثنا في الفصل الثالث عن دورهم في حركة انتشار الإسلام بالقارة - بزيارة أقلام عديدة سواء على ساحل إفريقيا الشرقي أو جنوب الصحراء ودوّّنا معلوماتهم واتباعاتهم واستنتاجاتهم العلمية عنها التي أفادت الجغرافي الصقلعي العربي الإدريسي بوضع خريطة جديدة لإفريقيا إلى جانب خريطة الأراضي التي كانت قد وضعها لملك النورمان في صقلية.

ومما لا شك فيه أن الاتصال العربي بإفريقيا قد تبلور في صورته الواضحة بفضل العناصر السامية المهاجرة من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة وكانت أرقى العناصر جميعًا وهم حملة الحضارة إلى هذه المناطق وهم الذين أسسوا الدولة الأكسومية الزاهرة بعد أن استقروا في الوطن وتأثروا بالبيئة الحبشية وتفاعلوا مع العناصر الإفريقية والبحثية. وكان الساميون بالحبشة يتكلمون لغات ولهجات قريبة شبه من العربية الجنوبية (لغة اليمن القديم) وأقدم لغة سامية تكلموها هي لغة الجعج نسبة إلى قبيلة الأجازع وهو أقدم من هاجر إلى الحبشة من القبائل اليمنية وقد انتقلوا إلى الجانب الشمالي الشرقي منها وكانوا شعباً قوياً استغل بالتجارة واتسع نفوذها فيها بحيث أصبح على رأس الطرقات الحاكمة(27).

وستخدم الساميون في أيامهم الأولى بالحبشة اللغة والكتابة السبأية أي الخط المسند، وكان الساميين الذين استطوتوا المرتفعات الأريترية وهضبة

(26) محمد مزروق، "العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر"، مجلة البحوث التاريخية العدد الثاني 1985، طرابلس، مركز الجهاد، ص. 84.

Copans, P. 160.

(27)

ومن المعروف أن القبائل التي هاجرت إلى الحبشة كانت تسكن قبل هجرتها على الساحل اليمني أو قريبًا منه ومنها قبيلة سهوت أو سحوات التي كانت تسكن على رأس المضيق ثم قبيلة حبشت وهي أشهرها وكانت تسكن على الساحل أيضاً وقد أخذت في هجرتها الطريق البحري الذي يوصل إلى خليج مصوع وفهضة الحبشة فقد خرجوا منها وموا بأكسوم وتغازوا واحتلتون الجنب الشرقي من الحبشة وقد أطلق اسم هذه القبيلة أي حبشت على جميع البلاد بينما كان لسان هؤلاء هو لسان الجعز أي لسان قبيلة الأجزاء اليمنية القديمة. ومن المعروف أن نزاعاً قد حدث في أول الأمر بين المهاجرين وأصحاب البلاد من الحكام لم يلبث المهاجرين أن تفوقوا عليهم بنفوق حضارتهم واتسع نفوذهم.

(28) عثمان صالح سبي، تاريخ اريتريا، بيروت، شركة النهار للخدمات الصحفية، 1974، ص 24.

تحت زعامة الأجواع واستطاعوا أن يستشعوا عن طريق نفوذهم الاقتصادي
سلطانهم السياسي على البلاد وأن يصبحوا سادة يملكون ناصية الحكم على
الجزء الشمالي من الحبشة ثم على سائر الهضبة(30).

وكان تأثير الميني على أسماء الملوك الذين حكموا حوالي ميلاد المسيح وحتى
النصف الثاني من القرن الثالث (8 - 747 م) إذ كانت أسماؤهم مصدره بالمقطع
إزاراً وتعني صاحب ويفالدها ذو بالعربية ويقال لثوارهم من ميلوك حمير بالأذواء
مثل ذوي بنو جندون وما يلي هذا المقطع يدل على اسم القبيلة أو الشعب أو
المكان الذي ينسب إليه الشخص، وإبتداء من عام 275 وحتى 478 وجدنا
بعض الآخرين من ملوكهم تبدأ أسماؤهم مصدره بال مع نطق اللام مفتوحة
مشددة أو مفتوحة مخفية، وهذا التركيب كان معروفا عند اليبسانيين ومن أسماء
ملوك الحبشة المعروفين تأثير اللغوي لجنوب شبه الجزيرة العربية منذ عهود قديمة على أرترية
وшло شمال شرقي إفريقيا يدل على مدى التواصل بين هذين الإقليمين المجاورين
حيث تعتبر جزر - والأصح جنز - أقدم لغة سامية في شمال شرقي إفريقيا حيث
نجح الساسون في فرض ثقافتهم ولغتهم على الشعوب الكوشية التي سبقتهم
استناداً على تقدمهم الحضاري وقد كانوا هم الذين استخدموا وسائل الزروع على
التلال بالتروس وتعني الزراعة السفحية على المدرجات كذلك البناء بالحجر

(30) داز، الحضارة والتاريخ الإفريقي، محمود نسيم، بيروت 1969، ص 119.
(31) نفس المصدر.
الأخلاق وبناء المعابد والقصور البيضاوية والكتابة وغيرها من أسس الحضارة والتقدم، وحلت دياناتهم محلّ الديانات القديمة للأقوام الكوشية التي كانت تقدس أنواعاً معينة من الأشجار والحياة والعمليات، ولقد كانت نجذب في بادئ أمرها لقبائل سامية كانت تعيش وسط قبائل إفريقية في الهضبة الأفريقية وفي أكسوم ولهما أخذ العناصر يندمجان ويكونان أمة واحدة ليست بسامية خليصة ولا حامية خليصة ظلت هذه اللغة لغة هذه الأمة المختلطة الجديدة دون أن تفقد صبختها وأصلانها السامية لأن أصول اشتاقاقها موجودة في اللغة العربية وغيرها من اللغات السامية (32).

وقد ظهر إلى جانب الثقافات السامية العربية ثقافات أخرى تسربت إلى الحبشة ومن أهمها الثقافة اليهودية فقد استوطنت بعض العناصر اليهودية فيها بعد هجرات الساميين إليها وسمى يهود الحبشة بالفلاسفة. وكثير منهم يقيمون الآن في شمال بحيرة تانا ويمتنون حتى مدينة أكسوم ويتكلمون لغة الأجاو الكوشية. وقوامها كتبهم المقدسة بلغة الحصب وقد انضموا في العناصر الحامية والأفريقية وتأثروا بها. وليهود حكمهم المعروف أثر كبير على أفكار الأحواس السياسية والدينية فقد استطاعت قصة سليمان وملكة سبا التي عرفناها أن تنفذ إلى الحبشة وأن يلعب فيها خيال الأحواس واليهود فنصبوا حولها إفكارات وأحداثاً غريبة ويعلق الأحواس أهمية كبرى على هذه القصة ويجعلون منها أساساً حاماً يرتكيز عليه تاريخ دولتهم بصفة عامة وتاريخ الأسرة الحاكمة بصفة خاصة، وقد حاولواربط بين قصة ملكة سبا بالحبشة والإبعاذ بأن سبا هي الحبشة ورغم هذا لم يبتعد لهم إلى الآن البرهان التاريخي القاطع لربطوا بين ما يترتب عن علاقة هذه القصة بتاريخ الحبشة وملوكها ورغم ذلك فإنهم لا يزالون يعمرون بأفكارهم العجيبة (33).

(32) عثمان صالح سبي، ص 69.

Wekkermarck (E) Etudes sur les migrations des tribus en A’Frique (33)

80
ونص أسطورتهم التي يمتكِن بها يدور حول ملكة لهم تدعى مَكِيدة (مَقَاهِه) وكانت ملكة على سبا يقولون بأنها كانت بارض الحبشة في المكان المعروف الآن بأريتريا، ويعتبرها الأُخْبَار بأنها هي الملكة التي أطلقت عليها العرب اسم بلقيس! ثم تمضي القصة في مثل ما تم ذكرها في المُصادر الأسطورية حتى تنتهي بزيارتها لسيلاباني حوالي عام 1000 ق.م وتبين الأسطورة كيف خذَّعها سليمان حتى نال منها وقد أدى ذلك إلى زواجهما وإلى ولادتهما منه ولدًا اسمه فليك وعندما بلغ أَشْدَه أَرْسَلته أمه إلى والده الذي فرح به وجعل منه ملكًا على الحبشة، وقد عاد إلى الحبشة ومعه نفر من شباب يُبِنِي إسْرَائِيل بعد أن سرق من والده تابوت العهد وحمله معه وحفظه في عاصمته أَكْسُوم التي أُطلِقت عليها اسم "أرض صهيون الجديدة"(34).

ولا شك أن هذه الأسطورة لم يكن لها صلة بأكسوم التي لم تكن قد أسست بعد، وعلى كل حال فنحن نعرف أن لا يوجد شاهد تاريخي يدلنا على أن دولة أكسوم كانت قد اعتقت قبل المَسْحِيَّة دينًا آخر غير الوثنية، وبالفعل المؤثرة بالعبادات الدينية، وقد كتب هذه الأسطورة في القرن الثالث عشر وغَلَبَت على كاتبه رغبته في تأييد دعوة الأُسَرَة السليمانية الحديثة العهد بالملك بالحبشة والتمكين لها عن طريق الأسطورة فيما تطبع فيه من قوة روحية، وكان الخصص منها اختفاء القديسية على الأُسَرَة الحاكمة الجديدة حتى لا يحاول أحد الانتقاد منها أو الانقضاض عليها واعتقام وضع هذه الأسطورة على شَذة تعلَّق أفراد الشعب الحبشى بأمثال هذه المقصص التي ترضي غزوره القومي.

ومنذ أن أعلن عنها وتمكن الملك "يكونوا أملاك" من العرش صار ملوك الحبشة يطلقون على أنفسهم لقب ملوك الحبشة وذلك ليزيد من الْيَقِين بأن سجل الملوك المسنى "كپابخست" والذي أورد هذه القصة قد وضع في القرن الثالث عشر ليخدم الهدف الذي سبق ذكره.

(34) نفس المصدر، ص 103.
فإن الأرجح أن القصة موضوعة حتى تجعل للأسرة الحاكمة حقاً إلهياً لا منازع فيه في ملك الحبشة.

وخلال هذه القرنين الثمانية التي عاشتها الدولة كانت العلاقات الودية تارة والعدوانية تارة أخرى قائمة بينها وبين اليمن وقد مرت هذه العلاقات بمراحل منها:

1- إرسال حملة أكسومية إلى اليمن في القرن الأول ق. م. 
2- تحالف الحبشة مع زعيم همدان في حربه مع ملك سبأ وقد انتصر الهمدانيون أول الأمر ولكنهم إنهزموا أخيراً وظل الأحباش مخلصين لحفائزنهم حتى نهاية الحرب حيث استطاع ملك سبأ الشرعي أن ينتصر وقد اتخذ الجيش الحبشية قاعدة له في مدينة صحرى بساحل تهامة. 
3- في نهاية القرن الثالث الميلادي احتل ملك أكسوم آل أسحف (290 - 277) اليمن وظل الحبشة ساداً على البلاد حتى القرن الرابع وقد انتقلت ملك الحبشة بملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسحرين وكاسو، وكان الملك عيزان (342 - 317 م) هو أول ملك تلقب به هذا اللقب وفي عهده اضطرت أحواج الحبشة وتأتبت عليها القبائل الجنوبية وطمع عرب الشمال فيهم وقد استنفرو ضعفهم للاستيلاء من جديد على اليمن وقد تمكّن الملك الكندي الشمالي من التغلغل حتى وصل إلى حدود اليمن أي إلى نجران، وقد استطاع الملك الحميري شمرعشع أن يطرد الأحباش من البلاد وأرسل حملة حزرت قاعدة صحرى من خاميتها الحبشية وكان من نتيجة ذلك تقهقر أهل صحرى وطردوا إلى الشمال، كما يبدو كان نشاط شمرعشع سياحياً في تدخل الأكسوميين مرة أخرى في شؤون بلاد العرب، وقد ظل الحبش ساداً على بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث حتى القرن الرابع (35) ومما يؤكد هذا الرأي سكت النقوش

إن هذا الأمر دفع بكل شخص متمكن من الاستيلاء على العرش إلى المساحة لربط نسبه بتلك الأسرة حتى ولو من سبيل الادعاء والاختراع.

ومنه لا تشك في أن مملكة سبأ كانت باليمن وأن لها ملكة تدعى بلقيس ولكن ليس هناك ما يمنع من أن تكون تلك الملكة الشهيرة قد ضمت بلاد الحبشة تحت سلطانها في ذلك العهد. وهذا أقرب إلى الفهم وأكثر اتفاقاً مع تاريخ هذه الفترة، وليس هناك ما يمنع من احتمال صحة ما جاء عن منليك وعندئذ لا تستبعد أن يقوم سليمان بتعيينه ملكاً على ذلك الجزء البعيد، أي أنه لا خلاف في أن سبأ قد تكون قد تمثلت الحبشة وإن أبناء لكلا من ملكة سبأ اليمنية وسليمان. يكون قد حكم بالحبشة ولكن الخلاف هو أن بلقيس هذه ومملكة أكسوم لم تكن قد وجدت أن وقوع الهجرات اليمنية إلى الحبشة منذ القرن العشرين قد دفعت ملوك هذه الفترة للاستفادة من أساطير قديمة تبين أصولهم وأصول أسلافهم السبأية ومن أساطير قديمة ومن بعض الوقائع التاريخية والأساطير التي تحيط بسبأ ابتدوعا تلك الأسطورة بشكلها الذي رأيناه.

ولو أن هؤلاء الملكين في تلك الأزمان الساحقة كانوا على ثقة حقاً بأنهم أحفاد سليمان لرسخ إيمانهم بالدين اليهودي وتعصبوا له ولما كان من السهل اعتناقهم المسيحية بملك الاستجابة السريعة التي حدثت على عهد في القرن الرابع الميلادي، كما وأن اليهود بالحبشة أي (الفلاحة) قد أطلق عليهم اسمهم هذا الذي يعني بالحبشة (المهاجرين أو الأعراب) ودخل في شيوخ هذه التسمية على اليهود ما يؤيد استنتاجنا بعدم وجود أي علاقة قريبة مع أهالي البلاد ولو كانت الأسرة المالكة تنحدر حقاً من نسل اليهود لما استمر اليهود يحملون ذلك الاسم أي الفلاحة - الأعراب، ولم يقي اليهود يعيشون في الحبشة في شبه عزلة عن باقي أجناسهم وليس هناك أي مرجع أو برعان يؤيد شخصية منليك وعلى ذلك 82.
اليمنية عن ذكر هذه الفترة أو أي خبر عن حكام اليمن وقد كان أول ذكر لهم بعد ذلك في عام (378 هـ) حين حكم كرب يهتهم في بلاد اليمن.

أما عن دخول الديانة المسيحية إلى الحبشة فقد دخلت هذه الديانة إلى أرتريا وأكسوم في وقت مبكر على أحد رجال الدين الإسكندرئيين ويدعى فرمنتوس (Firmentius) حيث يزعم أن مجموعة من تجار صور قاموا برحلة تجارية إلى الهند وفي صحبتهم فرمنتوس وشاب آخر قريب له يدعى أوديسيوس (Edisius). وفي أثناء الرحلة وقفت السفينة في ميناء عدنوليس في الشاطئ الأبري واعتدت أهل المدينة على هذه السفينة وأغرقوا في فيها ولم ينج إلا هذان الشبان فبعدهما الأهالي إلى ملك أكسوم الذي سر بهما ومنهجهما فثقت وجعل أكبرهما أمينا على حساباته وجعل الثاني ساقيه الخاص وعندما واتبه المنية بقيا إلى جانب الملكة لرعاية أمور الدولة إلى أن بلغ الملك الصغير عيزانا أشدته واستمر في خدمته، وعلى هذا الأساس نجح فرمنتوس في التأثير على الملك عيزانا حتى جعله يعتنق الدين المسيحي، وقد عاد أوديسيوس إلى صور وأصبح راعياً لكونيتهما، أما فرمنتوس فقد ذهب إلى الإسكندرية حيث اجتمع بالبشر والرحمة على إرسال مطران إلى أكسوم لرعاية شؤون المسيحية والمعتمرين في تلك البلاد فوجد فيه البطريرك خير من يقوم بهذه المهمة فعينه مطراناً على أكسوم. وأثناء حماته وحياه الملك عيزانا أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة وتملكا الكنيسة التي تبع الكنيسة المصرية على المذهب الأرثوذوسي (القطبي اليوناني) وظلّ بطاركة الإسكندرية يرسمون المطرانة المسيحية الذين يرسلون الكنيسة في أكسوم ومن بعدها الحبشة واحدها بعد الآخر، ولم يكن اعتناق الدين المسيحي في عهد الملك عيزانا إلا بين قلة من الناس إذ أن القبائل الريمية ظلّت مستعصمة تتسرب إليها المسيحية ببطء شديد خلال قرنين من الزمان(36). ويرى أنه بعد فرمنتوس لسنوات - أي ما بين

(36) عثمان صالح سبي، ص 34.
1431 - 346 - ذهب إلى اليمن بعثة أجنبية وكانت اليمن في ذلك الوقت قد استقرت استقلابها وحريتها وكانت هذه البعثة قد أوفرها قسطنطين الكبير برئاسة يوفيليوس الهندي مصحوباً بهدايا إلى حمير للتبشير بالسماحة على مذهب أريوس وكان الخلاف على أشده بين أريوس مخلص مذهب كانت تدعه الكنيسة المصرية إلحاداً وبين بطريرك الإسكندرية وكان فرمنتوس كما رآينا موفداً من قبل هذا البطريرك إلى الحبشة من قبل أن يصل إليها يوفيليوس بسنوات ولا هذا كانت المناقشة شديدة بين الطوافين أي بين فرمنتوس في الحبشة وبوفيليوس في اليمن. كذلك سعا يوفيليوس إلى ملك الحبشة حيث حمل رسالة من الإمبراطور الروماني قسطنطين إلى ملك الحبشة عزوانا وحاول إبعاد فرمنتوس بالخليج عن بطريرك الإسكندرية واعتتناق مذهب أريوس ولكنه لم يفلاح(37). وكان طبيعياً لا بحص يوفيليوس على فوز ديني أو سياسي في اليمن بسبب تدخل الفرس في شؤون اليمن وتحريضها على مقاومة نفوذ الرومان بها وقد كانت وقتذاك قائمة بينهما وكان الفرس قد ملكوا ناصية الطرق التجارية مع الهند.

وخلال القرن الرابع والخامس الميلادي أخذت المسيحية في الانتشار ولم يسمح ذلك للحبشة أبناءها بأي نشاط إلى أن جاء عام 534 حيث اتصلت بهم بيزنطة تطلب منهم حماية المسيحيين الذين كانوا يعيشون في جنوب الجزيرة العربية(38).

أما عن الغزو الحربي لليمن وجنوب الجزيرة العربية فيبدو أن الدوافع السياسية والاقتصادية كانت من أهم العوامل التي دفعت إلى هذا الغزو، فقد كان العالم القديم في القرن الخامس وبداية القرن السادس منقسمًا إلى مسكونين في الدولة الفارسية الطموحة ثم الدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) التي حاولت

(37) محمود حسن، دراسات في التاريخ الأريتري، بحث غير منشور، جامعة قاربون، بنغازي، 1978، ص 19.


(38)
بكل السبل الحفاظ على مقاطعاتها الشرقية بعيداً عن الغزو الفارسي وكذلك لتشديد قبضتها على التجارة الشرقية. غير أن الصراع بين الطرفين ما لبث أن تخلق وراء رداء العقيدة وأصبح الدين هو الواجهة الظاهرة في مناطق الفوؤد المتضارعة عليها أي في القرن الإفريقي وجنوب الجزيرة العربية فلقد اتخذت كلتا الدولتين من الدين وسيلة لمحاربة بعضها وقامتا بشتيج المذاهب المختلفة بين رعايا الدولة الأخرى، لهذا تعرض اليمن لبعثات تبشيرية عديدة كل منها يحاول فرض المذهب الذي يرتبط مسيحي البلاد به فانشطرت المسيحية بمذاهبها في اليمن وذلك في الأقاليم الشمالية بنجران ثم ساحل المحيط العربي، وفي نفس الوقت أقام جهاداً من اليهود بإيطاليا إذ لجأ إلى بلاد العرب سلاسلة يهودية هبباً من اضطهاد الرومان وقد أسس هؤلاء جماعات قوية في الأماكن التي لجأوا إليها، وقد أوقع اليهود في التاريخ بحب الانتقام وإشعال الثورات على حدود الإمبراطورية الرومانية كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً فُرضوا البرشيون والفرس والعرب وبقية الشرق وقد استقرت بها في اليمن طابعة منهم ووجدوا أنفسهم في حماية الفرس أصحاب الدعامة القوية بها وهنا بدأ اليهود يواجهون المسيحية باليمن وبدأت المسيحية تواجه مصاعب عديدة، وكان الداعف لاضطهاد اليهود بسبب انتهجتهم رابطة روحية مع دولة أجنبية هي بيزنطة مزعمة مسيحية الشرق وكذلك بسبب دس اليهود ضدهم لدى ملوك اليمن لا سيما وأن أهل نجران الذين تعرضوا للاضطهاد كانوا من أصحاب نفوذ مالي وسياسي كبيرين وهذا ما زاد من حقد اليهود عليهم (39).

وقد عكست الأحداث الدولية صداها في اليمن حيث انقسم إلى مسكيدين المعسكر الفارسي ويؤرده ويسانده اليهود وغيرهم ممن يرون مصالحهم مع الفرس ثم المعسكر البيزنطي ويسانده التصاري وغيرهم من التجار الذين ارتبطوا مع بيزنطة ومما لا شك فيه فإن الحروب الفارسية البيزنطية الطويلة قد لعبت

دورًا هاماً في توسيع شقة النزاع بين المعسكرين وأنصارهما.

لقد كان لاضطهاد النصارى بنجران باليمن صداً لدى ملك أكسوم كما وإن تحول التجارة الشرقية خلال الحروب الدائرة وقاذك بين الفرس وبيزنطة نحو الأسواق الخارجية كان له دوره وأثره على الحياة الاقتصادية بالبحر الأحمر ومنطقة القرن الإفريقي، لذلك سارع ملك أكسوم أولاً أصحابه بالاستجابة لدعوته الإمبراطور البيزنطي جستيان لتخليص نصارى اليمن وهم من أصحاب بيزنطة عقائدياً من الاضطهاد(40).

وفي عام 523 م أنزل ملك الحبشة قواته في البحر استعداداً لقتال حمير وساعده الروم بأسطول بحري وعلى شواطئ ميناء حيسا رابط عشرون ألف جندي من رجال أصبه وقد انتقل الجيش إلى الساحل اليمني واحتلت قوة من عشر آلاف رجل إقليم المخا اليمني ثم تقدموا سريعاً نحو نجران وانتهت المعركة بهزيمة الملك اليمني ذي نواس وسقطت ظفار عاصمة ملكه وقته الأحباش.

وأرغم أن الأحباش قد أفلحوا في قمع الثورة الدينية التي كانت متاحة بين اليهود والنصارى باليمن وتدعيم المسيحية والقضاء على التسلّط اليهودي الفارسي، إلا أن ثورات من نوع آخر قد بدأت تتد展区 بعد فراغ الأحباش من هذه الحرب، فقد أتاح خضوع اليمن الفردية للفتوح البيزنطي أن يقوى ويشتد في البلاد وعادت التجارة مع بيزنطة مما أدى إلى تشتيتها مع المدن العاقبة على طريق التجارة مع الشام، وهذا ما لم يرضه الفرس فقاموا ببث روح الثورة في نفوس القبائل اليمنية وإثارةهم على الأحباش، ولم يلبث أن دب الخلاف بين الأحباش باليمن وبين الحبشة وأرادت الأولى الانفراد بالحكم والاستقلال عن ملك الحبشة وكان على رأس الثائرين أبره، واضطر ملك الحبشة للخضوع

Rymond F, Commerces de Afrique, 1972, P 119.

(40)
أخيراً لرغبة هؤلاء على أن تظل اليمن ولاية تابعة له من الناحية النظرية، كما ثار الزعيم اليمني المسيوع أشوع على الأحباب وقد قام أبرهة بمطاردهما هو والأمراء الثائرين معه وربما وجد أبرهة الفرصة سانحة له فبعد أن قمع الثورة وهزم المسيقع أعلن نفسه حاكماً على حمير وربما كان ذلك في عام 520 م(41).

وقد نقش أبرهة عن ترميم سد ماراب ذكر عن نفسه بأنه مفوض ملك الجزع (الحبشة) وملك سباً وذي ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها في الهضاب، وقد ورد في النص أنه استقبل بعد أن رمم السد في (541 م) وفود المهتمين الذين قدموا إليه من بلاد الحبشة وبيزنطة وفارس، وكذلك وفود ملك الحيرة والحارث بن جبلة وأبي كرب بن جبلة وهذا ما يؤذب استقلاليته بحكم اليمن(42).

وقد عمل أبرهة منذ اللحظة الأولى على توطيد حكمه بالبلاد فأرسل نائباً عنه في كندوه وهو يزيد بن كبش ولكن هذا ثار عليه فيما بعد عندما أخفض تلك الأقاليم التي عين عليها لذلك أرسل إليه أبرهة قوة بقيادة ذي دنبور ولكن يزيد قتله واقتتح حصن كدر وجمع أبرهة جيوشه الحبشية بالآلف وسارد حتى أودية سباً وهناك سلم له يزيد بن كبش طاعناً مستسلمًا.

وقد سعى الروم إلى إيجاد وحدة بين القبائل العربية لتفاف جهة واحدة في وجه الفرس وتفعيل طرق التجارة المؤدية إلى فارس، فضفاضت القبائل المعادية مع الأحباب وجردوا حملة كبيرة على القبائل الكندية البت كانت تحتكر التجارة في وسط الجزيرة العربية(43).

وقد انتهت تلك الحملة التي ذكرها القرآن الكريم سورة الفيل بالفشل، إذ

Martin, P 161. (41)
Ganiag, P 119. (42)
Herve, L’Empire Romane, P. 82. (43)
رجح أرمه من الحجاز وقد سمى ذلك بعام الفيل، وقد انتهى حكم أرمه في عام (544) وقد تولى بعده ابنه يكسم وقد حكم تسعة عشر عاماً ثم خلفه أخوه مسروق وحكم إثني عشر عام وفي عهد الثاني بلغ ضيق حمير بالأحساء مبلغه ووجد الفرس أن الفرصة سانحة لغزو اليمن حيث أغاروا عليها وكان ذلك في نهاية حكم الحبشة لها، ومنذ تلك اللحظة أخذت أكسوم في الضعف وتسببت الحروب السائدة الذكر في كسب التجارة بين الجانبين ووقوع نزاع المهاجرين الذين كانوا يدفعون بعجالة الحياة في الحبشة إلى النشاط والرواج. وكانت هذه الأحداث بداية العزلة الطويلة التي عاشتها الحبشة منذ طولية استمرت من (570-630 م) وأصبح تاريخها في تلك الفترة مثل خلاف بين الباحثين، فالعرب يتحدثون عن ملكين من ملوك الحبشة أحدهما كان سابقاً لعصر الرسول وسموته أبحر، والآخر عاصره وهاداه ورساله وسموته أصفه ويقولون إن الحبش قتلوا أبحر وولوا أخاه الذي هو عم أصفه وأبعذا أصفه عن الحبشة حتى أتنوه بجانبه فأتوا به إلى بلاد العرب وظلوا بها حتى مات عليه ملك الحبشة فأحضروه وملكوه عليهم (44).

أما الباحثون المحدثون فيرجعون أن ملك الحبشة المعاصر للنبي هو أرماة الثاني أو أرمحة، بينما يرجح الأحسائي بأن أسمعه هذا كان حاكماً في إقليم يقع في جوار يتحكي دانسا الحالية (45).

وهكذا تعرفنا في هذه المجالة على العلاقات والصلات التي كانت بين شاطئ البحر الأحمر أي العرب والأحساء من العرب وسكان الجزيرة العربية من الشرق وعلى وجه الخصوص بلاد اليمن والجنوب العربي التي مرت في تلك الأيام بأوج مجدها وحضارتها القديمة، فكانت مركزاً للنشاط التجاري والإشعاع الحضاري الذي تكلفت به جماعات المهاجرين ونشرته في بلاد الحبشة عرب فقه الجيزاني، نزوح الحبشة ود. ن 1960، ص 116.

Jaque (M) P. 119.
ومصدومًا وتطوير الحياة بتلك الأنظمة. كما كان الحال بالنسبة للجماعات التي هاجرت من شمال إفريقيا إلى جنوب الصحراء وشكل كل هؤلاء النواة الأولى للحضارة الإفريقية وذلك بتأسيسهم للإمارات والممالك التي نقلوا إليها حضاراتهم الزاهية وقد شهد بذلك الرحلة الأوربيين الذين أخذوا في ارتياح القارة مع نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس عشر. كذلك الكاتب والمؤرخين المهتمين بالدراسات الإفريقية إذ يذكر كويلاند إن الرحلة العرب والأجانب على حد سواء والذين زروا الإمارات العربية في شرق إفريقيا تحدثوا عنها بأوهام من مظاهر الحضارة والرقي، كما شاهد فاسكو داجاما الذي اشتهر برحلته حول إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر هذه المظاهر الحضارية المتمثلة في الملابس والبناء وآشاد بها. كما أشاد بذلك دوار بريسون الذي زار كلوه ومبسيا ومالنتي ومبأ وزنجاز وشاهد نفس المظاهر الحضارية(46) وتحدث البرتغاليون الذين استقروا بعد ذلك في هذه الجهات عن مظاهر هذه الحضارة العربية ويقول كويلاند في هذا الصدد: إننا يجب أن نتذكر لما يذكره هؤلاء الرحال عن مظاهر الحضارة التي نقلها العرب لشرق إفريقيا فإن العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة، فلا شك في أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التي في أكسفورد أو في أية مدينة مسيحية أخرى(47). ويقول بوفيل إنه قبل قدمي العرب لم يكن يعرف الكثير عن إفريقيا جنوب بلاد المغرب، فنحن ندين بعلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة إلى فئة قليلة من المؤلفين والرحلة من أهمهم المصري، ابن حوقل، والبكرى، والإدريسي، وباكوت والعصري، ابن بطوطس، ابن خلدون(48).

(46) شوقي الجمل، كشف إفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية 1971، ص 43.
(47) نفس المصدر، ص 44.
(48) نفس المصدر، ص 47.
الفصل الثالث

العوامل التي ساعدت على حركة انتشار الإسلام في إفريقيا
تعتبر موضوع انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من أهم الموضوعات التي شهدها هذا الجزء حيث ترتبط عليه نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية غيرت تغييراً شاملاً ل邓小مة 전المية التي كانت عليها القارة من قبل، كما أن حركة انتشار الإسلام وما أحدثه من تغييرات جوهرية كانت مثار اهتمام وجدال وحوار بين الكتاب والمؤرخين والمهتمين بالدراسات الأفريقية، وقد تعددت هذه الآراء وأختلفت، فمنها تلك التي تحالفت على هذه الحركة، وغالبية هؤلاء من المستشرقين حيث اتفقت معظم آرائهم على أن عملية نشر الإسلام لا في إفريقيا وحدها بل في معظم أنحاء المعمورة قد تم بحذ السيف والإكراه، ومنها ما يقع على النقيض من ذلك إذ أوضح ثاة ألفنة الثالث من المهتمين بهذا الجانب مدى إعجابها بهذه الحركة وسهولة انتشارها بين الأفريقيين. وهناك فريق ثالث وهو من المؤرخين المعاصرين الأجانب الذين حاولوا أن يضيفوا بعض الموضوعية على آراء من سبقوهم فأصبحوا الإسلام في بعض المواضيع ولكنهم شكلوا في بعض القضايا الأخرى التي تتعلق بهذا الدين وانتشاره. وحتى نتمكن من استكمال هذا الأمر ومناقشة هذه الآراء والوقوف عليها وحتى نتمكن من إعطاء هذا الموضوع حقه من الدراسة والبحث

والتمحيص لا بد من تسليط الضوء على كافة جوانبه خاصة دراسة العوامل التي اعتمد عليها الإسلام في انتشاره في إفريقيا.
وتيسهًة للدراسة والبحث في هذا الموضوع فإننا أثمن تقسيمه إلى ثلاثة عوامل رئيسية وهي في واقع الأمر عناصر متداخلة لا غنى لإحدها عن الآخر.
وهذه العناصر هي:
أولاً: العامل الذاتي.
ثانياً: العوامل الخارجية.
ثالثاً: العوامل المتعلقة بالقارة ذاتها.

أولاً: العوامل الذاتية

العوامل الذاتية هي تلك التي ترتبط بالإسلام كدين وعقيدة ومنهج وسلوك، وهي بطبيعتها تمثل الجانب الأساسي والمهم الذي تتحور حوله بقية أو غالبية العوامل الأخرى، فالدين الإسلامي في جوهره يحمل الكثير من الخصائص والسمات المتميزة التي تتعلق بحياة الإنسان أياً كان وتخاطب مباشرة عقله ووجوده، كما أنها تتعلق بسلوكه وحياته اليومية، لذا فإن كل ما جاء به الإسلام من خلال النصوص القرآنية الواضحة أو من خلال السنة النبوية أو سلويكتيا الرسول والساحابة والمسلمون الأوائل كل ذلك كان له تأثيره المباشر في عملية انتشار الإسلام سواء في شبه الجزيرة العربية أو المناطق الإسلامية الأخرى من آسيا وأوروبا وإفريقيا في مجال دراستنا.

لقد أشتمل الإسلام على مجموعة من المبادئ التي تتعلق بالعقيدة والإيمان والسركوك، بالنسبة للعتيقة والإيمان فقد بني الإسلام على الوحدانية وأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهذا هو جوهر الإسلام الذي لا يعطي لأباً كان حتى مشاركة الله في هذه الوحدانية. كما أثر الإسلام المبدأ المميز والواضح وهو (لا إكراه في الدين، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وهذا
المبدأ لو توقفنا عنده قليلاً وفكرونا جيداً في مضمونه ودلائله لا اكتشفنا بأنه المبدأ الأساسي والهام بين كل المبادئ الذاته الأخرى التي تميز بها هذا الدين وكان له تأثيره الواضح في عملية انتشاره ورسوته فهو يمثل روح الإسلام الحقيقية التي بني عليها منهجه حيث يجسد الحرية بكل معانيها. فالإسلام أفر حرية الفرد في تفكيره وتفكره لأن الله ميز هذا الإنسان بنعة وشخصية عن سائر الكائنات وهي العقل الذي به يستطيع أن يميز بين الخير والشر والحق والباطل وبين الغث والسمين فداء الانخراط في الإسلام سهلاً ودون إكراه كما يدعو أعداءه ومنذ انتشار الإسلام المبكر تجسد هذا المبدأ وكتاب أوامر وتعاليم الله للنبي: «يا محمد أنك لن تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» ناهيك عن العديد من الآيات والأحاديث التي تؤكد على هذا المبدأ الصريح، لذا فإن الأفقرة عندما تعاملوا مع الإسلام أدركوا هذا الجانب جيداً واقتنعوا بأنه دين سلم وثقافة وحرية، وليس دين تعسف وإكراه كما أن الإسلام أفر مجوعة من المبادئ والقيم تتعلق بالإنسان ذاته بشخصه وسلوكه حيث أمره بالصدق وتجنب الكذب، وأن يكون أميناً وفياً مع نفسه وأهله وأقاربه ومجتمعه ونهاء عن الغش والسرقة والتفاوت وحيانة الأمانة، كما أن تحريم الإسلام للربا كان من العوامل الهامة التي ساعدت على انتشاره بين الأفقرة وغيرهم. كما أن هناك العديد من القيم والمبادئ الأخرى التي وردت في العديد من السور القرآنية والأحاديث النبوية وهي في مجملها تتعلق بالإنسان ودوره في مجتمعه حيث أنه يمثل النواة الأولى في تكوين هذا المجتمع فإذا ما شبت هذا الإنسان وتزعم على هذه المبادئ النبيلة التقية فإن ذلك بطبيعة الحال سيدفع حتى إلى تكوين مجتمع إنساني، كما أن الإسلام أفر العديد من المبادئ التي تتعلق بحياة الفرد اليومية من عمل ومأكل ومبلسم وغيرها من السلوكيات البشرية فحتى الفرد على العمل والكلة والعطاء، وقال: «اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنين» وقال: «إن الله يجب إذا عمل أحكم عملًا أن يتفقه».

كما حثه على نظافة البدن والملبس، كما أفر لهؤلاء الأفراد العديد من
القيم والمبادئ التي تتعلق بعلاقتهم وهذا ركن أساسي وهام لأنه الركز

الأساسية في إقامة العلاقات الاجتماعية في أي مجتمع.

كما أقر الإسلام مبدأ العدالة بين الأفراد في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن مراكزهم الاجتماعية أو الاقتصادية. أي أن أى كان شكلها أو حجمها فالناس في الإسلام يخلقهم من ذكر وأنثى وجعلنها شعوباً وقبائل لتعارفوا. ويقول أيضاً: "أيأيأي الذين آمنوا لا يقهر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكون خير منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تلبسوا بالألقاب" ويقول أيضاً: "إذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل" كما ترتبط مقاومة التفرقة العنصرية في الإسلام بقصة الخلق كما جاءت في القرآن الكريم وكما بنيتها الأحاديث النبوية.

يقول تعالى: "أيأيأي الناس اتفقوا بكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثبت منها رجالاً كثيراً ونساء واتفقوا الله الذي تساءلون به والرحام، إن الله كان عليكم رقيباً وأكرم ما قال المصطفى وما تنطع إليه الأفكار والقلوب: "أيأيأي الناس إن ربك واحد، وإن آباؤكم واحد كحكمك لأدم وآدم من نراب، إن أكرمك عند الله أنتمكم، ليس لعبري فضل على عجمي ولا لأحمير فضل على أسود إلا بالتقوى".

ولا يعتبر الإسلام الفرد مسؤولاً عن عمله ولا بنى أي مسئولية على عوامل أخرى خارجة عن قدرته كاللنين مثلًا، ولم يرحج القرآن لون على لون، والألوان في الكتاب الع편 مظهر من مظاهر قدرة المؤلف على جمل، كما يعتبر الإسلام الإنسانية أسرة كبيرة خلقها الله من نفس واحدة وإن اختلاف الألسنة والألوان فيها ظهر قدرة الله وحكمته، وما جاء به القرآن من تفاصل بين الناس كان بعد توفير فرض متكافئة ولا يضى الإسلام بتحول موهاب الأفراد أو مواقعهم الاجتماعية إلى مراكز قوة يجتمعون فيه على أساس اللون أو أي مظهر.
فيضطهدون بقية فئات المجتمع وينقلون هذا السلوك إلى الأجيال التالية فروقاً وأحقاداً.

إن الله جَلَّت قدرته يقول عن خلق الإنسان في كتابه العزيز ﷺ وذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، الذي أحسم كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه وتفخ فيه من روحة وجعل لكم السمع والبصر والأفْتِقَادا قليلاً ما تشكرون [السجدة: 6-9].

وعليها يهدى القرآن والسنة المطهرة وأن نحسن ونجترم كرامة الأصل، كرامة المادة التي خلق الله منها الإنسان فلقد كان اختبار لإبليس [السجدة: 70] وكان في الشعور باحتجار الأصل الترابي لمحنة من منطقة إبليس تستر إلى الذهن واعياً أو مقالاً.

إن الآخرين الذي أشار إليه القرآن وأكد الروس في مواضيع كثيرة يفرض على المسلم التزامات متعددة فهو مبدأ يفرض احترام آدمية الإنسان وتكرمه وأن تكون العلاقة بين البشر قائمة على الاحترام المتبادل الذي يقوم على التعاون ومراعاة المصالح المشتركة ويوجب الاعتراف بحق جميع الناس في الحياة الحرة الكريمة.

وأمر الله المؤمنين بأن ينتقلا بالترابط فيما بينهم ويرتفعوا به إلى دار النهاية بكتاب الله وهي أسمى من دارة الترابtel التي كانت سائدة قبل الإسلام واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا [آل عمران: 103] وبالانتقال إلى هذه

(2) عبد العزيز كامل: الرسول والזוارة في التراث العربي، العدد 16، بغداد 1981، ص 116.
(3) نفس المصدر، ص 131.
(4) محمد فتح الله الرياحي - إنتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه - دمشق، دار قتبية 1990، ص 91.
الدائرة الأسمى والأعم في التراب يجنب القرآن المؤمنين الفرقة على أساس الاختلاف في القبلة أو الشعب أو اللون ويدكرهم بأحداث الماضي في العلاقات البشرية التي كانت تنشأ على أساس مادي كما يذكرهم بآثارها السلبية فيقول: "وذكرنا نعمت الله عليكم إذا كنت أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحت بنعمته إخوانا، وكتب على شفا حفرة من النار فأنذلككم منها" [آل عمران: 103].(5) إن عمرو رضي الله عنه كان يقول عن بلال بن رباح الحضري: أبو بكر سيدنا وأعترف بسيدنا ويعني بلال وهذا التكريم من عمر لبلاد الأسود الحضري يدل دلالة واضحة على أن روح التفرقة العنصرية لم تكن قائمة في التطبيق العلمي في المبادئ الإسلامية.(6)

لقد وجه الإسلام منذ انتشاره المبكر دعوته القوية إلى تقويض الأوضاع والأفكار الفاسدة مبدئاً بالوثنية وما يتبعها من ضلالات الشرك وحارب العصبية والقبيلية التي كانت تحول دائماً دون توحد الناس واجتماع شملهم وتنويع إلى إثارة الصراعات واستمرار الأحقاد والحروب، ولقد وجدت العصبية القبلية نفسها بظهور الإسلام أمام خصم قوي هو هذه العقيدة الجديدة التي تدعو العرب كافة إلى التآخي والتآزر وتبنّي الهدوء بينهم والتحلي عن الروح القبلية، قال تعالى: "إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليم" [الفتح: 26](7).

وهناك قضية أخرى على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لآfrica جنوب

(5) محمد البله:
الإسلام والترفقة العنصرية، المؤرخ العربي، العدد 16 بغداد 1981 ص 110.
(6) نفس المصدر
(7) صلاح الدين أبو بكر، الإسلام والتمييز العنصري، ط 2، سوريا، دار الأندلس، 1981 ص 116.
السحراء عانت ولن تزال من تأثيراتها عنها وهي تجارة الرقيق وقد عالج الإسلام هذه الظاهرة وحد من انتشارها فليس هناك في القرآن ولا السنة ولا سلوكات الصحابة من يأمر بالاسترقاق والعكس صحيح، فهناك مئات النصوص تدعو إلى العتق، ولما كانت مسألة الرق شديدة التعقيد في هذه الفترة فقد تدّرج الإسلام في حلها كما تدرج في تحرير الخمر فأبطل الإسلام ما كان متعارفا عليه من أسباب تبيح استرقاق الإنسان وسلم حريته ونستطيع أن ندرك كيف أن الإسلام لم يفرق بين العبود وغيرهم بل رفع شأنهم واعتمد عليهم من أجل تحريرهم لقد كان إحياء لهم وعتق لرقبهم من ظلم الاستعباد فكان أغلبهم من الرعيل الأول من أهل الرسول ﷺ وما معه إلا خمسة عبد وأمرأتان وأبو بكر ﷺ فهم أول من آمن بالرسول ﷺ(8). ومن العوامل الذاتية الهامة التي تميز بها الإسلام تعالجته للجوانب الاقتصادية التي تتعلق بحياة الفرد والجماعة حيث اعتمدت المجتمعات القديمة منها بطبعية الحال المجتمعات الإفريقية على حياة تخلف في جوهرها وخصوصا تلك التي نادي بها الإسلام الذي أقره بدأ اقتصادي تعاوي حام حيث فرض الله الزكاة وجعلها ركنا أساسياً من أركان هذا الدين ولا يكتمل إيمان الإنسان الفرد القادر إلا بأخلاقه ويقول أيضاً: «وفي أموالهم حق معلوم للسائر والمحروم» وهذا إقرار بحق الفرد على غيره وحقوق الغير على هذا الفرد وهو مبدأ المشاركة، وكذلك دعى الإسلام من خلال نصوص القرآن الكبيرة والأحاديث النبوية إلى منع التعامل بالربا، بل حرمهما تحريماً قاطعاً وأمر بإبقاء الحقوق والدينون واستيفاء المكافأة والمزايا في البيع والشراء، كما أن الإسلام بذاته يدعو إلى الظهارة والنظافة وحسن المظهر والهدناء وتجادل ذلك من خلال الاحتلاك والضوء، فالصلاة مظهرًا جوهرياً يتعلق بكيان

(8) نفس المصدر، ص 182.
وسلوك الشخص وطلاقه بخلائه فهو تكسر الغرور والكبرياء عند هذا الشخص، فوالحناء والسجود لا يجوز إلا أنت فقط دون سواء.

خلاصة القول إن الإسلام اشتهر على العديد من السمات والخصائص الذاتية التي تتعلق به كدين وهي كما أشرنا المرتكز الأول في حركة انتشاره والموارد الأساسية في إقناع الآخرين وقائاتهم به كدين سماوي خاتم ل كافة الأديان.

ثانياً: العوامل الخارجية

يمكننا تقسيم العوامل الخارجية التي ساعدت على حركة انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء إلى جزئين رئيسيين هما:

أ - العوامل الخارجية المتعلقة بالعامل الذاتي.

ب - العوامل الخارجية الصريحة.

أ - العوامل الخارجية المتعلقة بالعامل الذاتي:

يقصد بهذه العوامل الأفراد أو الجماعات أو الهيئات والمؤسسات وغيرها التي قامت بنشر الإسلام والدعوة إليه وتحسيب العوامل الذاتية الأنفة الذكر على الأرض الأفريقية فكانت بمثابة صورة حية مترجحة لهذه العوامل قولاً وفعلاً.

وتأتي على رأس هذه الفئات في بداية انتشار الإسلام في هذه المناطق التجار ثم يليهم الدعاء في الدعوات الدينية والهجرة والرياحات والرحلات والزعامات الدينية والسياسية المحلية.

1- التجار:

لقد كان للعرب قبل الإسلام علاقات تجارية مع إفريقيا وكانت بعض القبائل تقوم بهذه التجارة عبر الصحراء منذ أمد بعيد وتطورت هذه التجارة
وأصبحت هناك صلات تجارية كبيرة ومنظمة وفي نشاط متزايد بين أطراف هذه القارة شمالها وجنوبها وشرقها وغربها وعن طريق الهجرة وتجارة القوارب. تلك القوافل التي كانت تأتي من الشمال الإفريقي ومصر وشبه الجزيرة العربية وفي مواسم مختلفة ناقلة إلى إفريقيا ما تحتاج إليه من هذه المناطق وتعود محملة بالبضائع الإفريقية الرائجة في أسواق المغرب والمشرق العربي وقد ألفت إفريقيا جنوب الصحراء هؤلاء التجار في مرحلة ما قبل انتشار الإسلام بها كما ألفتهم وشاهدتهم في صور مغايرة إلا أن حركة انتشاره فقد كان هؤلاء التجار في المرحلة الأولى يمثلون ويجسدون حياة الجاهلية الأولى بكل أبعادها وأشكالها وقد أثر ذلك إلى حد كبير في طرق تعاملهم مع الأفارقة ذلك التعامل الذي كان قائماً على الكبراء والعفوية والتعاليم بكل ما يحمل من جوانب سلبية كما أنهم كانوا يتعاملون بالبركة وأكل الأموال بالباطل وعدم الاهتمام بمصدرها أيّاً كان كما كان أغلبهم يعيش حياة الفسق والفجور كما أنهم كانوا يقومون بإجبار الأفارقة على القيام بأعمال السخرة ويعتبرونهم سلعة رائجة قام عليها ركناً هاماً من أركان حياتهم الاقتصادية الذي تمثل في تجارة الرقيق.

وبدخول هذه الفئة إلى الإسلام الذي نجح في قلب نمط وسلوك معتقدهم رأساً على عقب حيث غير من سلوكيتهم وطباحيتهم ومبادئهم الدينية وقواعد حياتهم فأصبحت كلها تسير وقد المبادئ الإسلامية الشمالي ووفق ما تمليه قواعد الدين الإسلامي ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية فكان التجار الذين تحدثنا عنهم يمثلون فئة من هؤلاء الأفراد الذين غيّر الإسلام نهائياً من أطراف حياتهم وسلوكهم فعندما استمروا في ارتياد القارة بعد إسلامهم فإنهم أصبحوا يمثلون صورة ثابتة ومرتبطة لواقعين متناقضين ولكنهم تجدون في شخصية واحدة وهذان النموذجان هما فئة ما قبل الإسلام وفترة ما بعد انتشاره. فقد أصبح سكان القارة يشاهدون أولئك التجار وقد تغيرت تماماً طباعهم وسلوكهم فقد شاهدوهم الآن وهم يقومون بآداء الصلاة في أوقات محددة بعد أن يقوموا بالوضوء والطهارة ثم يركون ويسجدون على الأرض في خشوع قام، فادركوا
أن هناك بدون شك قوة إلهية عظيمة ورعبية أقوى من هؤلاء البشر الذين آلفوا
مهم حياة الغرور والتكبر واللاعبة وهذا دفعهم إلى التفكير في هذه القوة
العظيمة. كما أنهم شاهدوا هذه الفئة وهي تقوم بأعمال خيرة تمتلك في إخراج
الوفيات والزكاة وتوزيعها على المحتاجين وهذا أيضاً عاملاً مهماً للتفوق لم
يأتله الأفراحه من قبل، ولحل هذا محل تعاملهم بالربا وأكل الأموال بالباطل
وعدم إيفاء الكيل والميزان وكان التجار يجمع بين بيع سلعته ونشر الدعوة.
وفي شرق إفريقيا كان التجار اليمانيون أو الحضارمة كثيري الترد، على
هذه المنطقة وكانوا ينتشرن في بلاد الصومال والحبشة يتناوون ويذكورون إلى
الدين الحنف، إلا أن الفضل الأكبر في نشر الإسلام في الحبشة يعود إلى طائفة
من التجار المسلمين نشأت في مدينة قومر المصرية تألفت من مهاجرين من أهل
السعودية وبعض الهنود والعرب وقد أخذت نفسيها اسم الكارمية أو الكانمية نسبة
إلى بلاد كان حول بحيرة تشاو وإلى الشرق من برناو وكانوا على قدر كبير من
الروع والتقؤ جعلوا من أنفسهم دعاة للإسلام إلى جانب اشتغالهم بالتجارة،
ومما ساعد على نجاح هؤلاء أن الحبشة في القرن السابع عشر قد انقسمت إلى
إمارات تكاد تكون مستقلة وسادات بينها الحروب، وكانت الطبقات الفقيرة من
السفيحين المثلثة بالضربات أكثر الناس تحولاً إلى الإسلام، وقد أسلم على
أيدي الكارمية كثير من قبائل الجلاب والصومال ودخل الإسلام الصومال
وكينيا وتنجانيقا بفضل جهود ونشاط التجار العثمانيين وعن طريق التجار العرب
دخل الإسلام أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر وكان للتجار

(9) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بآفريقيا الغربية، القاهرة،
المؤسسة العربية الحديثة، 1961، ص 45.
(10) عبد الرحمن عابدين، الحبشة والعرب، القاهرة، دار الفكر العربي، د. ت،
ص 150.
(11) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارنة الإسلامية، ج 6، ط 14،
القاهرة مكتبة 1983، ص 207.

102
فضل كبير في نشر الإسلام في بلاد الهوسا حيث تمتد رحلاتهم من ساحل غانا إلى القاهرة وبلغ من أثرهم أن صارت لغتهم اللغة التجارية لأهل السودان العربي.

وبانتشار لغة الهوسا اتسع دائر الدعوة إلى الإسلام(12).

وأصبح التجار المسلمون عبر المراحل المتعددة يمثلون حلقة الوصل بين إفريقيا والدول الإسلامية المجاورة وساعد على ازدياد حركة التجارة وتعزيز هذه الصلات الأحداث السياسية التي عصفت بالمجتمع الإسلامي في أعقاب الصراع أو ما يعرف بالفترة الكبرى حيث زاد عدد المهاجرين المسلمين الفارين من نقمة النظام الأموي والصراع على السلطة إلى شرق إفريقيا(13).

وفي غرب إفريقيا كانت حركة التجارة نشطة وذات بدايات مبكرة وقد كان دور التجار الشماليين والجنوبيين واسعاً ل للغاية فقد كانت هناك حاحلات في الشمال يحتضنها سكان الجنوب وفي مقدمتها الملح والمنسوجات والحبوب كما كانت هناك حاحلات إفريقيا يحتضنها سكان الشمال كالذهب والأخشاب وجلود الحيوانات.

وذكر السلاوي أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلما حاضرة بني مدرار ثم يسرون في قوافلهم إلى غانا وكانوا يقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وفي شهر ونصف إیاباً وكانوا يبيعون ما معهم من الامتعة بالبرت(14).

(12) محمد أحمد حسين، أوثر العواقل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، القاهرة، دار النهضة، مصر، د. ت، ص 67.
(13) عبد المولى الحرير، "الإسلام وأثره على التطورات السياسية والفكرية والاقتصادية في إفريقيا جنوب الصحراء"، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثالث، طرابلس، مركز الجهاد 1989، ص 103.
(14) السلاوي، أبو العباس أحمد الناصري، الاستеча لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء 1954، ص 99.

103
ويقول ابن حوقل في هذا الصدد: "عرف العرب التجارة مع إفريقيا منذ أسعد و لما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلماً زاد النشاط التجاري بين شمالي الصحراء وجنوبها كما زاد النشاط الذي كان يقوم به العرب فقد عن المسلمون بالطرق والأمن ووحدوا المكالمات والمواقف والم_<br>ذكاء التاجر المسلم حوله جواً من الثقة فوجد ترحاباً أنما حلّ وأصبح بيئة مثالية للفكر الإسلامي بما يحمله من ندية وحضارة وختار مساعدته بالجنس من خيرة الناس فهماً ذلك للإسلام فرصة الانتشار بالتجارة" (15).

وكان التاجر المسلم يسلكه وخبرته بالناس وخلقه الإسلامي ما جعله محل ثقة الأفارقة ووفر له ذلك القبول الحسن لديهم وما أن يدخل هذا التاجر قرية وثيقة فسرعان ما بلفت الأنظار بكثرة وضوئه واتباع أوقات صلاته وعباءته التي يبدو فيها وهو خاصع ناجي ربه وحالفه ومنظره في سجوده وسكتيته يضفي عليه من الجمال والجمال ما يحرك فطرة الإفريقي الوثني فضلاً عاماً يتحلى به من سمو عقلي وسلوك حضاري يفرض الاحترام والثقة به على الوثنين ويجذبهم إلى الاقتداء به وتقليدته (16).

كما كان هؤلاء التجار في هذه الأسفاق يحملون مع بضائعهم العقيدة الإسلامية والمعارف الإسلامية بها وكانوا يعملون بمختلف الوسائل على نشر الإسلام وترويجه بين الوثنين (17).

(15) أبو القاسم ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت.، ص 99.
(16) حسني عيسى عبد الظاهر، الدوحة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني في مطلع القرن 12 الهجري، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1981، ص 79.
(17) إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية في القارة الإفريقيا، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتب، 1984، ص 342.
ليس هناك اختلاف كبير بين التاجر والداعي والفرق البسيط بينهما هو أن التاجر يهتم بالتجارة والدعوة معاً، أما الداعي فكان اهتمامه الأول هو الدعوة إلى الدين الحنيف. وكانت غالبية التجار لا يجدون الفقه والفكر الإسلامي وليس منهم من يستطع الفنغر لذل ذلك، لذا نجد الكثيرين من هؤلاء يستطيعون القيام والمدارس والعلماء لتثقيف الناس بأمور دينهم ودنياهم وشرح ما يستوجب شرحا لهم فأصبحوا دعاة لهذا الدين وكان بعض هؤلاء يقومون بتشديد المدارس وإنشاء المساجد وكثيرا ما كانوا يختارون الطلاب المميزين والأفذاذ لرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في المشرق العربي أو الشمال الإفريقي لكي يتلمذوا على أدي علماء الأزهر ومكة والقليتان وطبرق وفاس ومكناس وغيرها من المرافق والمؤسسات الإسلامية الشهيرة ويعودوا قادّة للفكر في هذه البقاع.

وهكذا ومرور الوقت تكوّنت طوائف عديدة من الدعاة، وعندما ازداد إقبال هؤلاء الطلاب على السفر للتعلم في هذه المعاهد الإسلامية الشهيرة والبعيدة قام كثير من التجار بناء بيوت لهم بالشمال يعيشون بها طيلة التحاقهم بهذه المعاهد كما قد هؤلاء التجار ما احتاجه هؤلاء الطلاب من نفقات ومصروفات لغرض الإقامة أو شراء الكتب والمخطوطات(18)، وكان الداعي المسلم يباشر دعوته بهم ونشاط وكان يجد تكريبا باعتباره رجل علم ثقّف في الدين والشريعة الإسلامية وقد درس العديد من هؤلاء المتعلم الدعاة في مدارس القليتان وفاس وطبرق والقاهرة وعادوا إلى بلادهم الأصلية وقد تحولوا إلى دعاة(19).

وكان الدعاة يتفرغون للدعوة والتعليم فكانوا يجمعون حولهم عدد من

---

(18) إبراهيم موسى جوب، ص 30.
(19) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية، ص 53.

105
الأطفال والشباب وسرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم الذين لم ينخرطوا في سلك التعليم وهذا ما ساعد على جذب أعداد أخرى جديدة كل يوم للانضمام إلى الحلقة، والداعي المسلم يستطيع أن يمد القبائل الزنجية غير المتحضرة بكثير من الحقائق المتعلقة بالله وبالإنسان تصل مباشرة إلى القلب والوجدان، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصاً بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية تتيح لهم حق الحماية والمساعدة في البلاد الإسلامية قاطبة من المحيط الأطلسي إلى صور الصين شرقاً، وإذا استطاع المعلم الداعي إقناع الشيخ القبيلة فإن القبيلة كلها تبع شيخها في دخل الإسلام وإقناع هذا الشيخ لم يكن عسيراً فإنه الإسلام يحافظ له على مركزه ومكانه ويمنحه حقاً مقابلاً لالتزامات ليس من الصعب الوفاء بها وقد زاد من تسهيل جهود الدعاء أن الاعتقاد بوجود الله وهو أساس الشعور الديني عند كثير من عبادة الأطفال ويمكن أن يتحول الرئيسي دون عناء إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين وكذلك الحال في بعض العوالم الأخرى في حياتهم، وكانت نظرة الإفريقين العامة وكثير من شرائحهم الدينية قابلة لأن تصطحب بصورة إسلامية وأن يتحول إلى نظام الدين الجديد دون إحداث تغييرات كبيرة.

لقد تعاون الناجح والداعي تعاونًا ملحوظًا وبذلًا مما جهداً ماضياً في سبيل نشر الدين وإعلاء كلمة الحق على الأرض الإفريقية فكما رأينا كثيراً ما كان الناجح يدفع من ماله الخاص ليهيء للمعلم مكانًا يلتقى فيه الناس ويزوده في نفس الوقت بما يحتاجه من نفقات شخصية، ومقابل هذا يعطي المعلم والداعي من جهده فكره ما يهدى الناس ويدفع الجهة المشتركة وهي نشر الإسلام ولقد نجحاً معًا نجاحاً باهرًا في هذا المجال، ولكن دورهما وجهدهما مهما بلغت إعلانها محدودة وتعتبر جهود فردية وقصيدة نشر الإسلام بصورة أوسع يحتاج لوسائل أكبر وجهداً جماعياً منهما وهذا ما ظهر في المرحلة الثانية التي تمثلت

(20) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط 2 القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1963، ص 53.
في ظور الحركات الإصلاحية الدينية أو حركات التصوف وظهورها لم يلغ دور التاجر والدعاوي بل استمر كلاهما يعمل ويؤدي دوره إلى جانب هذه الدعوات الدينية الجماعية.

3. الحركات الصوفية:

لقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار في شبه الجزيرة العربية ومصر والشمال الأفريقية وفي سواها من الدول الإسلامية حتى مطلع هذا القرن، ونحن هنا لسنا بصداء دراسة كل الدعوات الصوفية المتعددة بسنتها وخصائصها لأن ذلك خارج عن نطاق دراستنا هذه، ولكننا سنحاول أن نتبع ونستنتج ما قدمته هذه الدعوات من خدمة للإسلام وما قامت به من دور في سبيل نشره وترسيخه على الأرض الأفريقية وبالتالي استكمال الحلقة أو الدور الذي قام به التجار والدعاعة في المرحلة الأولى وأيضاً كان التبادل والتشابه بين هذه الدعوات أو الحركات إلا أنها جميعاً كانت تتفق على هدف واحد وهو العمل بجد ووهمة على نشر الإسلام وتعليقه في النفوس وإزالة رايتة والعمل على إزالة كل الشوائب التي حاول المتحالفين على الإسلام إلحاقها به.

كانت هذه الحركات الدينية الصوفية الجماعية تمثل نموذجاً آخر من النماذج التي جسدت وترجمت الخصائص الذاتية للإسلام وتنقلتها إلى واقع ملموس فأصبحت تمثل مع سابقاتها من العوامل عاملًا خارجيًا هامًا ذو علاقة مباشرة بالعامل الذاتي بكل أبعاده وقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار

(21) لمزيد من المعلومات عن دور الحركات الصوفية راجع:
والذات في المناطق التي يوجد بها فرغ روحي فوجد الناس في الاتفاق حول شيخ الطريقة وفي الانضمام لحلقات الذكر ما يشع غريزتهم في البحث عن الأمن والأطمثان، وتحقيقاً للتوازن النفسي عند الفرد الإفرادي وسعيه لكمال الأخلاق وسعية لمعرفة طلامس هذه الحياة كان سرعان ما ينضم إلى الصوفين. خاصة وأن هذه الحركات الصوفية التي انتشرت في هذه المناطق والبيئات البسيطة حيث ينتشر الفرغ والبطالة بين الناس عمدت غالبيتها إلى العمل على تصنيف النفس قبل الدخول في الأمور الأخرى فالمرحلة الأولى هيأت الأفكار للدخول للإسلام والمسلم به حيث نشطت حركة الإحياء الديني لتنقل بعد ذلك إلى مرحلة الثورة على النظم الاجتماعية والسياسية وقد شُجع على ذلك ما وجدت هذه الحركات من تأييد كبير عمق ووسع من قاعدة اعتناق وانتشار الإسلام بين الإفريقيين وذلك عن طريق التربية والتعليم والجهاد، وإن كثير من هذه الحركات الدينية قد أخذت الطابع الصوفي من زهد في الدنيا وإعراض عن ملذاتها وزخارفها وتجنيد الروح للغور بالآخرة.

لقد استطاعت هذه الحركات أن تثبت وجودها في هذه المناطق وأن تحول الصحراو القاحلة الميضاء إلى مناطق مزدهرة ومجالات حيوية بعد أن بعثت فيها الحياة والطمأنينة، فكما نعلم أن الانتقال بين روع أجزاء هذه القارة كان مبتعط في كثير من الأحيان صعباً وعراقياً تمثيل في فقدان الطريق أو التعرض للجوع والعطش أو للسلب والنهب الذي كان يقوم به قطاع الطريق والقصور فكان لهجود الحركات الصوفية لإحالة الصحراو إلى مناطق آمنة ما يعجز الإنسان عن التعبير عنه حيث بدأت هذه الصحراو المترامية الأطراف تشهد ظهور

(22) أبو الوفا الغنيمي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، د. ت. 1974، ص 286.
(23) عبد القادر محمود، الفلسفة الصوفية في الإسلام - مصادرها ونظرياتها ومكانتها من الدين والحياة، القاهرة، دار الفكر العربي 1966، ص 9.
(24) حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا، ص 81.
مؤسسات دينية واجتماعية وثقافية متعددة حيث قامت بناء مراكز لها كالزوايا والتكايا والخلاوي ذات سموم وخصائص إسلامية تمثلت في نشاطاتها الثقافية والترفيهية والاجتماعية والاقتصادية فكانت تقدم لهم ولغيرهم ما يحتاجون إليه من مأكل وملبس، كما أنها كانت تضم أمكنة لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة والوعيد والإرشاد بآمور الدين والدنيا، وكل هذه الأمور لم يكن يألها الإفريقي من قبل، كما أن هذه المؤسسات استطاعت أن تحول هذه الصحراء المختة إلى منطقة آمنة وهدوء حيث كانت القوافل التي تجوب هذه الصحراء أو الأفراد يلجأون إلى هذه المؤسسات للحصول على تصريح أو رسائل أو توصيات تحمل أخبار هذه المؤسسات وعندما يتعرض هؤلاء لقطاع طرق يبرزون لهم هذه الوثائق فيتكون سبيلهم وهذا يمثل منتهى القوة التي وصلت إليها هذه المؤسسات. كما كانت هناك نظم ساسية واجتماعية واقتصادية نابعة من تقاليد الإسلام ومبادئه أقرها رواد هذه المؤسسات وهي عند انخراط أحد الأفارقة في الإسلام وانضمامه إلى هذه المؤسسات تعهد لها بتوفر فرص العمل له مقابل إعاشته أو قيامه بتعليم مجموعة من المسلمين الآخرين القراءة والكتابة أو بعض الحرف التي يجيدها.

لقد انخرطت أعداد كبيرة من الأفارقة في الدخول إلى الإسلام والتزامه على هذه المؤسسات بشكل متقطع أو متمركز، وفي فترة قصيرة جدًا، وحنن ندلل على ذلك بما قاله أعداء الإسلام أنفسهم إذ يقول الرحالة جوزيف توسون عند حدثه عن انتشار الإسلام في إفريقيا: "... إذا بلغنا غربي إفريقيا والسودان الأوسط نجد الإسلام كجسم قوي فيه روح الحياة والنشاط وتتحرك فيه عوامل الحماية والإقدام كما كان في أيامه الأولى، فتفرت الناس تدخل فيه أفواجا وتقبل عليه إقبال عجيب شبه أيامه السالفة، نرى فيه أشعة نوره متخذة من شوارع سيراليون وآخذة في إنارة بصائر القبائل المنحلة في وراء الجهالة الأكثرة لحم البقر عند منبع النيجر، وقد كانت أعظم فتحات الإسلام في أواخر السودان وغربه كانت على يد جماعة سليمي الطوية منخفض الأذاج، وفي الأزمان
الحاضرة كان القائم بأمره تاجراً جنايةً، هما وعمر يقدم يدعى (هذا أو نوبيه) كان ذلك الراعي يجده نفسه لشراء لواء دينته من بحيرة تشاود إلى الأقليانوس الأطلانتيكي، ويبحث عن ذلك أن أشرقت شمس الإسلام في سماء هذه الجهة، بأخذناها (25).

وقد كان للطرق الصوفية مجالات غير التي كانت للتجار، فإذا كان التجار ينزلون المدن فقد كان رجال الطرق الصوفية يميلون للقرى والنجوع، وإذا كان التجار بطبعه عمّال يقومون بالبيع والشراء ويسعون للربح فإن رجال الطرق لا يكتثرون للدل ولن يسعون إلا إلى اللفاك، وإذا كان التجار يقوم بنشاطه نهاراً فإن نشاط الطرق الصوفية كان ليلاً فهدوء الليل له سحر وجاذبية وإقبال من الناس حيث تقام حلقات الذكر التي لها جاذبية وتفتت لها الحاضر وتقرب لها البعيد، ومع هدوء تعمّر أصابع الذرازين النجع له في تعرّج الجميع إلى حلقات الذكر (26).

وهكذا كان للطرق الصوفية دوراً كبيراً في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحرا، وقد نشط دعاة هذه الطرق في الدعوة إلى الإسلام ساءدها في ذلك خصائص الإسلام الذاتية من سهولة ويسر فهو دين الفطرة وما يعم به الداخل فيه من مساواة وعدالة وإحترام ذاتي كما ساءدها ما قال به التجار والدعوة وانتشرهم في آداء دورهم وقد تميز التصوف بدور إيجابي خاصة في غرب إفريقيا وهو الاستيلاء على السلطة عن طريق الثورات الإصلاحية في أكبر حركتين للجهاد عرفتا في هذه المنطقة وهما ثورة المرابطين وثورة الموحدين وظهور الشخصيات الإسلامية الإفريقيا (27).

(25) محمد فتح الله الزياتي، إذن تيار الإسلام وموقف المستشرقين، ص 134.
(26) إبراهيم موسي جوـ. الفولانيون ودورهم في نشر الإسلام، ص 49.
(27) عمر أحمد سعيد، دور حركات التجديد الإسلامي في إفريقيا، مجلة بحوث نصف شهري، العدد السادس، فبراير 1990، الخرطوم المركز الإسلامي الإفريقي، ص 121.
4 - دور الدول الإسلامية:

1 - الأدارسة:

بعد معركة فتح التي جرت عام 169 هـ في أيام الهادي تمكّن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الفرار إلى المغرب وهو وأخوه يحيى. وقد نجوا من الوقوع في الأسر وقد وصل إدريس في عام (172 هـ - 780 م) إلى المغرب وكان ذلك في أيام الرشيد وانتقل حول اللسان في صناعة وسميته والمملكة من إقليم شنقيط وبايعوه بالخلافة فأقام دولة الأدارسة التي دانت لها المغرب بأكمله وفضلت هذه الوحدة التي جمعت هؤلاء السكان استغاثتهم.

الدولة الجديدة أن تعمل بهم ونشاط على ترسخ أقدامهم بقوة لا في المغرب فحسب، ولكن حتى في دواخل إفريقية فأعلنا الجهاد المقدس لنشر الإسلام والقضاء على الشرك والمعتقدات البالية والشاذة. فأطلقوا بقوتهم من المغرب إلى الصحراء الكبرى التي تفصل المغرب عن إقليم السودان وأصبحت ديار المليونين في هذه المناطق خاضعة للأدارسة وجزءاً من ممتلكاتهم لذلك زاد تحسين صناعة الإسلام وانتشار بين المليونين في القرن الثالث الهجري بشكل واسع. وكان لإسلامهم تأثيره البالغ على تاريخ المغرب والسودان وقد قام في هذه الفترة تحالف ضمّ قبائل المليونين الموجودة في كل المناطق بزعامة لمبتعثة وأخذت تعمل على التوسع من جديد ولكنها لم تكون من ذلك بسبب تطور قوة الأدارسة وحلفائها بالمغرب فلم يبق أمامهم إلا التوجه نحو الجنوب فرفعوا رايات الجهاد في هذه المناطق وأخذوا يشيرون الإسلام بين القبائل الزنجية المشرفة بكثرة في هذا الجنوب وكانت القبائل للملكة حديثة العهد بالإسلام.

وقد أرادت أن تسهم في حركة الجهاد هذه وما ساعد هذه القبائل على التوجه جنوبياً أن مملكة غانا الزنجية قد بدأت في التفكك مع أن نفوذها امتدّ بصورة واسعة حتى قضى عليها المرابطون وقد مكّن ذلك هذه القبائل من التقدم نحو الجنوب ونشر الإسلام في غرب إفريقية (28).

(28) إبراهيم موسى جوب، ص 65.
بعد ضعف دولة الأدارسة وانقسامها خضعت المغرب للأموريين في الأندلس ثم خضعت بعض أقسامها للفاطميين. وأخيراً عاد الأمويين لحكمها، ويشكل عام فقد ظلت البلاد الغربية منذ قرنين من الزمان غارقة في جروح وصراوات حتى قيام دولة المرابطين في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي.

ويطلق اسم المرابطين على الزعماء والقبائل الذين رحلوا من الصحراء الكبرى في القرن الحادي عشر لبعث الدعوة إلى الإسلام السني وفرضه بالجهاد وأسسوا دولة في الشمال الإفريقي وإسبانيا وقد نفذ هؤلاء المحاربون الصحراويون إلى شمال المغرب الأقصى قادمين من الجنوب الغربي واستقروا هناك، ولقد كان المرابطون والموحدون فرعاً دينياً قبل أن يصبحوا دول(29).

فقد تكونت دولة المرابطين على أيدي صناعة التي كونت حلفاً من القبائل كان من أبرزها جدالة - لمتونة - مسومة - ولمطة - وكانت إقامتهم في القرنين العشرين والعشرين الميلاديين في البيد الممتدة من خط طرابلس الغرب إلى المحيط الأطلسي على الشريط الجنوبي من الشمال الإفريقي عند حدود السودان وبلاد النزج وكانوا يملكون القسم الشمالي الشرقي من السنغال وفي هذه الفترة كان هؤلاء الصحراويون أو على الأقل أولئك الذين كانوا يسكنون في منطقة السنغال والنيجر قد دخلوا الإسلام(30) ولا نعرف كيف بدأ إسلامهم ومن الذي نشر بينهم.

ويُعتبر عبد الله بن ياسين هو مؤسس هذه الدولة وزعيمها الروحي قام

(29) الفرد بل الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ت، عبد الرحمن بدر، بنغازي دار ليبيا للنشر والتوزيع والإعلان، 1969، ص 226 - 227.
(30) نفس المصدر، ص 227.
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى تعاليم الدين السليمة بين هؤلاء المرابطين في صوراتهم الذين حولهم إلى دعاة للدين الإسلامي بين القبائل لؤلؤية بين أهل السودان وتشاد والنيجر وغيرها من بلاد إفريقيا جنوب الصحراء ماتجأ بحركته الإصلاحية يحارب قبائل المغرب الأقصى ممن لا زال على يديه.(31)

أما سبب تسميتهم بالمرابطين فذكر أنه أمام ما لقيه ابن ياسين في دعوته بن صعاب اعترض وعدد صغير جداً من وجوه صناعة المخلصين له ومنهم بو بكر ويحيى أبا عمر وكانا زعيمين لبطون من قبيلة لتمونة القوية وانقطعوا لمعبادته في جزيرة النيل فسمع الناس بأخبارهم وحرصهم على طلب الجنة باللجاء من النار فترددوا عليهم فقد أخذ ابن ياسين وأتباعه يعلمنهم القرآن يستمتعونهم حتى تمكن الإسلام من قلوبهم، فلم تمر عليه أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صناعة فسماؤهم المرابطين للزومهم إبطه. والمكان الذي اعتزل فيه هؤلاء المحاربون وانقطعوا للتفقه في الدين كان يسمى منذ القرن الأول للإسلام بالرباط(32) وهو في مصطلح المرابطين يعني الاستعداد لمواجهة إعلاء الله في حقيته يعني جهاد النفس والمقيم فيه مجاهاذ نفسه، ومن كل المنين لا ت تعدى حقيقة الرباط أن يكون لجماعة من لزهاد انقطعوا لأجل هدف واحد مشترك هو الدفاع عن الدين.(33)

لقد قامت الأرطمة الإسلامية بدور كبير في نشر الإسلام والإصلاح في إفريقيا وذلك لوجودهم على طرقات القوافل التجارية التي أرتبها انتشر الإسلام في هذه المناطق كذلك طرق الحجاج وليس من المستبعد أن يكون ذلك

(31) مراجع عقيلة الغناي، قيام دولة الموحدين، بنغازي، جامعة قاربونس 1988، ص 48.
(32) الفرد بل، ص 231.
(33) عمر أحمد سعيد، ص 122.
سببًا رئيسيًا في نشأتها وتقسم الأربطة الإسلامية إلى نوعين: أربطة ساحلية وأربطة صحراوية ومع مرور الزمن تطورت بعض هذه الرباطات إلى مدن وقرى تجمع فيها السكان نظراً لتوفير الأمن وكسب العيش وطلب العلم، كما مثلت هذه الأربطة حلقات وصل بين مختلف مناطق القارة الإفريقية والمراكز الإسلامية. ولقد نجمت هذه الأربطة دورًا رئيسيًا وفعلًا إذ أصبحت مراكز للدعاوات الإسلامية التي انطلقت من الشمال الإفريقي والعشرين الإسلامي وساهمت فيما بعد علىإقامة الدول والممالك الإسلامية (34).

لقد كان للرابط الذي بنى يوسف بن تاشفين في جنوب السنغال أثر كبير في نشر الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا كما كان لغيره من الرباطات التي نشأت قبله في عهد ابن ياسين بين قبائل سيناء دور واضح في هذا المجال.

بعد أن أرسى المرابطين دعائم دولتهم ووطدوا أركانها انطلقوا داعين ومُجاهدين بقيادة زعمهم ابن ياسين لمقاتلة برقوا وحلفائها لأنهم يُدينون بمذهب مبتعدة وملحدة حيث نشر بينهم صالح نور طريق دينته الجديدة بعد أن أدى النبوة وانسلخ عن آيات الله وأقام شعائر جديدة للصلاة والصيام والعبادة تختلف تماماً عما جاء فيه الإسلام وقد نمت حركته هذه وانتشرت ولم تفلح قوات الأدارسة والأمويون والفارسية من القضاء عليها حتى جاء المرابطون في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري فانصروا على هذه البذعة وتمكن بعدهم الموحدون من القضاء على البقية الباقية منهم في القرن السادس الهجري، كما قضى المرابطون على المنشقين على الإسلام من قبائل مصمودة (35).

(34) عبد المولى الحربي، الإسلام وأثره على التطورات السياسية والفكرية في إفريقيا، ص 101.
(35) أنظر، الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 48، والفردي بلص 180.
وفي عهد المرابطين وجهت حملات نحو السودان لانتشار الإسلام استشهد في إحداهما يحيى بن عمر (1055 م) فعين ابن ياسين مكانه أخوه أبو بكر بن عمر الذي قام (1057 م) فغزى السوس واستولي على تار ودنت هذه المقاطعة البعيدة يبدو أنها منذ أيام الأدوار قد أفلتت من سيطرة حكومات الشمال وقبيت مستقلة، وحوالي (1061 م) سلم الأمير أبو بكر قيادة الجيش والبلاد المفتوحة إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ليسؤي الخلافات الناشئة بين قبائل صنهاجة ويتبع دعوته إلى الإسلام في بلاد السودان(36).

وقام يوسف بن نزلاً على رأي أهل الأندلس واستجابة لما يأمر به الذين الإسلامي بالقضاء على دولة الطوايف التي حاربت الإسلام واستباحت دماء وأموال المسلمين وأطلعوا فيهم النصارى بعد أن استفتي أهل الراي والفقه بالمغرب والأندلس كما استفتي أبا حامد الغزالي إمام المشرق الإسلامي وقد أفقيه الجميع بوجوب القضاء عليهم لأن وجدوهم خطر على الإسلام والMuslims(37).

وقد تمكن من القضاء عليهم وعلى دولتهم وإدخالها في حظوره بعد أن كانوا يعرقلون حركة انتشار الإسلام في مناطقهم وفي مناطق جنوب الصحراء الإفريقية. وكان يقول في هذا الصدد: 

ولكن عشت لأعهدان جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه القتلة إلى المسلمين ولأماليها عليهم خيالاً ورجائل لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عنهم برخاء العيش إما هم أحفاد فرس بروضه وليستساه، أو سلاح يستبديه، أو صريح ينسى دعوته(38).

لقد استمرت حركة المرابطين في الجهاد في غرب إفريقيا جنباً إلى جنب

(36) الفرد بل، ص 232.
(37) الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 49.
(38) عبد الواحد المراكش، المعجم في تلخيص أخبار المغرب، ط 1، القاهرة، مطبعة الاستقامة 1946، ص 163.

115
مع تغلغلهم السلمي فيها، فبالرغم من أن مملكة غانا التي سقطت في أيديهم قد أعادت سلطتها بعد حوالي عشيرة أعوام فقط من سقوطها، فإن دخول الإسلام فيها قد أدى إلى انتشاره في الأقطار المجاورة أضعف إلى ذلك أن المرابطين أنفسهم قد سعوا إلى نشر الإسلام سلمياً في هذه المنطقة وذلك لرجوعهم إلى الزوايا بعد انهيار دولتهم حيث شرعوا في نشر تعاليم الإسلام في هذه المناطق.

ج - الموحدون:

مرت إمارات ودول بلاد المغرب والأندلس بظروف اجتماعية ودينية وسياسية في الفترة التي سبقت قيام دولة الموحدين أدت إلى إضعافها بل وأدت في النهاية إلى إسقاطها على يدي الموحدين الذين تهبت لهم الأسباب والعوامل لإقامة دولتهم، وقد ساهمت هذه الحركة في ثورة الإصلاح الديني الذي قام به مؤسسها عبد الله بن تومرت وكما اختلقوها في تحديد مبادئ اختلافوا أيضاً في تحديد نسب وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعد يصرون على أن جدهم عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول ﷺ.(39)

ولقد بدأ ابن تومرت نشاطه بالدعوة إلى طريق الحياة في عهد الرسول فسافر عام (1110) إلى القاهرة ودمشق وبغداد والحجاز وترحل داخل بلاد المغرب والأندلس وأتاحت له هذه الرحلات الطويلة فرصة دراسة أحوال العالم الإسلامي وأدرك ظروف الإنهيار والتدهور التي تعيشها دول إمارات بلاد المغرب، وكان كل ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطلوع في القضاء على أنظمة الحكم هذه والتخطيط لإقامة خلافة إسلامية قوية تستولي على مقاليد الحكم لا في المغرب فحسب بل والعالم الإسلامي كله، وهو لم يتأثر بأي تيار من النيارات الفكرية التي كانت سائدة في زمانه بل أخذ منها فقط ما يناسب مع

(39) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، بنغازي، جامعة قارونس، 1988، ص 36.
شخصيته ويعتقد ويتلاهم مع أهدافه(40).

وفي عام 1125 اتبع وآنجل أطلس حيث أعلن نفسه إماماً للأمة الإسلامية واتبع نفسه بالمهدى الذي ينتظر المسلمين.

أما عن أسباب تسميهم للموحدين فيعود إلى أن زعيم هذه الحركة قد اتخذ لها شعار التوحيد وأتباعه هم الموحدين لأنه ينفي الصفات عن ذات الله تعالى وهو في هذا متأثر بالمتزيلة، فكان موحداً على طريقتهم. وبعد أن أطمأن على انتشار تعاليمه ورسوئه بين أتباعه بدأ في مواجهة دولة المرابطين وحدثت معارك عديدة بين الطرفين كان النصر حليف الموحدين.

وهوذا أفادت هذه الحركة في النهاية إلى قيام دولة الموحدين التي بسطت سلطانها على شمال إفريقيا والصحراء والأندلس أكثر من عشرين عاماً ولا يمكن إهمال أثرها في الإصلاح في غرب إفريقيا وذلك لأن منشأ الحركة كان في القبائل الصحراوية ومعروف أن هذه القبائل تسيطر على طريق التجارة المتجهة إلى غرب إفريقيا ولا بد أن تكون آثار هذه الدولة القوية قد انتقلت إلى بلاد السودان فقد ذكر أن هناك اتصال بين مملكة كنام وشمال إفريقيا في عهد الموحدين والعصور التالية لهم كما أن هناك تشابه واضح بين دعوة الموحدين والدعوات الأخرى التي ظهرت فيما بعد في غرب إفريقيا عند المختار الكتني والشيخ عثمان دان فوديو وعمر الغوني وذلك عن طريق الإصلاح والمنهج ونلاحظ بصفة خاصة فكرة الهجرة التي وجدت لدى كل منهم بالإضافة إلى فكرة الاشتراك في الشرع وعدم الالتزام بفهمنية والرعاية الروحية(41).

لقد أدرك الموحدين ما سبب للمرابطين أن قاموا به من جهود في سبيل نشر الإسلام في جنوب الصحراء وذلك عندما بدأت حركة التصوف تنمو وتتطور

(40) نفس المصدر، ص 38.
(41) عمر أحمد سعيد، دور حركات التجديد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص 125.

117
في هذه الأحوال، حتى تمكن من السيطرة على السلطة فيها ومن أشهر الطرق الصوفية التي انتشرت في عهد الموحدين في إفريقيا، الطرق القادرية التي تقع في قلب الصحراء مقرًا لها حيث انتمى تاكيودا، اعتمدت من مدينة تاكيودا، لتصبح نافذة دعاء هذه الطرق بين الشعوب الزنجية، وانتهجت الملوك الوثبة على طول الطرق التجارية وصارت مدينة كانو في غرب إفريقيا مركزًا لنشاط رجال الدين وقاموا بنشره على نطاق واسع في أقصى الجنوب والغرب، وامتدت حركة انتشار الإسلام نحو حوض السنغال ثم اتجهت إلى الجنوب الشرقي حتى منطقة الفولتا ثم امتدت نشاطها إلى شرق إفريقيا والقرن الأفريقي.

وخلال القول إن حركة انتشار الإسلام في عهد الموحدين ساهم فيها إلى حد كبير تشجيع هؤلاء للفكر الصوفي الذي انتشر بدوره في غرب إفريقيا ونشرها من زنجبار إلى غينيا بفضل الدعوة الذين يتبينون إلى هذه الطرق والذين تحدث أرنولد عن سماتهم وطريقتهم في نشر الدين والدعوة له إذ يقول: «كانت نشاط هذه الجماعة ذات طابع سلمي للغاية يعتمد على الإرشاد كما يعتمد على التأثير ونشر التعليم».

5- الهجرة:

لقد لعبت الهجرة الإسلامية إلى داخل إفريقيا دورًا كبيرًا وهماً في نشر الإسلام في هذه المناطق منذ بداية الدعوة لهذا الدين التي أخذ سيدنا محمد يشتهي بين مشركي قريش في مكة وقد تعرَّض هو وأصحابه إلى الاضطهاد والشدة، فصرح الرسول الكريم بهجرة المستضعفين وكانت الحبشة من أقرب البلاد.

---


(42) أرنولد (نوماس) الدعوة الإسلامية، ت حسن إبراهيم حسن، القاهرة 1971، ص 365.
المسيحية التي يربطها بالعرب تاريخ مشترك ويحكمها ملك مسيحي، فإلى جانب قريبا كان السفر إليها أهون أمراً من اكتشاف الجزيرة شماليًا أو جنوبًا عبر قبائل معادية، وكان عدد المهاجرين الأوائل أي الهجرة الأولى لا يزيد على أحد عشر ومنهم عثمان بن عفان ومعهم بعض زوجاتهم ثم تتبع المسلمون فيما يطلقون عليه الهجرة الثانية وكان فيها جعفر بن أبي طالب ومنهم من خرج بأحله معهم ومنهم من خرج بنفسه فكان من لحق بآرذ الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً عدا زوجاتهم وأبنائهم وتطورت الهجرة حتى بلغت ما يقارب الستمئة مسلم(44) وهؤلاء المهاجرون لم يهاجروا جميعاً من مكة بل إن فوجاً منهم قد هاجر من اليمن برئاسة أبي موسى الأشعري وقد قدر عددهم بسبع وخمسين رجلاً، وهناك من الأراء أن يحاول أن يجعل الدفعة الأولى من المهاجرين بعثة إسلامية لقبول المهاجرين وقد أقام هؤلاء بالبلاد الأكسومي فترة قصيرة قدرت بشهرين أو تزيد قليلاً وقد أرسل النجاشي وفدًا إلى الرسول ﷺ بعثة ليثبت من حقيقة هؤلاء ويقال إن الوفد الحبشى أسلم ويعتبر هذا أول تأثير مباشر لحركة الهجرة في نشر الإسلام، وقد تأكد النجاشي عن طريق المعلومات التي وصلته عن طريق هذا الوفد بصحة الأخبار عن النبي محمد ﷺ، أخذ للمسلمين بالهجرة إلى بلاده فأتذن النبي للمسلمين بالهجرة بعد أن اطمأنا إلى حمامة النجاشي لهم فتدفقت الهجرة الإسلامية إلى الحبشة حيث كانت تعتبر أقدم العرب منذ زمن بعيد وحيث استقر بها إخوان لهم من قبل يشتغلون بالتجارة ولم يمنع الإسلام من اعتنقوه من تجار العرب من مزاولة حرفهم الأولي فالهجرة إلى الحبشة والعلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل الإسلام استمرت من بعده وحمل المهاجرين والتجار الجدد إسلامهم معهم ومن ثم أخذ الإسلام يظهر ويتشر بالحبشة ويتغلغل في المناطق القريبة لها حينما سار التجار والإسلام الذي وحّد بين العرب وحّد من خصوماتهم وأوقف غزواتهم

Moneill (V) L' Islam en Afrique Noire Paris, 1958, P. 22. (44)
التي كانوا يشُتَّونها على بعضهم حرًام أيضاً أن يسترق مسلم مسلمًا. وبذلك لم يكن هناك مخرجًا أمام أفراد الرقيق وسكان الصومال والحبشة وكذلك السودان الذين تعرضوا دائمًا لغزوات النجاسين إلا الارتماء في أحذان الإسلام الذي يمنع ذُل الأسر ويقيهم مهانة الرزق والعبودية فأخذ الإسلام ينتشر بينهم بزواجهم مع بعضهم ومع العرب والمسلمين المهاجرين إليههم والنازلين بينهم.

وقد حاول بعض المستشرقين أن يرجعوا أسباب الهجرة هذه إلى العامل الاقتصادي وهو التجارة واكتساب الرزق في الحبشة لأنه حسب وجهة نظرهم أن مكة وأهلها من قريش قد سدوا أبواب الرزق أمام هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام ومنعتهم من الاتجار معها متكرين على هؤلاء المهاجرين من أن يفتنوا في دينهم. 

وقد ناقش أحمد الشامي هذا الرأي مناقشة جادة حيث فقد هذا الزعم وأوضح بالدليل أن الدوافع المادية ورفع مستوى المعيشة لم يكن الشغل الشاغل لهؤلاء وأمهتهم لهحرًا على التجارة مهددة بالكساد أو من أجل أسواق جديدة بدلاً من التي سُنَّت في وجوههم، ولكنهم تركوا أوطانهم وذويهم بعد أن تحملوا ألوانًا من العباد والاضطهاد وهاجروا خوفًا على دينهم الذي حرصوا عليه أكثر من حرصهم على تجارتهم ومكاسبهم وأن الرغب الحقيقي من وجود هؤلاء المهاجرين في الحبشة هو الجانب السياسي والجانب الإعلامي لنشر الدعوة الإسلامية بطرق غير مباشرة وبطريقة ودية. فوجودهم على أرض الحبشة يدفع الأحباش إلى الالتفاف حولهم للموقف منهم على أسباب مجتهدين ودوافع هجتهم وفرارهم من بلادهم ومعرفة الدين الجديد الذي يؤمنون به.

Arnauld (H), L'Isam et la politique, Paris, Payot, 1923, P. 12. (45)
وقد هذا في حد ذاته مكاسباً إعلامياً للإبلاغ عن الدعوة الإسلامية والدليل على ذلك الحدث الذي دار بين الناجشي وجعفر بن أبي طالب في شأن المسيح وفكيك الناجشي حتى ابتليت لهجمه حينما سمع آيات الكتاب الكريم ودخوله الإسلام. ويوضح ذلك في قوله تعالى: "لتنجدتم أشد الناس عدواً للذين آمنوا اليهود والذين أشركون ولتنجد أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إن نصارى ذلك منهم قسيس ورهبانا وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفض من الدموع مما عرفوا من الحق، يقولون بني آمنا فاكتبتا مع الشاهدين" (سورة المائدة: 47)[47]. وقد تعاقدت بعد ذلك مجموعة من الأحداث على الدولة الإسلامية وساعدت على الهجرة منها حروب الردة والفتنة الكبرى والخلافات المذهبية، ولم يكن الهداية من الردة بين بعض القبائل العربية هو الخروج عن الإسلام بقدر ما كان الوقوف ضد سيطرة قريش وكانت ثورة القبائل المرتدة مركزة في طيء وغطاف البحران وعمان واليمن وحضرموت وقد أجبرهم أبو بكر الصديق على الخضوع من جديد للدولة الإسلامية ولكن البعض منهم هاجر إلى شرق إفريقيا والحبشة ووصل البعض منهم إلى أقاليم السودان الأوسط حاملين معهم إسلامهم، كما قامت بعض القبائل الباقية ومنها قبيلة بني مخزوم التي أصلحت نحو اهتمام عمر بن الخطاب فاضطر معظم أبناؤها إلى الهجرة فراراً من سياساته المشددة معهم فهاجر أحد كبار رجالهم وهو ود بن هشام المخزومي على رأس عشيرته إلى الحبشة واستقر في أخفض مناطقها وهي منطقة شوا وأسس دولة بني مخزوم بها.[48]

وقامت الفتنة الكبرى على أيام عثمان ونتلى حروب الجمل وعبد الله بن

(47) أحمد الشامي «نظرات في هجرة المسلمين إلى الحبشة» المؤرخ العربي، العدد 16 بغداد، 1981، ص 100-105.

Rymond, (S) Etudes sur L'Islam en Afrique, Paris, 1946, P. 70. (48)
الزبير وظهور الخوارج واضطهاد آل البيت على أيام الدولتين الأموية والعباسية
كل ذلك دفع الأطراف المغلوبة سياسياً وعسكرياً إلى طلب الهجرة إلى الحبشة
التي كانت بعيدة عن متناول السلطة الأموية وقد تركت هذه الهجرة عقب موافقة
كريلاء خوفاً من بطش بني أمية(49).

وقد فز زعيم العلويين الإمام زيد بن الحسن بن علي ومعه أنصاره
فقضت جماعة منهم شواطئ شرق إفريقيا حيث وسعوا من رقعة أراضيهم بها
بفضل ما كان يتوالى عليهم من المهاجرين من شبه الجزيرة إلا أن احتلال الدولة
الأموية لجزر هذة دللنا على اتجاه موجات أخرى من المهاجرين إلى شرق
إفريقيا فوجئت الدولة إليها الجزء الأكبر من قواتها وجعلت همها أن تراقبهم
مراقبة دقيقة.

ثم توالت الأحداث والتي تمثلت في خروج الحجاز على الدولة وقد أمَّ
المسلمون القاطنون على الساحل الغربي للبحر الأحمر عبد الله بن الزبير بما
يلزمهم من مؤن وسلاح حتى استطاع الصعود أمام الدولة الأموية، كما وأن كثرة
قيام اليهودين بالخروج على الحكم الأموي تعبير أبلغ تعبير عن مدى سخطهم
وعمَّا يلاحقونه في ظل هذه الدولة.

كل هذه العوامل مجتمعة دفعت بالكثير من أهل الحجاز واليمن إلى
الهجرة حيث كان يهاجم أسلافهم، وكانت هذه الجماعات تقصد الساحل حيث
المدن الأهلة بالسكان والمزدحمة بحركة التجارة أو إلى الشريط الصحراوي
الذي يلي الساحل، ثم جاء دور الأمويين إذا حلّت بهم الهزائم وقضى العباسيون
على دولتهم عام 132 هـ وطاردوهم وفر كل كثير منهم إلى إفريقيا شمالها
وشرافها. ولم يكد العباسيون يتلهم من بني أمية حتى التفتوا إلى الشيعة
والخوارج. لقد وجد هؤلاء ملاداً لهم في شرق إفريقيا فوفد كثير منهم من

(49) عبد المولى الحريرٌ "الإسلام وأثره على التطورات السياسية" ص 106.

122
سواحل الخليج العربي واليمن إلى شرق إفريقيا في هجرات متتالية وقد هاجر
مجموعة من الخوارج عام 67 ه ونزلوا في منطقة لامو حيث كان هناك حوالي
عشرة آلاف مسلم ويؤكد هذا العدد الكبير في ذلك الوقت أن الإسلام قد بدأ
بالاستقرار والانتشار في تلك المناطق منذ زمن مبكر (50) وفي النصف الأول من
القرن الثالث للهجرة هاجر مجموعة كبيرة من الزيدية بسبب الخلافات بين
حدثت للشيعة واستمرت هذه المجموعات في المنطقة التي قامت عليها فيما بعد
مدينة مقدشير.
وفي منتصف القرن الرابع الهجري وصلت هجرة أخرى أكبر من سابقاتها
وافقت إلى الجنوب منها ويرجع سببها للمهجوم الذي قام به المغول ودخولهم
شيراز مما أضطر حاكمها إلى الخروج على رأس ألف وثمانين رجل ركبوا البحر
نحو ساحل الزنج وتمكنوا من فرض سيطرتهم على الساحل وأسسوا مملكة
الزنج التي أخذت لسلطانها الكثير من المراكز والجزر (51).
وتذكر هذه الهجرة الأخيرة من الهجرات التي قام بها مسلمون فرس غير
عرب، وفي جنوب إفريقيا انتشر الإسلام عن طريق جماعات مهاجرة من أهل
الملايو وأندونيسيا وسيلان وشبه القارة الهندية كما استطاع هؤلاء المهاجرين
تأسيس مجموعة من الوكالات التجارية في ساحل شرق إفريقيا مثل مقدشير
وماليزي ومعسه وبمازنجبار وموزمبيق (52). كما حدثت هجرات في فترات
متأخرة من جزيرة سومطرة والخليج الفارسي حوالي منتصف القرن الثالث عشر
الميلادي (53).

(50) أحمد البغدادي، "انتشار الإسلام في شرق إفريقيا"، ص 233.
(51) نفس المصدر، ص 234-235.
(52) شارل أندره جوليان، "تاريغ إفريقيا"، ت طلعت عوض أباظة، القاهرة، دار
التضمان المصرية 1968، ص 77.
(53) عمر طلعت زهرا، "الإسلام في مدغشقر"، مجلة الأزهر، المجلد 22 ج 6، ص 123.
أما في غرب إفريقيا فقد لعبت حركة التجارة والهجرة كهما رأينا دوراً بارزاً في نشر الإسلام في مناطق جنوب الصحراء وقد تركزت هذه الهجرات حول بحيرة تشاد والنيجر ثم مالي والسنغال وغيرها وعندما اضحت دولة مالي وغيرها من الامارات الإسلامية في منتصف القرن السادس عشر حمل لواء الدعوة إلى الإسلام ونشره قبائل إفريقة مثل الفوّال والبوهان حيث قامت هذه بهجرات جماعية في حوض السنغال مرفوعة بدوافع دينية وسياسية في نفس الوقت بغرض توحيد أرض المسلمين في غرب إفريقيا، وقد توجهت هذه الهجرات نحو الشرق إلى نيجيريا وتشاد وجنوباً إلى غينيا وتمركز نشاط هذه الجماعات في إنشاء دور التعليم وإنشاء المدارس بغية نشر التعليم الديني وتمكنت القبائل المهاجرة إلى غينيا من تأسيس دولة إسلامية على مبدأ الشورى استمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر.

لقد كانت كل هذه الهجرات وغيرها موردًا لا ينضب معينه من الدماء التي تسري في شرائين حركة انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء حيث ساهمت مساهمة فعالة مع غيرها من العوامل في إرساء دعائم هذه الحركة ونجاحها في فترة وجيزة من عمر الزمن.

6 - دور الرحلات والجغرافيين المسلمين:

كان للعرب فضل كبير في كشف القارة الأفريقية حيث ارتادوا سواحلها وتوغلا في صحرائها قبل أن تصل إليها الحملات الكشفية البرتغالية بعدة قرون كما تمكنوا من الوصول إلى غرب هذه القارة ووسطها، وقد قام هؤلاء بإعطاء معلومات كثيرة وقيمة عن مجالات إفريقيا، صحرائها وغاباتها وجبالها مما شجع

القاهرة مطبعة الأزهر، 1950، ص 556.

(54) عبد المولى الحرير، ص 113.

(55) نفس المصدر.

124
المسلمين على ارتيادها ونشر الإسلام في هذه البيئات، كما قام هؤلاء الرحلات أيضًا بإمدادنا بالمعلومات عن هذه المناطق بعد انتشار الإسلام وتشكيل الدول والممالك الإسلامية بها ومدى التقدم والتطور الذي حدث بها نتيجة لانتشار الإسلام والمؤثرات الثقافية والحضارية والاقتصادية التي أحدثها خلال مراحل انتشارها فيها.

ومن أهم الرحلات المسلمين الذين جابوا القارة وكتبوا عنها السعودي الذي ولد في بغداد وأمضى عشرين عامًا متجلولاً ورحاً حتى وفاته عام 956 م. وقد زار مدغشقر وتوغل في المناطق المحيطة بها وترك لنا وصفًا جيدًا في كتاباته عن مناطق السودان الغربي وحركة الاتصال بين أجزائه والصحراء الكبرى عن طريق التجارة واللذات تجارة الذهب(56).

أما الرحلة الثاني فهو أبو القاسم محمد بن حوقل الذي ظهر في القرن العاشر الميلادي حيث قام بداية من عام 977 بعدة رحلات إلى آسيا والأندلس ثم بعد ذلك توجه إلى القارة الإفريقية من الشرق إلى الغرب وقدم لنا معلومات قيمة عن بلاد الحبشة والبجة وسكانها كما كتب وصفًا عن سكان زيلع والنيل الأبيض وأرض الزنج، كما زار النجف واعتقد أنها امتداد لوداد الينيل، وفي وصفه أعطاه صورة عن المعادن المستغلة والنواحي الطبوغرافية للأماكن والأراضي التي مر بها كما رسم خرائط لهما، وقد ذكر أن أهالي زيلع كانوا يديثون بالسيحية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وكان يرجع ذلك إلى أنهم كانوا تحت سيطرة الحبشة ثم تحول آثاره إلى الإسلام في القرن الثاني عشر وألف ما يشبه رابطة إسلامية قوية ضمت إمرة أوفات وهاديا وداود، كما وصف لنا الطريق الذي قطعه من الفسطاط إلى الإسكندرية ووصف لنا أيضًا بلاد المغرب والسودان الغربي (57).

(56) شوفي الجمل، تاريخ كشف إفريقية واستعمارها، ص 48.
(57) عبد الرحمن زكي ص 46.

125
ويعتبر أبو عبيد الله البكري (1028 هـ - 1094 م) من الرحلات المسلمين الذين لعبوا دورًا بارزاً في هذا المجال وهو من عائلة عربية كانت تعيش بإسبانيا وبالتحديد من قرطبة، وكتب عددًا من المجلدات باسم المسالك والممالك معتدلاً على ما توفر من وثائق الأرشيف الرسمي بقرطبة حيث أفادنا بمعلومات عن بلاد المغرب والسودان، ويذكر أن تجارة القوافل التي كانت تسير من طرابلس في اتجاه المناطق الإفريقية عبر مدينة جادو وكان أهلها يجيدون التحدث باللغة الكامنية إلى جانب اللغة العربية (58). وذكر لنا في كتابه "المغرب في ذكرى بلاد إفريقية والمغرب" وهو جزء من كتابه الكبير "الممالك والممالك" أنه حدث قحط في عام من الأعوام في بلاد غانا وقد حدث لهم الفرج نتيجة دخول ملكهم الإسلام، بناء على نصيحة داية مسلم زار بلادهم وتبعته بقية عائلته وقبيلته والقبائل الأخرى (59) أما الجغرافي محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالإدريسي فهو رحالة عربي من عائلة عربية بالأندلس هاجر إلى شمال إفريقية وقد ولد الإدريسي بمدينة سبها سنة 1100 م ودخل في خدمة ملك صقلية روجر الثاني وكان مغزماً بالرحلات طيلة حياته، ترحل إلى إفريقيا عدة مرات حيث كلفه الملك روجر بجمع المعلومات الجغرافية والعلمية عن هذه المناطق وقد ألف لنا كتابين هامين هما "المرشد في احتراق الأفواه" وكتاب "المغرب وأراض السودان ومصر والأندلس" قدم فيما وصفناه شبيقاً لهذه المناطق ودروهبها استفاد منه المسلمون فيما بعد عند تردهم لشن الإسلام بها (60).

أما الرحلة محمد بن أحمد بن جبير فرغم أنه قد قام بثلاث رحلات ما

(58) محمد المبروك يوني، تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الإفريقية، 1952، ط 1، طرابلس 1988، ص 21.

(59) أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكرى بلاد إفريقية والمغرب، بغداد، مكتبة المشتية، ط 178، ص 49.

(60) شوفي الجمل، ص 49.

126
بين أعوام 1182-1185 إلى مناطق مصر وساحل البحر الأحمر والبحار وقوص وحازب إلا أنه لم يتوغل داخل القارة ولكنه قدم لنا وصفاً شيفاً للطرق الموصلة إليها، كذلك فعل أيضاً الرحالة العربي ابن فضل الله العمري فهو لم يزر إفريقيا ولكن استفاد ممن سبقوه وأعد دراسات جادة ضمنها لنا في كتابه الضخم مسالك الأبصار في الممالك والأمصار (61).

أما عبد الله محمد بن بطوطة (1304-1377 م) فهو من أشهر الرحالة المسلمين حيث ولد في طنجة وطاف معظم بقاع العالم القديم في عهده، وله ثلاث رحلات هامة في الفترة (1325-1354) ففي الرحلة الأولى زار تلمسان وسوسية والإسكندرية وقوم ووصل إلى سواكن ومنها تابع إلى اليمن ثم عاد إلى شمال إفريقيا الشرقي ووصل إلى زيلج ويقول عنها: "أن سكانها طائفة من السودان شافعية المذهب ولهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلج وآخرها مقدسيو وهي مدينة كبيرة لها سوط عطمه (62) وزار مقدسيو وذكر أن أمها يحترمون الدين والحج حيث قال أنه عندما أتي من الحج إلى مقدسيو استقبل بهفوة بالغة من قبل سلطانها حيث ملك في ضيافته عدة أيام، كما زار بعد ذلك كلها وغيرها من بلاد شرق إفريقيا وتحدث عما رأه من مظاهر الحضارة في هذه الجهات (63). أما رحلته الثالثة فقد كانت في غرب أفريقيا فقد أحيا من الأندلس إلى مراكش وسافر إلى مكناس وفاس وتابع رحلته إلى السودان الغربي ووصل إلى سجلماسة ثم زار بعض السلطانات التابعة لملك مالي ووصل إلى تمبكتو واتجه شرقاً حيث زار تاكادا أكبر مدن الطوارق وأخيراً رجع إلى فاس بعد أن دوّن انطباعاته وملاحظاته حول هذه المناطق الهامة.

(61) نفس المصدر.
(62) محمد بن عبد الله بن محمد بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1966، ص 158.
(63) نفس المصدر، ص 170.
أما حسن الوزان الملقب بليون الإفريقي فقد ولد في غرناطة عام 1493.

وقد غادر والدته وهما من المغرب غرناطة إلى فاس وكانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فوجد مهجلاً مناسباً للأطلال والثقافة وأظهر ذكاءً خارقاً وعمل في عدة وظائف وبدأ رحلاته صحيحة التجار وقد أعطته هذه الرحلات معرفة واسعة بالبلاد الإفريقية التي زارها وأمدها بمعلومات قيمة عن دواخل إفريقيا لم تكن معروفة من قبل، وزار تمبكتو ووصفها وصفاً شيقاً وقد كانت في ذلك الوقت في قمة مجدها ثم زار مملكة مالي وكانت في حالة سبة بسبب الحروب الدائرة فيها وزار بلاد الهوسا وبورونو وأمدها بمعلومات قيمة عن إفريقيا(6) وبعد هذه الفترة ظهر عبد الرحمن السندي (1596-1655) وهو من أسرة سودانية ولد في تمبكتو وعين إماماً في جنوب وكانت في ذلك الوقت من مراكز العلم ثم سافر بعد ذلك إلى تمبكتو وشغل فيها عدة وظائف مدنية وحكومية وألقف كتابه المشهور "تاريخ السودان" حيث تحدث فيه عن الدول التي قامت في السودان الغربي وأمدها بمعلومات قيمة لا غنى للباحث في تاريخ هذه المناطق من الرجوع إليها وإلى مثيلاتها.

ب- العوامل الخارجية الصفرة:

يقصد بها تلك العوامل التي لا علاقة لها بالإسلام كدين من خلال خصائصه وسماته ولكنها عوامل مادية وطبيعة لعبت دوراً رئيسيًا زهاماً في تسهيل حركة انتشار الإسلام وكانت عاملاً مساعداً في هذا المجال، وهذا العامل الخارجي يتمثل في عنصرين رئيسيين هما الموقع والمناخ.

وبالنسبة للموقع فإن القارة الإفريقية تقع وسط قارات العالم مما جعلها تنتمي عن القارات الأخرى بسهولة الاتصال بها، كما أنها تمثل أكثر قارات العالم القديم بعد قارة آسيا كما أنها تمثل خمس باباس الكورة الأرضية ويبرزها

Jaque (P) Les voyages en Afrique, Paris, Matin, 1923, P 64. (64)
خط الاستواء مما جعل التوازن قائماً بين فصول السنة فيها، كما أن القارة تميز بوجود البحار التي تحيط بها كذلك وجود النهار فيها بكثرة حيث يوجد بها أطول نهرين على سطح الكرة الأرضية هما نهر النيل ونهر النيل اللذان يمثلان طريقين رئيسيين تواصلهم إلى البحار والمحيطات المحيطة بالقارة والنهر الأول يبلغ طوله (640 كم) لهذا يعتبر أطول نهار العالم، يليه النهر الثاني الذي ينبع من مرتفعات Loma Mountain في غرب إفريقيا ويبتدء عبر ست دول (65).

ومن الظواهر الطبيعية المميزة أيضاً لهذه القارة وجود الصحراء الكبرى التي تفصل بين شمالها وجنوبها وتعد أكبر صحراء في العالم لاحتلالها مساحة تقدر بـ 5.5 مليون كم² وتعد من البحر الأحمر في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب (66) وهذه الصحراء المتراصة الأطراف والمتميزة بكثرة وتحرك رمالها والتي تربط بين طرفية القارة الشمالي والجنوبي قد يبدو للوهلة الأولى أنها تشكل عقبة أو مانعاً يحول دون حركة الاتصال بين هذه الأجزاء. ولكن المنتبع لالتاريخ وحركة الاتصال بهذه المنطقة يلاحظ أن على العلم فإن هذه الصحراء كانت ولا تزال عامل وصل ولم تكن عائقاً كما يقول كاني وهو أحد المتخصصين في هذا المجال إذ يقول: "... أما ما يقال من أن الصحراء شكلت حاجزاً ضخماً يفصل بين ما يسمى بموريتانيا جنوب الصحراء وشمالها فهو الآن غير مقبول وقد دحضته عدة أبحاث أصلية ... إن دماء هؤلاء الذين جاءوا من الصحراء أو من الأراضي الممتدة إلى شمالها ما زالت تجري في عروق بعض شعوب السودان، كذلك فإن دماء السودانيين قد تركت آثارها في أهل المدن في المغرب (67).

(65) محمود عبد الله نجم (أفريقيا والاستعمار، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني 1989، طرابلس، مركز الجهاد، ص 140.
(66) نفس المصدر.
(67) كاتي د. أ. م مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط =
إن هذه الصحراء كان لها في العصر الوسيط دور كبير ومناسباً في عمليات التبادل التجاري بين الأفقار المتاخمة لها شماليًا وجنوبًا وفي نطاق الأسواق الإفريقية والعالمية بما تحتاج له من المنتجات، وهذا الاتصال والتفاعل بين الصحراء والأفقار المتاخمة لها يعود إلى عهود سحيقة أي إلى مرحلة ما قبل التاريخ (68).

لقد شكلت القارة الإفريقية بأجزائها المختلفة وحيدة سياسية وحيدة ولا توجد بينها عواقب وإن عوائق طبيعية قاسية تمنع وتعيق حركة الاتصال فيما بينها فالحدود السياسية الموجودة الآن هي ظاهرة سياسية حديثة أملتها الأطماع والمصالح الاستعمارية ولم تكن معروفة في إفريقيا من قبل، وقد ظهرت بعد مؤتمر برلين 1884، الذي أقر ببداً استعماري خطر حيث أخذه الدول الاستعمارية تسامح حول هذه القارة التي أصبحت زراعة الشترينج أينما تصل قوات أو نفوذ أي دولة استعمارية من هذه الدول إلى أية منطقة أو رقعة جغرافية فإنها ترفع فوقها رايتها وتصبح منطقة حدود نفوذ ونفوذ لها. وهكذا قسمت القارة وشرد سكانها وتقطعت أوصال القبلية الواحدة والأسرة الواحدة وبعد أن كان الأفارقة يجولون في ربيع قارتهم في سهولة ويسر أقسمت أمامهم الحواجز والبوابات والعراقيل المختلفة، وهذا الأمر لم يكن موجوداً في مرحلة ما قبل انتشار الإسلام أو خلال مرحلة انتشاره وإقامة الدول والممالك الإسلامية حيث كانت القارة تمثل وحدة سياسية واجتماعية واحدة ومتميزة لا يوجد بينهما فرق واضح سواء في مظهر سطح الأرض أو في معالم السكان. فالصحراء كما ذكرنا

(68) إبراهيم حركات دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير 1981، طرابلس، مركز الجهاد، ص 27.
تربط ليبيا بجنوب القارة وكذلك الأراضي الصحراوية التي تمتد على جانب النيل سواء في الشرق أو الغرب لا نجد فرقاً ملحوظاً لا في سطح الأرض ولا في معالم السكان (69) وهذا النيل الذي يجري من قلب القارة الاستوائية نحو البحر المتوسط عبر المناطق المدارية وحشائش السافانا والصحراوية فإنه يجري بالماء والخصب من الجنوب أيضاً وذلك تكوينه منذ عصور ما قبل التاريخ مراكز للحضارة البشرية في وادي النيل (70).

كما أنه من الظواهر الطبيعية التي تنفرد بها القارة وجود ما يسمى بالأحداث الإفريقي العظيم الذي يمتد على طول البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب وان أجزاء كبيرة منه امتدت بالبحار، وتمثل الآن أوسع وأعمق بحيرات العالم منها بحيرة فكتوريا وتانا وتاناجانيا وناما حيث تلعب هذه البحيراتvariably دوراً بارزاً في حياة مكان القارة اقتصادياً والمعاوضات جيدة بين دول إفريقيا (71).

لقد ارتاد الأفارقة سواء أولئك القاطنين في جنوب الصحراء أو في الشمال قارتهم في سهولة ويسر ولم تقف الصحراوات الكبرى عائقاً دون خلق الروابط والصور المتعددة بل كانت طرق ومسالك ومنافذ ما وراء الصحراوات والتي ستحدث عنها بعد قليل - من المعالم الهامة التي ساعدت في تطور العلاقات وتقويتها بين مناطق المغرب العربي ومناطق ما وراء الصحراوات وقد ساعد ذلك على دخول الإسلام إلى مناطق غرب إفريقيا ووسطها حيث توسعت قاعدة انتشاره بعد استيلاء المرابطين على غانا عام 1076 وتلت على هذا المدى القادم (69) عطية مخزووم الفيتوير، فرنسا ومشكلة الحدود الليبية، مجهد البحوث التاريخية العدد الثاني، يوليو 1989، طرابلس، مركز الجهاد، ص 161.

(70) محمد السيد غلاب، الوطن العربي والاتصالات العالمية، المجلة، العدد 67، القاهرة 1962، ص 21.

(71) محمود نجم، 140.
من الشمال والشمال الشرقي قيام ممالك إفريقية ذات شأن في المجالين الحضاري والإنساني نتيجة اعتناقها الإسلام (72).

إن الجبال والوديان والسهول المختلفة التي تربط بين أجزاء القارة قد سهلت عملية الاتصال بين أطرافها وبالتالي كانت عاملًا مساعدًا في عوامل نشر الإسلام والدليل على ذلك هو حركة التجارة القائمة بين هذه الأجزاء منذ أقدم العصور فكان سكان المغرب العربي والإسلامي والعرب الغربيي كما ذكرنا يجولون هذه المناطق في سهول وبر قربها عنهم أولاً ثم لملاءمته طبيعتها ومناخها لتحركاتهم لأنهم يعيشون نفس الظروف والمناخ، فكانت تتحركون في سهولة دون أن تعرضهم عواقب أو عواقب وحركة الاتصال هذه حركة قديمة وليس كما يدعي بعض المؤرخين الغربيين بأنهم هم الذين اكتشفوا واتصلوا بالقارة وتجاهلوا دور العرب والمسلمين الذي سبقهم إليها بعدة قرون.

لقد ساعد على هذا الاتصال عاملين رئيسيين هما وسيلة المواصلات والطقس أو المناخ، حيث لعب الجمل دورًا بارزاً في عملية الاتصال بفضل ما تميز به من سمات وخصائص منها كما نعرف الصبر على تحمل المشاق والصعوبات وقطع المسافات دون كلل أو ملل والعثور على العطش وقوته البدنية على تحمل مثل هذا العمل بطبيعته القاسية المتمثلة في حمل الأثاث الثقيلة والسير على الطرق لمسافات طويلة وهذه خاصة اتفقد بها الجمال دون غيره من سائر الحيوانات حيث قال تعالى "ألا ينظرون إلى الإبل كيف خلت؟" وقد انفرد المسلمين دون غيرهم باستعمال هذه الآداة في إتمامهم وواصلتهم فالسودان الغربي اتصل ببلاد المغرب الإسلامي عن طريق الجمل كما استعمله سكان شمال إفريقيا وأصبح وصولهم الوحيدة لعبر رمال الصحراء وواصلت أصولهم يتدفقون إلى نطاق السافانا جنوب الصحراء واختلطوا بالعنصر الأوروبي وكونوا ما يسمى بأنصار الحاميين أو السودانيين الغربيين وزاد هذا الاختلاط

(72) محمد المبروك بونس، ص 16.
بعد أن دخل العرب إفريقيا عن طريق برزخ السويس.

أما العامل الثاني وهو المناخ فلا شك أن الطقس يلعب دورا هاما في التأثير على الأحداث وتطورها. ويعتبر على الأكثراً موجهاً عملاً مساعدًا لهذه الأحداث أو مفارقاً لها وبخصوص انتشار الإسلام فقد لعب هذا العامل دوراً هاماً في هذا الجانب وكان عملاً مساعداً حيث أن المناخ القارة الإفريقية بأجزاءها المختلفة يكد يكون المناخ متشابهاً خاصة في المناطق الجنوبية التي يغلب عليها المناخ الصحراوي وقد ألغي سكان القارة هذا المناخ واعتاد عليه أولئك الذين تولوا مهمة نشر الإسلام من التجار والدعاة حيث عاشوا نفس الطقس في مناطقهم الأصلية وهو المناخ الصحراوي له الجزيرة العربية واليمن والصحراء الليبية والجزائرية.

ولقد ساعد العامل المناخي على دعم وتطوير العلاقة بين سكان شرق إفريقيا والعرب والمعاهجرين إليها، إذ لعب هوب الرياح من مواطن المسلمين في فصل الشتاء نحو شرق إفريقيا والعكس في فصل الربيع دوراً أساسيًا في تطوير هذه العلاقات. ففي ديسمبر من كل عام تهب هذه الرياح متجهة إلى الشمال الشرقي وتظل تهب حتى آخر فبراير ثم يتكرر هوب الرياح مرة أخرى من إبريل إلى سبتمبر في اتجاه مضاد نحو الجنوب الغربي حيث تحمل أهل زنجبار إلى سواحل الهند ثم تحمل أهل الهند إلى سواحل زنجبار عن طريق ساحل جزيرة العرب الجنوبية ومضيق عدن، والتجار والرحالة وغيرهم الذين يركبون سفنهم صغيرة من ساحل العرب أو الخليج الفارسي في الشتاء يتأكدون أن رياح هذا الفصل تحملهم إلى ساحل القارة الإفريقية وبعد أن يقضوا بضعة أشهر تحملهم الرياح إلى أوطانهم مرة أخرى.(73).

أما التجار الذين يجرون بسفنهم الشراعية من الشاطئ العربي في الشتاء

(73) حسن إبراهيم حسن، ص 26.
فقد مستعدين بقوة الرياح المساعدة في سفرهم جنوباً صوب الساحل الأفريقي، بينما في أثناء عودتهم لأوطانهم في الربع يجدون أيضاً الرياح مؤاتية للاتجاه صوب الوطن الأصلي لهم ويحضي الزمن أصح للتجار المسلمين خبرة تامة بمواقت الرياح واتجاهاتها وأصبحت رحلاتهم من شبه الجزيرة إلى الساحل الأفريقي وبدة استقرارهم بهذا الساحل تنظيمًا نقيًا نظيفًا لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لديهم (74).

وهكذا فإن الفئات المتعددة التي كانت آداء لنشر الإسلام في هذه المناطق والتي سبق الإشارة إليها والذين جاءوا من مناطقهم المختلفة إلى إفريقيا جنوب الصحراء كانوا في حقيقة الأمر يتقنون بين أطرافها دون معاناة من قسوة الطقس وتقلباتها حيث أن البيئة الجغرافية الإفريقيَّة بيئة واحده متشابهة، ويقدر ما كان هذا العامل قد ساعد إلى حد كبير على نشر الإسلام وتسهيل وصوله إلى القارة فإنه على العكس من ذلك كان عاملًا معرقًا لحركات التبشير والتنصير التي حاولت الدول الأوروبية الاستعمارية نشرها فيها، فعندما بدأ الأوروبيون أو ما يعرف بالرجل الأبيض يأخذ طريقه صوب القارة في نهاية القرن الخامس عشر لفرض اكتشافها والتمهد لغزوها والاستيلاء عليها واجه هؤلاء صعوبات جمة في هذا الجانب حيث أنهم يعيشون معاً وبيئة مختلفة كل الاختلاف عن البيئة التي ونذروا إليها والدراسات المتعددة حول الرحلات والرحلات هذه توضح لنا عمق المعاناة التي يعانيها هؤلاء فكان الكثيرون منهم يلقون حتفهم في أعماق الصحراء لأنه لم يكن في مقدورهم مواجهة صعابها وتقلباتها (75) حتى أن كثيراً من الدول الأوروبية كفرنسا وإنجلترا وهولندا وغيرها حاولت دراسة هذه المشكلة ووضع علاج لها وبالتالي وضع برنامجًا لهذا الغرض يقوم على محاولة إقامة

(74) شرف النجم، ص 37.
(75) فرياي قاسم حمدي، الرحلات الاستكشافية الإنجليزية في ليبيا، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي، 19، ص 22.
محطات تكييف لمواطنيها الذين سترسلهم إلى إفريقيا جنوب الصحراء وحتى يستطيعوا تدريجاً أن يتألقوا مع المناخ الجديد، فكانت هذه المحطات تقام أولاً في الجنوب الأوربي مثل مرسيليا وخبوة وإشبيلية وسقطية وغيرها وهي مناطق تسطع عليها الشمس أكثر من المناطق الشمالية ثم بعد ذلك يتم نقلهم إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط كسواحل الشمال الإفريقي أو مصر أو مناطق المشرق العربي حيث يقيمون فيها درحاً من الزمن حيث يتم بعد ذلك نقلهم إلى جنوب هذه المناطق كالجنوب الليبي بفاطمة وغدامس وزقزاق وجنوب الجزائر أو غيرها، حيث يمتعا فيها وقناً زمنياً لا لشيء إلا لكي يعتادوا ويتأقلموا المناخ الحر والصحراوي ليتم بعد ذلك نقلهم إلى المناطق المقصودة وكانت هذه العملية تستغرق وقتاً وجهداً كبيراً(76).

وهكذا يتضح لنا أن العوامل الجغرافية سهلت إلى حد كبير التواصل بين أبناء القارة الواحدة أو القريبين منها وكانت في الوقت ذاته عاملًا معرقًا بالنسبة للمناطق القابعة فيما وراء البحار والمحيطات والبعدة عنها.

إن القرب الجغرافي بين الفئات التي وقع على عاتقه نشر الإسلام وبين المناطق الإفريقية المتعددة قد عدّ الطرق والمسالك التي لجأ إليها هؤلاء واستعملوها في هذا المجال وهنا لا بد لنا من إلقاء نظرة سريعة على أهم هذين المناذر الذي سلكها الإسلام في تغلفه إليها.

إن إلقاء نظرة سريعة على أعداد الدول الإفريقية التي دخل إليها الإسلام وعدد المسلمين بها يوضح أن انتشاره بها جاء عن طريق نطاق الغابات في غرب إفريقيا كما انتشر على طول الساحل الغربي لها في مناطق الكونغو كذلك الحال بالنسبة للرسوم عن طريق شرق القارة ومن هذه المناطق تمكن الإسلام من التغلب إلى جنوب السودان وهضبة البحيرات الإفريقية وقلب الهضبة الحبشية وتخطى________

Jean Martin, L’Afrique Aclidantale, Pous, 1970, P. 102. (76)
ساحل شرق إفريقيا إلى المناطق الداخلية خاصة كينيا وتنزانيا، وأهم الطرق التي سلكها الإسلام إلى إفريقيا هي:

أولاً: طريق شمال إفريقيا متجزأً مصر، برقة، طرابلس، تونس، المغرب الأوسط، بلاد السوس الأقصى إلى مصب نهر السنغال، وبعد نمو البحرية الإسلامية اشترك معها طريق بحري من مراقب الشام ومصر إلى مراقب المغرب الأقصى.

ثانياً: طريق القوافل من طرابلس وبلاد المغرب بقسمها الأوسط والاقصى إلى شمال السودان وخاصة الطريق الذي يبدأ من جنوب تونس إلى بلاد بيرمو غربى بحرة تشاد ومن جنوب الجزائر إلى بلاد الهوشا شمالي نيجيريا ومن جنوب مراكش إلى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر.

ثالثاً: المسالك الصحراوية عبر مصر المارة بأسيوط وواحات الصحراء الغربية ودارفور إلى أوسط السودان وغرب إفريقيا.

رابعاً: طريق وادي النيل عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة وشمال السودان.

خامساً: الطريق البحرية عبر مياه البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي إلى ساحل إفريقيا الشرقي ومنه إلى قلب القارة (77).

وقد نشطت حركة القدافي التجاري بلبيبا عبر شبكة الطرق الداخلية التي تصل بعضها بمناطق السودان جنوباً، وقد شهدت هذه الطرق نمواً واسعاً منها:

1 - طريق نفوذه - زويلة الذي بدأ من جادوا.
2 - طريق زويلة - سبها إلى فزان.

(77) عبد الرحمن ذكي، ص 46، ص 45، 46، وانظر أيضاً عبد العمولي الحرير، ص 99.
وقد كانت كاوكاو - جادوا التي تقع في مالي حالياً قد ساهمت مساهمة
فعالة في الاتصالات التجارية بين شمالي إفريقيا وغربها منذ أواسط القرن الثاني
الهجري (أواخر القرن الثامن الميلادي) ويزيد من هذين تجارياً من مناطق وراجلا
والجريد Wangala و جبل نحوه كانوا يسافرون إلى تادمكه التي دخلت
الإسلام في النصف الأول من القرن السادس الهجري وكانت رحلاتهم هذه قد
حدثت إبان القرنين الرابع والخامس الهجريين(79).

وأهم الطرق البرية التي كانت تتصل بتمبكتو هي:

1 - الطريق من مصر ماراً بكنان إلى تمبكتو.
2 - الطريق من تونس ماراً بهجرا إلى تمبكتو.
3 - الطريق من المغرب الأوسط ماراً بهجرا إلى تمبكتو.
4 - الطريق من تغازه ماراً بولانه إلى تمبكتو(80).

(78) إبراهيم حركات، ص 39.
(79) باولو فرناندو، "نظام تجارة تادمكة وجاو كاوكبا في إطار تاريخ
الاتصالات الثقافية على امتداد طرق التجارة عبر الصحراء" مجلة البحوث
التاريخية، العدد الأول، يناير 1981، طرابلس، مركز الجهاد، ص 40.
(80) إبراهيم طرخان، إمبراطورية البرونو الإسلامية، القاهرة 1963، ص 75.
وقد كان بإفريقيا مسالك أخرى عديدة عرفها التجار والرحلة العرب منذ أمام بعيد تربط بين أجزاء القارة المختلفة وقد استعملها هؤلاء الرحلة ووصفوها بدقة وأوضحتو أهم المراكز التجارية التي تقع عليها والمراحل المختلفة بين كل مركز تجاري وآخر أو بين كل طريق للقوافل ونظيره الآخر، ومنهم من قدر هذه المسافات بالأميال كابن خرذابا ومنهم من قدرها بالمراحل أو بأيام السير من نقطة إلى أخرى كالبكري ولذلك سميت كثير من كتب هؤلاء الراحة "المسالك والممالك" وقد وصف البكري في كتابه هذا الطريقة وعددها ميماً عدد المراحل بها ذاكراً أهم ما يقع عليها من مدن وأسواق وأهم ما يعرض بالأسواق من سلع.(81)

إن هذه المسالك والدروب لم يكن من السهل ظهورها لولا العوامل الجغرافية التي استمر دوراً بارزاً من خلال القرب والترابط المكاني بين أطراف القارة ووجود الصحراء كحالة وصل بينها بالإضافة إلى المناخ المشترك الذي دأب عليه وعايشه ملايين الأفارقة الذين يتمنون إلى هذه الرقة الجغرافية الهامة.

ثالثاً: العوامل المتعلقة بالقارة ذاتها:

تعتبر العوامل الجغرافية بشقيها الموقع والمناخ والتي سبق الحديث عنها بطبية الحال عاماً رئيسياً خارجياً من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام وهي تتعلق بالقارة ككل، شماليها وجنوبها ولكن إضافة إلى ذلك هناك عوامل خارجية أخرى تتعلق بجنوب الصحراء لدورةً رئيسياً ومركزاً للأدوار السابقة في حركة الانتشار هكذا وهي ظروف القارة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية قبل مجيء الإسلام ونحن بطبية الحال لن نتحدث عن هذه السمات بالتفصيل لأن ذلك خارج عن نطاق دراستنا ثم لأننا سنفرد فصلاً خاصاً عن مؤثرات الإسلام في القارة ستعرض فيه لهذه الأمور بشيء من

(81) البكري، ص 163.
التفاصيل، كما أن هذه السمات هي بطبعتها متداخلة وكلها يؤثر في الآخر تأثيراً مباشرةً لذا فإننا هنا سنحاول أن نستخلص تأثيراتها بصورة عامة على القارة وبالتالي دورها في تسهل حركة انتشار الإسلام.

إن الظروف السياسية والدينية والثقافية وكذلك الاقتصادية التي كانت عليها إفريقية قبل الإسلام أعطت لهذه المنطقة سمة خاصة شبيهة إلى تلك التي كانت عليها مناطق شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام حيث كانت هذه المناطق كل تعيش حياة الجاهلية بكل أشكالها وأبعادها فعاشت إفريقية أيضاً عصرًا متخففاً مخالفاً تماماً لكل ما جاء به الإسلام فيما بعد، حيث كان المجتمع الإفريقي مجتمعاً وثنياً يعيش في جهل وتخلف حيث وجدت العداوة والبغضاء طريقهما إلى الشعوب الإفريقية، إن هذه الديانة الوثنية بكل ما تحمله من تأخر وفساد لا تستطيع مقارنتها بالإسلام وتعاليمه، وكان من الطبيعي عند وصول الإسلام إلى هذه المناطق التي تعيش حياة مضطربة حيث ينتشر الجهل والفساد أن يكون اليون شامعاً والفرق واضحًا بين هذه الوضع وبين المتغيرات الجديدة التي جاء بها الإسلام، لقد وجدت هذه الشعوب في الدين الإسلامي المخرج الوحيد من هذه الأوضاع لأنه دين الحق والسعادة والمساواة والأخاء والحرية، هذا الدين هو خير ما يلائم طبيعة الأفريقيين البسيطة وروحهم المثقفة المتواسطة المطالب وتعطشهم إلى عبادة صحيحة ووضادة يتلهم فيها إلى إله واحد يعبد حيث وجد دون بدء وثقوس وتفصيلات غامضة وهذا ما كان في الوضعية التي يصعب على الإفريقي أن يدرك حقيقته، والطبيعة في ديارهم هي مبعث الحياة وانطلاق النفس تدفع بهم نحو الإسلام، وهذه الطبيعة هي مأوى الإفريقي ومرشده، وكانت حضارة الإسلام خير حضارة تنظم مجتمعهم في الإطار الذي يعيشون فيه(82).

(82) أحمد سويلم العمري، الإفريقيون والعرب، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1967، ص.63.
وفي هذا الصدد يقول شارل أندريه جوليان: «كانت القبائل الأفريقية متعطشة إلى عبادة حقة يبتلعون فيها إلى إله واحد، والطبيعة في إفريقيا تنفع بالناسان إلى اعتناق الإسلام لأنه حر» (83). لقد أدرك الإفريقي بعد وصول الإسلام إليه ويكل بساطة ودون عناية التفكير والجهاد هذا الفرق بين الوثنية والإسلام ونحن لنسا بصدد عقد مقارنة فهذا الموضوع غير قابل أصلاً للمقارنة لأنه يجب مقارنة الأشياء القابلة للمقارنة التي يحمل كلاهما بعض السمات والخصائص المشابهة والإسلام والوثنية كلاهما على طريقي نقيض، فالإسلام أكبر بكثير من أن نقارن به بديانة قائمة على الخرافات والبدع وهي من صنع البشر ولكننا سنحاول تبديل ومعرفة الدور الذي لعبته هذه الدينان دون إرادتها في خدمة الإسلام وتسهيل حركة انتشاره في الأفارقة بصورة عامة الذين كانوا يعيشون حياة الوثنية بكل أشكالها وأبعادها انهموا جميعاً بالتعاليم والمبادئ والقواعد والأخلاقيات الجديدة في التعامل التي جاء بها الإسلام كذلك مبدأ التوحيد القائم على وحدانية الله والنظرية إلى العلاقة بين الخلق والمخلوق وكان من الطبيعي جداً - وكما سبق وأن أشرنا في حديثنا عن العوامل الذاتية - أن يتكبِّن هؤلاء دون تردد على الإسلام والدخول فيه ودعوته إلى فالبيئة الأفريقية كانت بيئة صالحية لكي تنت فيهما بسهولة ومصرد الدعوة الإسلامية التي ألقى بها في البداية التجار والدعوات على الأرض الإفريقية حيث سرعان ما نمت وتزامنت وأتت أكملها حيث أغلب الأفارقة يشاركون إلى الدخول في الإسلام رؤيداً رويداً بعد أن تمكنا من استيعاب تعاليمه وتفقهها في القرآن والسنة أصبحوا هم أنفسهم من رواد حركة انتشاره والداعين إليه وبذلك انتقل الإسلام إلى مرحلة أخرى هامة في انتشاره وانتشاره على أيدي إفريقيته وأنه لم يكن فقط ديناً خارجيًا مفروضاً عليهم بقوة السلاح والإكراه بل هو ديناً يتلائم وطبيعتهم قائمةً على أسس ومبادئ هي أقرب إلى نفوسهم عقولهم من أي تعاليم أخرى.

(83) شارل أندريه جوليان، ص 79. 141
كذلك أصبح الإسلام يتمتع بخاصية وسامة أخرى لم تكن تتوفر له في مناطق إفريقيا احتضنته دعاتها ومصلحبيها وأمرائها ومملوكها ورؤساء عشائرها وقبائلها وغيرهم من الذين يتمتعون بمراكز سياسية واجتماعية مميزة في المناطق الإفريقية الممتدة، هذه الشخصيات الهامة أمثال منسى موسى، والشيخ عثمان دان فوديو، وعمر التكروري، ومحمد الأمين، وعمر تال، والشيخ المختار الكتبجي، ومحمد الكانسي، وأحمد لولو وأحمد بن إبراهيم وغيرهم اعتنوا الإسلام بقناعة مطلقة أخذوا على عاقلهم نشره والدفاع عنه وهذه سمة خاصة أخرى من سمات الإسلام التي توفرت له دون غيره، فهذه الشخصيات كانت غالبيتها تجمع ما بين السياسي كسلطة وحكم وبين الاتجاهات الدينية كدعاة يعملون على نشر الإسلام فاجتمعت هاتين السلفتين في يد واحدة قد سهلت بطبيعة الحال من حركة الانتشار لأنه عندما آمنت هذه الطبقة الحاكمة بالإسلام واعتقتله كانت ترى بأنه لزاماً على شعوبهم أن يتبعهم فاتح الإسلام انتشارًا سريعًا وتشكلت الممالك الإسلامية المتعددة، تلك الممالك التي لعبت بدون شك دوراً هاماً في ترتيب وجود الإسلام بهذه القارة حيث تحولت غالبيتها بالفعل إلى مناطق إسلامية.

ومن هذه العجلة ستحاول أن تتطرق إلى الدور الذي قامت به بعض هذه الزعامات أو الشخصيات الإفريقية متحاشياً الدخول في التفاصيل والجزئيات لأننا سنقوم بذلك عند حدوثنا عن الممالك الإسلامية ودور هذه الشخصيات فيها فيما بعد.

إن دخول الإسلام المبكر إلى مملكتي غانا ومالي قد تبلور في شكله النهائي كما سنرى عند حدوثنا عن هاتين الممالكين كان بفضل ظهور زعامات إسلامية منها بر مرنان وسونجاتان وسنديانا وآل منسي وغيرهم، فكانت هذه الزعامات ذات تأثير قوي وفعال في خدمة الإسلام وأكثر نجاحاً في هذا المجال.

(84) أحمد شلبي ص 334.
 منذ القرن الثالث عشر إذ أصبح الإسلام يظهر في هذه المجتمعات بصورة ثقافية وقومية وفكر إفريقي وأصبح الدخول فيه يعني الانضمام تحت رايات يحملها زعماء من الداخل ويعني أيضاً الإسهام في تكوين مجتمع إفريقي سليم. لقد لعبت هذه الشخصيات وغيرها في مرحلة الانتشار المبكر للإسلام دوراً فعالاً في هذا المجال حيث أديت اعتناقها له والعمل على نشره إلى إحداث تغييرات جوهرية واساسية في البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية في الحياة الأفريقية ككل تمثلت في قيم المماليك والمراكز الإسلامية التي تأثرت إلى حد كبير بخصائص وسمات الدول الإسلامية.

كذلك كان لإسلام ملك كانم أومي حلمي (1085 - 1096) دور هام في هذا المجال حيث بدأ الإسلام يشق طريقه في هذه المناطق إذ انتشرت اللغة العربية والمدارس وظهرت طبقات العلماء، عندما خلقت دولة برنو كانم ظهرت شخصية هامة لعبت دوراً بارزاً في تشكيل هذه الدولة تشكلاً إسلامياً وهي شخصية محمد الأمين الكاني وهو مؤسس الأسرة الجديدة التي قضت على أسرة السفديين والتي تولت الحكم بعد ذلك في دولة برنو.

وفي القرن الثامن عشر شهدت أرض الهوسا بروز عالم ثائر هو عثمان دان فوديو (1754 - 187) وهو فقيه عالم جح إلى مكة وله نفوذ روحى بين قومه وينسب لأعظم عشائر الفولانيين في غرب إفريقيا وقد تحرك هذا الفرع من هذه العشيرة إلى أداماوا نحو نهر النيل وكان هذا الفرع من أشد فروع الفولانيين تحمساً للإسلام ودبيداً بالمذهب المالكي. وفي عام 1801 جمع عثمان جيشاً كبيراً وخرج نحو الشرق وسار حتى وصل ماسنيا واستولى على العديد من المناطق حتى أقام بين نهر النيل وبحيرة تشار دولة مستقلة وأخذ يوزع حدودها حتى وصلت إلى نوبة في الجنوب الغربي وإدماوا في الجنوب الشرقي (85).

لقد تميز الشيخ عثمان بدورة الثقافية كرجل مصلح حيث خلف لنا إنتاجاً

(85) إبراهيم جوب ص 58، ص 135.
أديباً فريداً يتناول مشاكل الحياة اليومية في مجتمعات السودان الأوسط تناوله مباشرةً، ويرى أنه قد كتب أكثر من مائة كتاب ألفها في خلال أربعين عاماً. وهو تناول الآمر السياسي والاجتماعية والاقتصادية التي كانت مثارة في أيامه، كما كان من بين الزعماء المجاهدين الذين عرفوا بوفرة الإنتاج والتآليف شقيقه عبد الله ونجله محمد مسعود الذي ألف أكثر من مائتي كتاب من بينها كتابه المشهور

«إتفاق الميسور في تاريخ بلاد النكرور»(86).

وعندما تعرض الإسلام إلى حركة تشويه مع نهاية القرن الثامن عشر وصارت شعارات مشوهة بشعائر ما بقي من الوثنية القديمة شهد غرب إفريقيا ظهور مصلحين اضطرروا في أكثر الأحيان إلى الجهاد في سبيل الله لاسترجاع صفوة شعائر الإسلام الأولي فظهر سليمان بال وعبد القادر كن في فوتنا تورو التي كانت من أكبر المناطق تمسكاً بالإسلام وقد نجح سليمان في القضاء على نفوذ ملوك الفولانية الوثنيين وأقام حكومة فولانية مسلمة (1775 - 1776) قبل وفاته وسميته بالحكومة الإسلامية الفولانية وتولى الحكم فيها زعيم ديني يطلق عليه لقب المامي وهي تحريف بسيط لكلمة الإمام العربية، وكان عبد القادر كن أول إمام حكم فوتي (1776 - 1805) وخلفه في الحكم ثلاثة وثلاثون إماماً(87).

ولم يقتصر هؤلاء العلماء والمشاهير على تأسيس طرق صوفية وتعليم الشرعية وعلوم الدين الإسلامي فقط، بل عملوا على الجهاد ونشر الإسلام وتشكيل دول وممالك إسلامية.

وفي أيام هذه الممالك بدأ الإسلام يتضرب إلى الشعوب الإفريقية وكانت حركة الدفاع عن الإسلام أبرز ما تميزت به مرحلة البلدة والانصهار إنها المرحلة التي جاءت بعد بناء الإسلام وتوسعاته فعندما توقفت حركة التوسع

(86) كاني ص 23.
(87) إبراهيم جوب ص 73.

144
بدأت مرحلة الترتيب وحصانة القيم الجديدة وذلك أن الإسلام قد أزال القوى الحاكمة التي وقفت في طريق دعوته وأتاحت لشعوبها التي انضمت تحت لواء نطاقاً جديداً قوامه التوحيد والعدل والمساواة، جاءت بديلةً عن الأوضاع الظالمة القاسية التي كانت تعيشها الأقطار الإفريقية(88).

وفي هذه الفترة كانت تسود العالم الإسلامي حركة واسعة تهدف إلى بعث الفكر الإسلامي وإعادته إلى ما كان عليه من مجد سابق وظهرت شخصيات إسلامية لعبت دوراً هاماً في هذا المجال منها شخصية المختار الكتني (1793 - 1811) الذي يرجع إليه الفضل في بلورة الطريقة القادرية الصوفية وصيغتها بالطابع الإفريقي وقد أعتبرت له جميع القبائل بالمشيخة واهتم بتأليف الكتب التي وصلت إلى ألف وثاني وتسعين كتاباً منها ما يقع في أربع مجلدات تتالأ فيها شرى فنون المعرفة(89). لقد تزعم هذا الشيخ الصوفي حركة الإصلاح في السودان الغربي عامة وفي منطقة فوتا تورو خاصة حيث أدت حركته في النهاية إلى قيام دولة إسلامية في منطقة فوتا جالون في أواخر القرن الثامن عشر وفي هذه الحركة تمثل قدرة التصوف عامة على تهيئة الناس للإصلاح بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ التصوف الإسلامي(90).

أما الشيخ عمر تال الفولائي الذي ولد عام 1797 م فقد تربى تربية إسلامية صحيحة حيث حفظ القرآن ودرس صحيحي مسلم والبخاري وعندما بلغ الخامسة عشر رحل إلى فوتا تورو ليلتقي علماء الدين تحت إشراف العلماء المحليين ثم حج إلى بيت الله وما بين أعوام (1849 - 1864) قام بالجهاد والكفاح لدعوته ونشر الإسلام وتصحيح مساره في إفريقيا الغربية حيث تم له

(88) نفس المصدر ص 77.
(89) كمال ضو الدتر، دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي 1996، ص 28.
(90) عمر أحمد سعيد، ص 129.
فتح مدينة بمبا وليت عام 1849 كما فتح مدينة تمبكو بعد حصار دام ستة أشهر كما فتح كفوكودي عاصمة سلطان بنجو كيتا وبعد غزوات دامت خمس سنوات استولى على مملكة كهرتا وأجبر أهلها على دخول الإسلام، كما أُعلن في عام 1852 الجهاد ضد الوثنية في السودان الغربي واستطاع في خلال عشر سنوات أن يسيطر على كل السودان الغربي من حدود مدينة تمبكتو حتى حدود السنغامباو الفرنسية ورغم أنه اعتبر نفسه مصدحاً دينياً وأعلن الزهد في الأمور الدنيوية إلا أنه كان مستعداً لتحقيق ذلك عن طريق القوة والجهاد واعتبر أن رسالته المقدسة هي تنقية الإسلام في السودان الغربي من كل ما علق به من شوائب ووضع حد للموثوقية تطبيق الشريعة الإسلامية ومن هنا وضع نفسه على رأس دولة إسلامية. واتبع أساليب العنف في تحويل الناس الوثنين إلى الشريعة الإسلامية (19)، ومنذ عام 1858 بدأت مقاومة الاستعمار الفرنسي في المنطقة حيث بدأ الفرنسيون يخشون من نشاطه وتوسعاته ذلك أن قوات الحاج عمر بعد أن اكتسبت كامو وباماكو اختيرت طريقها إلى كارتا وبالتالي تكون قد اقتربت من المراكز الفرنسية في المنطقة.

وهكذا بعد أن تناولنا لمجمل العوامل التي ساعدت على حركة انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء اُضح أن هذه الحركة قد اعتمدت في انتشارها هذا على عامل حام هو خاصية هذا الدين وذاتته التي تجمعها إلى واقع ملموس أناست آننا باصحة هذا الدين فاعتبروه عن إيمان مطلق فحملوا رابه إلى قلب الصحراء داعين له بالذين قصاري جهدهم وكتابتهم جهدهم من تجار ودعاة متصوفيين وماجرين ورحالة ومصلحين وأكمل كل طرف من هذه الأطراف جهود صاحبه دون كلل أو ملل ليحملوا مناطق كثيرة من هذه القارة إلى مناطق إسلامية ذات سمات وخصائص تتفق ومبادي هذا الدين الحنفي وتكون شاهدة ودليلًا على أنه لم يتشر بالإراكاه أو بعد السيف، وإنما كان انتشاره في أغلب الظروف بالإنفاذ والطرق السلمية.

(19) إبراهيم جوب، ص 140.
الفصل الرابع

انتشار الإسلام في الحبشة وشرق إفريقيا وتأسيس الإمارات الإسلامية
انتشار الإسلام في الحبشة وشرق إفريقيا

وتكوين الإمارات الإسلامية

أولاً: الحبشة في عصور الإسلام الأولى

رأينا في الفصل السابق مدى ما كانت عليه الصلات بين شاطئ البحر الأحمر والأحباش من الغرب، وسكان الجزيرة العربية من الشرق وعلى وجه الخصوص بلاد اليمن والجنوب العربي التي مرت في تلك الأزمان بأوج مجدها وحضاراتها القديمة، فكانت مركزاً لنشاط التجاري والإشعاع الحضاري الذي تكفلت به جماعة المهاجرين ونشرته في بلاد الحبشة والصومال وتطوير الحياة بتلك الأنباء، ولما استقر المهاجرون واحتلوا بالسكان الأصليين وكونت منهم دولة جديدة على جانب كبير من الرقي والازدهار، بدأت موجات الهجرة تسير في الاتجاه المعاكس وإن كانت هذه المرة على هيئة حيوش يقال أنها سيطرت على اليمن فترة طويلة من الزمن وقد رأت نهاء تلك الفترة عندما استنجد امبراطور بيزنطة بملك الحبشة كي يحمي مسيحي اليمن من الغناء على يد ذي نواس وليضمن بذلك استمرار حركة التجارة الشرقية التي توقفت بسبب الحروب الفارسية.

وتدخل الفرس بعد ذلك مباشرة فعاد الأحباش إلى بلادهم في عام 590 م وكانت تلك نهاية السيطرة الحبشية على بلاد العرب وما إن جاء عام 602 ميلادية حتى كان نفوذ الفرس قد شمل جميع أنحاء الجزيرة العربية بسبب تقلص الفزوذ البيزنطي عن الشرق، واستمرت اليمن تحت حكمهم المباشر حتى العام
الثاني للهجرة حين اضطرهم المسلمون إلى الانسحاب وبدأت الدعوة الإسلامية بعكة وتعرض المسلمون إلى الشدة والاضطهاد، فصرح الرسول الكريم بهجرة المستضعفين واختار الحبشة مقصدًا لهذه الهجرة لاعتبارات كثيرة منها أنها من أقرب البلاد المسيحية التي يربطها بالعرب تاريخ مشترك، وأيضًا موقعها الجغرافي حيث كان السفر إليها سهلاً وأسلم عابقًا، إذ أنه لا يزيد عن كونه عبر البحري، أضاف إلى ذلك العلاقات الطويلة التي كانت تربط بينها وبين الجزيرة وتلك الصلة التي توطدت بين الكثيرة خلال الرحلات التجارية إلى أكسوم(1) ولم تكن الحبشة ضمن الممالك التي وجه إليها المسلمون حملاًهم في ذلك العهد الأول الذي شاهد الاندفاع الإسلامي العظيم ويبدو أن ذلك راجع إلى عدة عوامل منها: تركيز المسلمين على كسر شروط الإمبراطوريتين المجارتين لبلاد العرب وأعتبار مصر أكثر أهمية من الحبشة لممركزها الهمام وسبقها في ميدان الحضارة والعمران ومن أهم الأسباب كذلك قرب عهد المسلمين بالعلاقات الطيبة التي كان للناجش منها فضل كبير.

وفيما بين (630 - 640 م) تم خراب ميناء عدل من جزء الغارات الخارجية وتوقفت أسواق أكلوم ولم يعد هناك أي نشاط للتجار الأجانب وتلقت بناء الكتناش وانقطع الصلة بين الحبشة والعالم الخارجي(2) ولكن بعد فترة من الزمن أخذ بعض قراراتنا الأحباش يهددون تجار العرب في البحر الأحمر مما اضطر الخليفة عمر بن الخطاب إلى إيفاد حملة بحرية لت أديها وذلك في عام 641 ولكنها لم تكتم بالنجاح واستمر نشاط هؤلاء القراصنة إلى درجة اضطر المسلمين في عام 83 هـ إلى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد للكميات بأن جردت حملة بحرية لاختاص مركز حربي على الشاطئ الغربي فاحتلت مجموعة جزر دلل المجاورة لميناء عدل (مصعب فيما بعد) وكان احتلال المسلمين

(1) راجع: فتحي غيث، الإسلام في الحبشة عبر العصور، القاهرة 1962.
(2) دنيس بولوم، الحضارات الإفريقية، ت. دار الحياة، بيروت، 1965، ص 72.
للهذا المركز الممتاز بداية لاستيلائهم على باقي المراكز التجارية البحرية على الشاطئ الإفريقي ويبدأ الانتشار التدريجي للإسلام في شرق إفريقيا وقد ساعد على انتشار الإسلام وتعالجه في شرق إفريقيا والحبشة عدة عوامل كما أنه مرّ بعدة مراحل وعصور يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

1 - بداية انتشار الإسلام في الحبشة وهجرات العرب إلى شرق إفريقيا وانتشار المسلمين بأعمالهم التجارية كغيرهم من رعايا الإمبراطور دون أن يكون لهم مكان سياسي.

2 - عصر سيادة مملكة شوا الإسلامية وهو ما نجده أغلبه ولا نقف إلا على أحداث الثمانين عاماً الأخيرة.

3 - عصر سيادة مملكة يفاف، ويبعد باستياء صبر الدين على شوا حتى خروج الإمام أحمد وهو العصر الذي تخلله خروج حق الدين ونسله من شوا.

4 - عصر سيادة هرر تحت قيادة أحمد ابن إبراهيم وهو ما سئنهه في الفصل القادم عن الصومال.

1 - عصر هجرة المسلمين إلى شرق إفريقيا والحبشة:

تعرضنا من قبل للحوادث التاريخية التي مرت بالحبشة متخذين من تاريخ السلطة الحبشية المسيحية أساساً لتسلسل الأحداث، ولكننا هنا سنتناول الموضوع من زاوية أخرى وهي فترة مدّ وجزر بين المسيحية والإسلام وهنا فإن الظروف متاحة لجمع شتات ما تفرق بين مراحل انتشار الإسلام منذ ظهور الدعوة ثم انتشاره في مختلف المناطق الحبشية ولا سيما حتى نهاية القرن الثالث عشر.

وكمَا رأينا بدأ الاتصال الأول بين الإسلام والحبشة في عهد رسول الله ﷺ ثم اضطر المسلمون لحماية تجارتهم وشواطئهم للاستلقاء على جزر دهلك وجعلوا منها قاعدتهم الأولى ومركز انتقالهم، ومنها امتدّ نفوذهم حتى استولوا
على سواحل البحر الأحمر وجزر المحيط الهندي الإفريقية، ثم أخذ نشاطهم يمتد ويتسع إلى الدواخل حتى استولوا على أغلب الأراضي الحبشية، وبدأت مملكة الحبشة القديمة في عزلتها التي ازدادت على أثر زحف قبائل البجع من شاطئ النيل وانتشارها في شمال الحبشة حتى ساحل البحر(3).

لم يدخل الإسلام إلى شرق إفريقيا بعد السيف بل كان للتسامح والعدل المتصلين بالبساطة والمناطق السليم أكبر الأثر في إقبال الناس على اعتقاؤه كما لعبت التجارة دوراً أساسياً في انتشاره إذ أن أكثر المسلمين احتكاكاً بالعناصر المختلفة من مسيحيين ووثنيين هم التجار الذين تحولوا وجابوا المناطق المختلفة سعياً وراء التجارة ومصادر الرزق، فكان هؤلاء التجار هم دعاء الإسلام أينما تغلغلوا في إفريقيا، وعن هذا الطريق البسيط انتشر انتشاراً منقطع النظر(4)، وثمة عامل مهم ساعد على هذا الانتشار وهو سلسلة الأحداث المتواصلة والمتعاقبة التي حدثت في الدولة الإسلامية سواء أكانت أحداثاً سياسية أو اقتصادية والتي كانت من دواعي هجرة الناس.

لقد طرحنا في الفصل السابق وفي موضوع الهجرة ودورها في هذا المجال هذه الظروف التي دعت لحدودتها والأماكن التي اتجهت إليها، ولكن ليس معنى هذا أن الهجرة وحدها كانت العامل الرئيسي في نشر الإسلام في الحبشة، بل يعتبر ذلك أن لم يكن هناك دعاء للإسلام، بل يذكر لنا التاريخ عدداً وافراً منهم وكثيرون كان لهم شأن عظيم ولكن كان كل منهم يعمل مفرداً متطوعاً معتدداً على جهوده الشخصي لا يعتمد على مؤسسة تعمد بمال والقوة كما هو معروف في الأساليب التبشيرية التي تتبعها الكنيسة الغربية، وكما كان من الأسباب الهامة التي ساعدت على تغلب الإسلام في الحبشة هي الأحوال الداخلية المضطربة بها لقد كانت هناك هجرات عديدة ومختلفة على مر العصور.

(3) عثمان صالح سبي: ص 42.
(4) انظر الفصل السابق حول دور التجار في نشر الإسلام.
التاريخية وكان لهذه الهجرات سماتها الإيجابية والسلبية وخلفت من حيث نتائجها وتاثيراتها فكان للبعض منها آثار سلبية تخريبية لأنها كانت تقوم على الغزو وسببت جزء من الأرض المصuada أو الاستقرار فوقها، ولكن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت تسم بالهدوء التام وتتميز بالطابع الروحي والمعنوي لأنها هجرة إلى الله ورسوله قصد منها نشر الدعوة الإسلامية الجديدة التي دعا إليها محمد في شبه الجزيرة ليعرف المتغلبون من جيران مكة خصائص . 
وفقئل هذا الدين العظيم (5).

لا شك أن هجرات العرب إلى سواحل الحبشة والصومال كانت مستمرة منذ تلك العصور القديمة، والظاهرة أن العرب كانوا قد تعودوا أن يجدوا في هذه السواحل ملجأ يفيرون إليه ومنذما يهربون إليه في ظروف الحياة القاسية وكانوا يجدون في هذا الساحل فرصا كثيرة لكسب الرزق بحث عن التجارة وسائر المهن البحرية المختلفة فلم تقطع الهجرات إلى هذا الساحل حتى الوقت الحاضر.

وكانت طبيعة البحر الأحمر والقرن الإفريقي تساعد على الملاحة السهلة المتفرسة طوال العام بين شاطئه الشرقي والغربي، فقامت العلاقات بين ساحلي البحر وبين الجزيرة العربية والبلاد الإفريقية الواقعة على ساحلها الغربي، وهذا أمر طبيعي جداً منذ أقدم الأزمنة (6).

وعلاج أن الحياة القاسية في الجزيرة العربية دفعت الكثير من سكانها للهجرة إلى إفريقيا، ونستطيع من ذلك أن ندرك بأن الحبشة كانت منذ أقدم الأزمنة المهجر الطبيعي لسكان الجزيرة العربية.

(5) أحمد الشامي، "تطورات في هجرة المسلمين إلى الحبشة" ص 97.
(6) لمزيد من المعلومات عن أهمية البحر الأحمر راجع: يوسف فضل حسن، "البحر الأحمر في التاريخ"، مشاريات الموسم الثقافي الأول، إعداد محمد عبد السلام الجفاثي، طرابلس، مركز الجهاد الثقافي 1989، ص 41 وما بعدها.
ولما كان العرب يشتغلون بالتجارة وبنقلها بين الأسواق المختلفة كانت الحبشة أحد هذه الأسواق التي يقصدونها لعمل التجارة منها وإليها، وكانت اليمن أهم المراكز التجارية وقتذاك ومنها تنقل عبر الجزيرة إلى الشام وأسواق العراق وفارس والهند.

ويرجع أول اتصال للمسلمين بالحبشة إلى الفترة التي سبقت هجرة الرسول إلى المدينة فقد تمت الاتصالات بينه وبين نجاشي الحبشة منذ السنة الخامسة للبعثة وتوجت تلك العلاقات بهجرة أصحابه إليها بسبب اضطهاد قريش لهم، وقد تمكن هؤلاء المهاجرين من عرض رسالتهم وصداقهم في بلال النجاشي أمام مؤامرات قريش التي هدفت إلى إبعادهم عن الحبشة وبذلك يكون صوت الإسلام قد ارتفع في الحبشة ومن داخل قصر النجاشي قبل أن يتعدى حدود مكة. ولم يمنع الإسلام من اعتناقوه من تجار العرب من مزاولة حرفهم الأولى فالهجرة إلى الحبشة والعلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل الإسلام استمرت من بعده وحمل المهاجرين والتجار الجدد إسلامهم معهم ومن ثم ابتدأ الإسلام يظهر بالحبشة ويتغلب حيث سار التجارة.

كذلك هناك عامل آخر على جانب كبير من الأهمية حيث ساعد على انتشاره في هذه المنطقة وهو أن الإسلام حرم أن يسترق مسلم مسلماً لذلك لم يكن هناك من مخرج أمام أفواج الرقيق وسكان الصومال والحبشة وكذلك السودان الذين تعرضوا دائماً لغزوات الناشرين إلا الدخول في الإسلام الذي يمنع عنهم ذلك الأمر وقيمه مهابة الرق والعبودية فأخذ الإسلام ينتشر بينهم بزواجهم مع بعضهم ومع العرب والمسلمين النازلين بينهم.

كل هذه العوامل كانت من عوامل انتشار الإسلام في الحبشة وشرق إفريقيا.

(7) أحمد الاباس حسين، "انتشار الإسلام في شرق إفريقيا" ص 230.
ومن ثم أدت إلى ظهور الولايات والإمارات الإسلامية بها.
أما الأحداث التي تعاقبت على الدولة الإسلامية وساعدت على الهجرة فهي حروب الردة والسياسة التمييزية التي أدت إلى ظهور الفرق الدينية والسياسية ثم اضطهاد الدولة لرعاياها(9).

لقد لعبت طبيعة البلاد دوراً هاماً في وجهة تلك الهجرات فاتجهت الهجرة العربية بالحبشة نحو ثلاث مواطن هي:

1 - المنطقة الشمالية حول ميناء عدن (مصنوع حالياً) أو ما وراءها من حواف الهضبة التي يطلق عليها الآن اسم أريتريا.

2 - المنطقة الممتدة من شمال باب المندب بقليل إلى جنوب خليج عدن ومنطقة الحافة الشرقية للهضبة التي تلي هذه المنطقة ويطلق عليها منطقة هرر.

3 - المنطقة التي تشمل مقدشي الحالية والجزء الواقع جنوبها بقليل ومن هذه المناطق الثلاث بدأ التسرب إلى الهضبة فالتبادل لا يقتصر بمنطقة الساحل الذي لا يعدو أن يكون مدخلاً أو مخرجاً لتجارتهم ولكن المعهم لديهم هو الأسواق.

فالمنطقة الأولى متصلة اتصالاً مباشرةً بالحضبة، غير أن وجود مملكة أكسوم فيما وراء هذه المنطقة من ناحية الجنوب الغربي يقف حائلاً دون هذا التوغل إذا رغوا فيه، ولكنه لا يمكن أن يتوغل فريق إلى الداخل ملتفاً حول أطراف الهضبة الشمالية حيث منطقة مملكة سنار الإسلامية وحيث لجأ إليها بعض المسلمين الذين احترموا من مصر فأغلقوا في القضاء على دولة النوبة (9).

راجع الفصل السابق الخاص بالعوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام مادة الهجرة.
وإقامة تلك المملكة الإسلامية بسنار والتي أصبحت نواة لدولة الفونج السودانية(10).

والمنطقة الثانية قرية الاتصال بالهضبة الحبشية من ناحية الشرق وصحراء الدنار التي تفصل الساحل عن الهمية وهي هنا ضيقة في ذلك الجزء كما وأن وادي نهر أواش يتيح لهم ممراً طبيعياً يقودهم إلى المنطقة الوسطى من الهمية حيث هضبة إقليم شوام.

والمنطقة الثالثة بعيدة نوعاً ما عن الهمية الحبشية إلا أن وادي نهري شابللي وجوبا يقودان إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من الهمية الحبشية حيث يقع إقليم بالي الخصيب.

2- الإسلام في شمالي الحبشة وقبائل الوجه:

كان للنوبة أثر في العلاقات مع مصر خلال جميع أدوار التاريخ وكانت تتأثر بما يجري في مصر من أحداث، كذلك كان لللفتح الإسلامي لمصر أثر كبير على مملكة النوبة المسيحية التي حاولت أن تقاوم التيار العربي الجارف وقد نجحت في صد أول حملة وجه إليها العرب في عام 642 م ولكن هؤلاء أعادوا الكره في عام 651 م وتمكنوا من التغلب على جيوش مملكة النوبة وتقويمها فيها حتى وصلوا إلى عاصمتها، وعقد القائد العربي البطاق (بفتح الباء وتسكين القاف) مع ملك النوبة وتعهد الطرفان بتبادل التجارة مما يضفي على المعاهدة السمعة الاقتصادية، لذلك اعتبارها بعض المؤرخين معاهدة اقتصادية، واعترف بعض الآخر هدنة وينسبن كلمة بطق إلى الأصل اللاتيني (باكتوم) أي العهد والميثاق (11).


(10) نفسه المصدر، ص 85.
وتدل الشواهد على أن العرب قد اتصلوا بالدولة والبجة اتصال تعاون
ومروغ وانتقال وتجارة إذ أن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين العرب
كبني أمية الذين فروا من و مجتمعي إلى بلاد النوبة أو إلى شرق السودان
 واستقرن في أرض الجزيرة أي مملكة مروي، ويدر أن العرب قد اتصلوا
اتصالا وثيقا بالبجة في القرن الثامن الميلادي عن طريق البحر الأحمر وعن
 طريق وادي النيل وخاصة من إقليم أسوان إذ رحلوا إليها تجاراً وهاجروا إلى
بلاد الذهب، وكانت أول جماعة من العرب قد بنت المساجد بالإقليم وهذا ما
عهد لهم سبيل الاختلاط لأول الأمر بالبجة في شرق السودان وساعدتهم على
تعريف هذه المنطقة.
وتقول الروايات التاريخية أنه لما أشتد هجوم البجة على ريف صعيد مصر
في أوائل القرن الثالث للهجرة رفع وعلي أسوان الأمير إلى أمير المؤمنين
المأمون بن هارون الرشيد فأرسل إليهم عبد الله بن الجهم عام 831 م فكانت له
معهم حرباً سجالاً ثم تهاددا ووقعت بين الطرفان معاهدة تتوجها فيما يلي:

1 - أن تكون البجة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد من دهلك
وياضع وتكون ملكاً للخليفة.

2 - أن يؤدي ملك البجة كل عام الخراج أو الزيت على ما كان عليه أسلافه
وهو مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار.

3 - أن يحترم البجة الإسلام وآلا يذكروه سوء ولا يعينوا أحد على أهله.

4 - ألا يمنعوا أحد من المسلمين من الدخول إلى بلادهم والتجارة فيها
عراً وبحرأ.

5 - ألا يمنعوا أحد من المسلمين تاجراً أو مقيماً أو مجتنزاً أو حاجاً فهو
آمن حتى يخرج من بلادهم.
6- إذا نزل البجع صعيد مصر مجنزرين أو تجارًا فلا يظهرون سلاحًا ولا يدخلون المدن والقرى بحال.

وستنتج من هذه البند مدى اتصال العرب بشرق إفريقيا هذا الاتصال الذي استمر في عهد المعتصم (833-842 هـ) والخليفة المتولِّد (846-860 هـ) حيث نقض البجع مرة أخرى العهد إذ أغاروا على أعلام الصعيد مما أدى إلى تكالمة الحروب بينهم وبين المسلمين.

لذلك لم تبدأ الأحوال على حدود الدولتين واستمرت المناوشات بينهما بضعة قرون كان الدين المسيحي خلالها متشرعاً في مملكة النوبة حتى جاء عهد الدولة الأيوبي بمصر ومن بعدها المماليك حيث وجهت الحملات خلالها إلى بلاد النوبة، وفي عهد الظاهر بيبرس ومن بعده السلطان قلاوون بلغت الحملات العربية مبلغًا عظيمًا من القوة.

أخذت مملكة النوبة المسيحية في التفكك حوالي عام 1289 م وما إن جاء النصف الأول من القرن الرابع عشر حتى سقطت وبدأ الإسلام يسيطر على هذه الدولة السودانية، وكان لبقاء النوبة على دينها المسيحي حتى القرن الرابع عشر أكبر الأثر في إيقاف تيار الرجف الإسلامي على الحبشة من الجهة الغربية أي من مصر عن طريق السودان وخصوصًا في ذلك الوقت الذي كانت فيه مصر متمركزة من قونها. بالإضافة إلى ذلك فإن جوار الحبشة لتلك المملكة المسيحية جعل لها متثنية تصل عن طريقه بالعالم وتصل عن طريق التجارة.

وقد تسببت الحروب والقلاقل والمناوشات التي وقعت في تلك العهود بين المسلمين في مصر وبين بلاد النوبة والبجع، تسببت في ازدياد هجرة قبائل

(12) انظر تصر هذه الاتفاقية في: عثمان صالح سيف، تاريخ أثرياريا، ص 80.
(13) خالد الصوفي، محاضرات في تاريخ العرب الحديث، الجامعة الليبية، بنغازي، 1986، ص 25.
البجة شرقاً في اتجاه البحر الأحمر.(14)

وقد اختلطت قبائل البجة الحبشية وبنو عامر وغيرهم مع غيرها من القبائل في شرق السودان، فاختلطت قبائل البجه مع قبائل النيل التي تكون غالبية السكان في وسط أثيوبيا وفي شمال الحبشة الحالية ولكنها حافظت على نغتها الأصلية بالرغم من شدة هذا الاختلاط.

وقد بدأ الإسلام ينتشر بين البجه في القرنين الثالث والثامن وقد كانت تقيم بعضها في وادي نهر بركة حيث يكثر بها المسلمون وعليهم ملك مسلم ومع إطلاوة القرن العاشر بدأ الإسلام يأخذ مكانته بين هذه القبائل بحيث اعتنق غالبية سكان الساحل الإسلامي، وهذا يؤيد دخوله وازداد انتشاره بالرغم من وجود بعض القبائل المسيحية.

وقد تركز الإسلام في شمال الحبشة في خمس مناطق بين قبائل الطهاني، والمنطقة الأولى هي سكان مناه عدول إذ كان يقطنوا فريق من العرب والطائفة الثانية هي قبائل الساهوم وسكن في جنوب سمنه بالجنوب الشرقي للشمال وقد اعتنق جانب منهم الإسلام في القرن الرابع عشر، والطائفة الثالثة هم مسلمو بركة وهم من قبائل البجه التي تعيش بين النيل والبحر الأحمر وتحتل جزء من شمال الهضبة الحبشية ومعهم عناصر حبشية أخرى دخلت الإسلام منذ زمن بعيد، إلا أن قبائل الغيدان والبارية بقيت على وثنيتها(15).

3 - عصر سيادة مملكة شوا الإسلامية:

تألفت من المهاجرين إلى الحبشة ومن القبائل التي اعتنقت الإسلام خلال تلك القرنين ممالك وسلطنتان ناشئة، بدأ صغيرة ثم أخذت في النمو والتوسع

(14) عثمان صالح، سبينة ص 82 وما يليها.

وازدادت قوة كلما توطدت أقدامها، لذلك فعندما تكتلت الجماعات الإسلامية في أماكنها المتباعدة في تلك البقاع الشاسعة لم يكن بينها اتحاد أو اتصال، بل أخذت كل منها تنمو مستقلة عن الأخرى، وبعد عدة قرون أصبحت ممالك وسلطانات تناحم بعضها البعض، يجمعهم الدين الإسلامي وترفعهم الخلافات المذهبية وتنافس الأسر الحاكمة، فلم يكن بينهم أي نوع من الاتحاد.

وقد تأسست أول دولة إسلامية في قلب الهضبة الحبشية في أقصى شوا المشرق، وذلك في عهد ملوك الحبشة الأجاويين، وكان سلطناء هذه المملكة من بني مخزوم، أي أسرة سيف الإسلام خالد بن الوليد وفي العهد هذه الدولة إلى عام 896م عندما تمكنن من بني مخزوم الذين تغلبوا داخل البلاد، وكما ذكرنا فقد دام حكم هذه الأسرة حوالي أربعة قرون وكل ما تعرفه عنها فترة قصيرة وذلك فيما بين عامي 1231-1289 وتين الفترة الأخيرة من حكمها - حين بدأت عواصم الانحلال في الدولة - تبين أخبار الاضطرابات الداخلية وأسماء الفرق المتصارعة وزعماءها(16).

قد استمرت مملكة شوا خلال أربع قرون في شبه عزلة عن العالم الخارجي ومع أهميتها فإنها لم يرد ذكرها في أي مرجع من المراجع القديمة حتى ظهر خبرها في عام 1941م، عندما نشر المستشرق الإيطالي شيرولي مخطوطة عربية مجهولة المؤلف عن هذه الفترة(17).

وقد استمرت أسرة المخزومي على عرش هذه المملكة حتى عام 1225 حين اغتصبه شخص يدعى "باوزر" إذ قبض على عبد الله المخزومي وسجنه واغتصب العرش ثماني عشر عاماً خرج عليه في نهاية السلطان اجنبه واستولى واغتصب العرش في 1252 إذ استطاع هذا الأخير أن يقبض على ناحية الحكم.

(16) نفس المصدر، ص 71.

(17)
ويورث عرشه للسلطان جيرام غازي، ولا نعرف علاقة هذا السلطان بمن سبقه، ولكن عدم قيام ثورات تؤكد وجود علاقة بين الموروث والوارث، وخلف عازى أخو دلجماس ولكن يظهر أنه لم يكن في كفاهة أخيه إذ خرج عليه عبد الله بن جنبه واستطاع أن يكون صاحب سلطان لعدة شهور. وما كاد السلطان دلجماس يفرغ من ثورة عبد الله حتى كانت قواه قد أنهك وأستطاع دلماره أن يستولي على العرش عام 1260 فهرب دلجماس وثارت البلاد على السلطان الجديد مغتصب العرش ثم عاد وتمكن من إرجاع السلطان السابق في يوليو 1261 وحكم مدة لا تزيد عن ست سنوات إذ ثار مغتصب جديد هو عبد الله بن جناح ثم عاد من جديد للعرش بمساعدة الملك الحبشى الذي أعاده عام 1279 ليحكم حتى عام 1289 حيث سلم البلاد في النهاية إلى أسرة «ولسمع» الحاكمة في إفبات التي سبق لها غزو شوا اربع مرات كانت الأولى في 675 هـ، والثانية في شهر رمضان 78 هـ في عهد دلجماس الثالث، وكانت الثالثة في ربع الآخر 684 هـ- 1285 م إذ انهزمت إفبات فرسة الحرب بين دلماره ودلجماس فاقتطعت من حدودها الشرقية إقليم هدية وهمفوطا وجدابة، وكانت الغزوة الرابعة والأخيرة حين استطاع صبر الدين ابن سلطان الإفبات أن يتغلب عليها وويمها إلى أملاكه ويختل مكان الصدارة بين الولايات الإسلامية كلها.

وباستيلاء إفبات على مملكة شوا يحذدد تحديداً واضحاً المدى الذي وصلت إليه سلطة الإسلام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر إذ كانت شوا تشتغل قسماً هاماً من قلب الهضبة الحبشية وذلك في الجزء الذي تحتله قبائل الأجاوين، وبهذا يمتد نفوذ الدولة الإسلامية إلى شواطئ النيل الأزرق.

162 - الممالك الإسلامية في شرق الحبشة وعصر سيادة إفبات:

تأسست مجموعة من السلطنتان والممالك وذلك عندما ازداد انتشار الإسلام وثبتت أقدام، ومن البدائي أن هذه السلطات والممالك وهي تمثل بأدوار تكوينها من الطفولة إلى الشباب، كانت مضطربة إلى خطب ودً ملكوك
الحبشة المسيحية كلما ظهر فيها ملك قوي، ولقد كان ذلك راجعاً إلى انتشار الإسلام، وهو بعد في مرحلة تكوينه في مساحات شاسعة بلغت أكثر من ثلاثة أرباع مساحة الحبشة بينما لجأ ملوك الحبشة في تلك العهود إلى التكتل داخل الهضبة والتحصن فيها والعمل الدائم من أجل توحيده الصفوف والقوى وإزاء هذا الزحف الإسلامي الواسع، وخلال ذلك اعتلى عرش الحبشة من الملوك الأقوياء مما اضطر تلك القبائل الإسلامية إلى تقديم الولاء والطاعة لهم.

وقد سببت هذه الإمارات بالطرز الإسلامي لأنها على جانب البحر كالطرز، وهي البلاد التي يقال بها بلد زبلغ(18) والزبلغ إنما هي قرية قراها غلب عليها اسمها، وتشمل هذه البلاد سبع قواعد كل قاعدة منها مملكة مستقلة بها ملك مستقل ويسمى ملوكها بملوك أوزبلغ. وقد كانت هذه الإمارات هدفاً لملوك الحبشة وقتاً طريراً إذ قامت الحروب الدامية بين الطرفين لأسباب سنذكرها فيما بعد، وأهم هذه الممالك السبع هي:

أ- مملكة أيفات: ويطلق عليها اسم أوفات أو ايفات وهي شرقي شوا ومن مضافاتها مدنية زبلغ وهي فرضه (ميناء) من فروش هذه البلاد وأهلها مسلمون ويتكلمون الحبشية والعربية.

ب- مملكة دورو: وتقع جنوبي أوفات وأهلها مسلمون حنفيون.

ج- مملكة أرابني: وتقع في الشمال الشرقي وأهلها أيضاً مسلمين حنفيون.

د- مملكة شرخا: وتقع غربي أوفات وربما تكون هي نفس منطقة شاركا الواقعة في إقليم جوجام جنوبي الحبشة.

ه- مملكة هدية: وتقع جنوبي أوفات وملكها أقوى من ملوك الممالك الأخرى وأكثر خليلاً ورجالاً، وهي مركز من مراكز تجارة الرقيق.

(18) نفس المصدر، ص 97.
العصر الإسلامي والحضارة
و- مملكة بالي: وهي تلي شرحا ويشتغل أهلها بالزراعة لخصب أراضيها.

ز- مملكة داره: وهي تلي بالي وتقع في الجنوب الغربي من بحيرة تانا.

وأكثر ملوك هذه الممالك يأخذون الملك بالوراثة ومع ذلك فلا يستطيع أحدهم بملك إلا من إقامة ملك الحبشة، وكان صاحب إيفات أكبرهم مكانة وأسبقهم إلى تكوين دولة إسلامية لذلك فالجميع متفقون على تعظيمه وينقادون إليه وكان كل ملك يؤدي لملك الحبشة قطائع مقررة تدفع له في كل سنة من القماش الحرير والكتان مما يجلب إليهم من مصر واليمن.

هكذا كانت علاقة ملك الحبشة مع أمرائه المسلمين والمسيحيين علاقة ولاء فهم كانوا خاضعين له من الوجهة النظرية وهو الذي يعينهم ويقر تعيينهم وكان من حق هؤلاء الأمراء أن يعينوا أمراء من طرفهم خاضعين لهم وما دام الأمراء خاضعين للملك الشرعي فلا بد أنهم يرتبطون برباط الولاء لذا فهو يساعدهم في حروبهم التي يشنونها أو التي يشتهي الخارجون عليها من أمرائهم على أن يساعدوه إذا طلب منهم ذلك وأن يدفعوا له ضربة الولاء.

ملكة اليفات:

اليفات هذه هي إحدى سبع ممالك إسلامية يحدثنا عنها الرحالة ابن فضل الله العمري، وقد أسس هذه الدولة قومًا من قريش يقال أنهم من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب وقد قدموا من الحجاز ونزلوا بأرض جبرت وهي أراضي زيلع واستوطنوها وأقاموا بمدينة أوفات إلى أن كان منهم عمر الملقب «ولشع» الذي وراءه ملك الحبشة مدينة أوفات وأعمالها تحكم بها مدة طويلة ومات وترك


(19) أحمد بن حسن الحبيبي، سيرة الحبشي، ص 91.
أربعة أرامل أو خمسة ملكوها من بعد واحداً بعد آخر. وتولى أصغرهم صبر الدين في 700 هـ (1301 م) خلفه عليها إبنه علي، ويظهر أنه أتي ما أفضح عليه الامبراطور الحبشى فقبض عليه وسجنه سبع سنوات حيث أقام بدلًا لابنه أحمد ولكنه أعاده ثانية إلى منصبه، وقد أشرك علي بن صبر الدين ابنه أصفح في الحكم وترك له حرية التصرف في فترة الصراعات بين أفراد الأسرة المالكة وعملت على إضعاف الدولة(21) رغم أن تاريخ هذه الدولة يعود إلى القرن الرابع عشر فستثبت ذكر أخبارها حفاظًا على الوحدة التاريخية على أن نذكر أهم أحداثها خلال الحديث عن الأسرة الحبشية الجديدة أي السليمانية.

كان أصلح بن علي يميل إلى الاستغلال بالعلوم الدينية فلقبه الناس بالملا وكأن صغير به وأحبهم إليه فأضحى ذلك حق الدين الأكبر وكان قد تركه أخوه في إيفات حينما سار إلى الامبراطور حين أمره بذلك فانصرف إلى العلم حتى صارت له مكانة عظيمة.

ويظهر أن حق الدين أبدى ما أضحى عمه أصفح فشكاه إلى أبيه فأرسله جده لجباية مال بعض النواحي وألزم تلك الجهه أن ينهره ويستخدمه فامثل الأمر حتى جمع مالًا كثيرًا وخرج على عمه والتف حوله كثيرون، فكتب هذا إلى الامبراطور طلبًا النجدة، ولكن رغم المساعدة التي تلقاها إلا أن حق الدين استطاع أن يتغلب عليه وينقله وسار إلى إيفات وفيه جده على أفراد بطرد من البلاد فسار حق الدين إلى شوا وأقام في مدينة تدعي وجوة وأنزل بها من اتباعه من أهل إيفات وأخذ في مناوشة الامبراطور حتى مات 1374 فخلفه سعد الدين أبو البارات محمد فحكم البلاد ثلاثين عاماً داب فيها على توسيع نفوذه بإخصاع المقاطعات الجنوبية للحبشة ونزعها من ملكها حتى توفي عام 1403.

وكان الامبراطور داوود 1382 - 1411 قد سجن أباه أحمد بن علي

(21) ابن فضل الله العمري، مسالك الأنصار في الممالك والأمصار، ج1، نشر أحمد زكي باشا، القاهرة 1924، ص 90.
وجده علي ابن صبر الدين حاكم إيفات بسبب تمرد حق الدين وولي عليها فرع آخر من الأسرة وهم أولاد آزر بن بكر علي بن صبر الدين فحكموها وقد عاد إليها الهدوء بموت سعد الدين وهروب أولاده العشرة من البلاد إلى اليمن حيث أكرهم ملكها الأشرف أحمد بن إسماعيل وأعدهم ويهأله للرجوع إلى بلادهم فاستطاعوا النزول بها برئاسة أكبرهم صبر الدين في عام 815 هـ (1412 م).

تجمع الناس حولهم لاسترداد ما فقدوا فاستمروا في نضالهم حتى مات صبر الدين في عام 1422 فخلفه أخوه منصور وساعده أخوه محمد ومات الأثنان في سجن ملك الحبشة في 1435 فخلفهما أخوه الرابع جمال الدين فضم إليه بالي وهديه اللتين كانتا خاضعتان للحقبة وتدفعان لملكها جزية سنوياً، وكان جمال هذا شديداً في معاملته رمصح الفقر فأتى بهم، وكانت إيفات في ذلك الوقت تمر بفترة طويلة من الاضطراب والفوضى ساعدت شهاب الدين أحمد ابن يلاني على أن يثأر لأخيه فقتل السلطان محمد بن أبي بكر بن سعد الدين عام 1437 وخلفه صهره محمد بن أبي بكر بن منصور وحكم لمدة سنة وقلبه بعدها إبراهيم بن أحمد صاحب ابنه، وملك ثلاثة أشهر وقتل عليه أثرها عام، ملك الحبشة واستمرت الفوضى حتى أرسلت حكومة الحبشة جيشاً بقيادة الجرد الذي استطاع أن يقضي على الفوضى وعمرت البلاد في عهده وأجبه الأشراف والفقهاء والمشات (22)، ولكن هذه الفترة من الهدر والراحة انتهت بقيام أبي بكر ابن السلطان محمد بن أزر الذي جمع حوله جموعاً من الصوماليين فنتحروا على الجرد وقتلوه وعادت الفوضى من جديد فاتفه أهل البلاد حول أحد القادة العظام وهو أحمد بن إبراهيم الأشول وبوصوله بدأت مرحلة جديدة من الصراع بين المسلمين والتصاري الأحباش وهذا ما ستنشأه عند حديثنا عن الصومالي في الفصل القادم.

Oliver, P. 130.
ثانيا: الحبشة وشرق إفريقيا

فيما بين القرنين 13، 16

أولا: الأسرة السليمانية والصراع مع الإمارات الإسلامية:

عند انتهاء عهد الملوك الأجاوين وارتقاء الملك يكونوا أ Malik العرش في
عام 1270 بدأ عهد الأسرة السليمانية، وقد استطاع هذا الملك أن يذهب إليه
عمر وسمع وهو من كبار تجار إيفات فعقد معه اتفاقاً يقضي بمساعدة وسمع له
في حروبه ضد الدولة الأجاوية لقاء توليه سلطنة إيفات وترك حرية العمل له في
الولايات الإسلامية وأخذ الطرافان منذ عام 1270 يعملان على إخضاع جميع
الإمارات الإسلامية التي ثارت على حكامها فأخذ الطرافان الإمبراطور وسمع
يتأمراً على دولة شوا الإسلامية بالتدخل بين أرمارها المسلمين المتنازعين على
العرش حتى إذا سنتت الفرصة الموتية تقدمت جميع جيوش إيفات بقيادة صبر
الدين ابن عمر وسمع ومساعدة الإمبراطور للقضاء على هذه الدولة وتم لهما
ذلك في عام 1288.

وكان الملك يكونوا أ Malik يكره العرب والمسلمين وهاجمهم أينما وجدوا
وكدهم خسائر كبيرة، وحاول بعض المراجع الأجنبية أن تنفي أن الدوافع
الدينية وراء هذه التصرفات والمشاعر وأن سببها سياسياً محضاً(23) ولكن المنتبع
لأحداث هذه المرحلة يلاحظ أن الغيرة الدينية والتضاب الأعمى الذي غلب
على تصرفاته وتصرفات من جاءوا بعده قد طبعت هذه المرحلة بطابع الصراع
الديني ويمكن اعتبار الحروب التي شنها ضد المسلمين هي بمثابة حروب
صليبية.

وقد خلف يكونوا على العرش ابنه يجيبا حيون 1285 - 1294 وبدأ

Simmons, A History of Islam in East Africa, P. 113.
عهده بتجريد حملة ضد سلطنة عدل (زيليع) وانتهت بقبوله عقد هدنة مع جيرانه الأقوياء كذلك أتصل بسلطان مصر قلاوون يطلب منه إيقاف مطران مصري لأن المطران السوري الذي عينه والده لم يستطع القيام بأعباء الكنيسة الحبشية على الوجه المطلوب فاستجاب قلاوون لطلبه(24). وكان لهذا الملك خمسة أولاد اتفلق معهم أبوهم قبل وفاته على أن يحكم البلاد كل واحد منهم سنة بالتناوب وليس هناك دليل على ما كانت عليه البلاد من فوضى وضعف أبلغ من هذا الدليل ولكن خاصتهم وهو فودام ارعد؛ استطاع أن يحكم تسعة عشر عام 1294 - 1312 ولكن بعد إيقافه بإحتوته واحداً أثراً الآخر، وقد خلفه ابنه عم أخرون الأول 1312 - 1344 الملقب ببجرا صفاق، وهو أحد الأباطرة ذوي الشان العظيم في تاريخ الحبشة ويعتبر المؤرخون المؤسس الحقيقي لها، إذ أخذت الدولة في عهده تثبت أقدامها وتوسع رقعتها وأصبح الحكم في الأسرة السليمانية مستقرًا، وقد تمكن من بسط نفوذه على مقاطعة جوجام التي يحيط بها الين الأزرق وتخطى نفوذه هذا النهر إلى إقليم بيجماد ووطد بذلك أقدام المملكة الحبشية وأصبح مترفعاً وقادراً على توجيه اهتمامه نحو مواجهة زحف الحكم المسلمين وامتدت حربه إلى السلطانات التي تحيط بمملكته من الشرق والجنوب وضيق على حركة التجارة وبالذات تجار عدل فقاموا بحصده صبر الدين بالثورة وقتلوا موظفاً حبشياً مكلاً بتحصيل المكوس ومراقبة التجاري كما قتلوا كثيراً من الآخرين، ويظهر أنهم كانوا حاكم مملكة هديه فخرج معظم ولم تكد هذه الأحداث تصل إلى الامبراطور حتى أسرع في عام 1328 وسار إلى هندية فقبض على حاكمها وأرسله إلى العاصمة بينما تابع سيره إلى صبر الدين ففر أمامه فذلت الجيوش عاصمتة أوسا وخربتها وحملت ما بها من غنائم(25) (24) للمزيد من المعلومات: راجع:

- يونس سعد، الحبشة في مئل من تاريخها، القاهرة 1966.

(25) راجع: نقي الدين أحمد بن علي المفتي، الإسلام بأخبار من الحبشة من ملوك الأسلام، ص 94.
وما كاد الملك ينتهي من هذه الحملة حتى خرج التجار وأغاروا على شرقي الهضبة كما هاجموا على حدود إفبات حيث وجدوا نافلة من التجارة الأحباش فذبحوا منهم عدنا وحملوا الباقين أسرى وأعادوا الكورة أكثر من مرة. فخرج إليهم الملك مرة ثانية غير أن وجود الملك في هذه الصحرا الحرجة أعطى جمال الدين حاكم عدل فرصة لا تعوض، فكاتب حاكم إفبات وهو علي بن صبر الدين وصمما على أن يهاجم الملك وكتب جمال الدين له فيقول: "إن ملك الحبشة محصور في جبل لا يستطيع الإفلات منه، وحينئذ يمكن عمل أحد أمرنا إنا أن نقدم له الهدايا الفاخرة وفي هذه الحالة يتحتم عليك أن تكون له خادماً. أو أن تصرف بحكمنا فتجمع رجال القادرين على القتال وسأخرج بك بفسري ومشاتي ونقض عليه وتهمله بضربة واحدة"(26)، فاستجاب حاكم إفبات وهجما على الملك إلا أنهما منيا بالهزيمة.

وإذا كانت الأمور قد اضطربت في عدل ومارا وهي أقاليم ساحلية كانت هدف التجار العرب، فقد كانت أمور إمارات الطراز السبع الأخرى تسير في غاية الهدوء والاستقرار إلا إذا استثنيت محاولة خروج علي بن صبر الدين السابقة الذكر، ولا بد أن شعب هذه الولايات قد شعرت بالاستقلال تحت ظل الأسرة السليمانية وشعرت بناتو بالصلحها.

وفي تلك الأثناء أي فيما بين عامي 1332-1338 أرسل التجار العرب بالمنطقة وفداؤ إلى سلطان مصر تحت زعامة عبد الله الزيدي لكي يتدخل السلطان الناصر قلاوون لإيقاف هذه الحملات الموجهة إليهم وأفادته بأن حروب الامبراطور ما هي إلا تضييق عليهم، ولكن هذا الخبر مشكوك فيه وهناك من يرى أن ثورة سلاطين عدل لم تكن محاولة للاستقلال عن الدولة كما أنها لم تكن ثورة ضد خطوات اتخاذها هذا الملك للحد من نشاط التجارة الرقية بقدر ما كانت لمهاجمة أواسط الهضبة بناءاً على تحريض التجار اليمنيين الذين يتعاملون

(26) نفس المصدر.
معهم ليتملكوا مصادر العاج والجلود والصموغ والتوابل والذهب التي تمكن
هناك بمقادير كبيرة.(27)

أما فترة حكم الملك نويا كريستوس 1344 - 1373 ففيها تم القبض على
التجار المصريين وأرسل هذا الملك جنده لمنع القوافل المصرية من دخول
الحبشة حين سمع أن سلطان مصر يشدف في طلب الضرائب من الأقباط وسجن
بطريركهم مرقص الرابع فأصيبت التجارة في مصر والحبشة بضربة شديدة حتى
ارتفعت أسعار المصريين بالشكوى فلم يسع السلطان إلا إطلاق سراح
البطريرك وأرسل من يحمل إلى الإمبراطور نيا هذا الاطلاق لتعود التجارة.

ولقد استفاد الملك إسحاق 1414 - 1427 من عهد الوضى الذي سبق
فترة تولي السلطان برقوق بمصر، ففي فترة التنامي السياسي بين المماليك هاجر
عدد منهم من مصر وهرب حكام الصعيد إلى الجنوب كما هي عادةهم، فوصل
إلى الحبشة عدد منهم استخدمهما الملك إسحاق في تنظيم الجيش الجبشي
وتدريب جنوده على استعمال النتف، وكان أحدهما يدعى طالب آغا حاكم
قوص بصعيد مصر، فأنشأت الورش التي تصنع السيف والنترود والآلات ووضع
نظام الضرائب وأشرف على تجديد الإدارة بشكل لم تعفره البلاد من قبل(28).

ولكن الحروب التي استمرت طوال عهدها تقترباً لم تكن إلا لتزيد إرهاق
الأهالي وتخريب أملاكهم بواسطة أي الفتيين المتغامرين، لذا كانت الحبشة
طوال هذه الفترة في حالة يرتى لها من الفقر والاضطباب، وزاد من سوء هذه
الحالة عدم استقرار الملك الذي خلفه إسحاق الذي قتل في الحرب عام 1427
حيث تبعه ابنه أندراوس فلم يحكم إلا نصف سنة وليخلفه عمه تكلا مريم

(27) زاهر رياض، تاريخ أثيوبيا، ص 113.
(28) Barth (L) Les relations entre l'Egypte et L'Afrique de L'Est, Paris (SP) 1970, p. 120.
ليحكم ثلاث سنوات ثم خلفه ابنه سرياسوس فحكم ثمانية أشهر ويليه أخوه عمداياسوس حيث حكم ثمانية أشهر أخرى قاست الحبشة خلالها كثيراً من عدم الاستقرار (29).

ولا عجب أن يشعر زرعة يعقوب البين الرابع لداود وشقيق إسحاق وتكرلا مريم والذي حكم من 1434- 1468 أن بلاده في حاجة شديدة إلى كثير من التنظيم فأقدم على إحداث مجموعة من الإصلاحات رفعته إلى مصاف عظام الملوك، فمن الناحية الدينية جعل نفسه على رأس الكنيسة وجعل أملاكها تحت إشرافه، وعيّن موظفاً خاصاً مهمته تعقب غير المسيحيين في الأقاليم الخاضعة للحكم المسيحي والتبليغ عنهم للمحاكمتهم، كما عيّن إلى جانب الأعرام والسلاتين موظفين خاضعين له مباشرة لحكم المقاطعات وتلقي أوامر الحكومة وتتفقدوا ويرفعوا إليه كل ما يرونون مخالفة لهذه الأوامر وأطلق على هؤلاء الموظفين لقب (جراد) وكانوا من الطبقة العسكرية ومن سلطاتهم حقوق مصيدة أملاك من لا يخضع لأوامرهم وكل هذا ليحد من سلطة الأعرام وليركز السلطة في يده.

وكان من الطبيعي ألا تقابل هذه الخطوات بالرضى من كافة الطبقات ولا سيما من هؤلاء الأعرام الذين التفوا حول ابنه بيد مريم ووالدته ماجوسا ورفعوا رأية العصيان وكان على رأس العصاة "ماهيكو" نائب الملك في هذين فسر، فبادر الملك إلى القبض على زوجته وأبيه ورجع بعدها في السجن ثم أسرع الملك إلى هديد أهلها وقدموا وراءهم له وفر زعيم الثورة إلى عدل فتبعه جنود الملك وقتلوه.

وإزاء قوة الثائرين التي بدأت منذ ثورة حق الدين ابن أحمد ضد جده

(29) للمزيد من المعلومات عن هذه الفترة انظر:

Eliot, The East Africa.
علي بن صبر الدين التي استمرت خمسين عاماً يقودها أبناء سعد الدين متوالين دون أن يتمكن سلاطين إفغان من سحقها رغم مساعدة الدولة لهم، وأي زرع عقوب ضرورة الاستعانة بقوة خارجية إلا أنه عدل عن رأسه حيث تمكن قواته من القضاء على آخر أبناء سعد الدين وذلك في عام 1430 م.

وبوفاة زره يعقب عام 1468 أنهى عهد الأسرة السلجوقية لتدأ مرحلة جديدة حيث تولى ابنه بنيدرا مريم الحكيم واستمر حتى عام 1478 وأول عمل قام به هو إطلاق سراح جميع المعتقلين الذين اشترموا معه في الثورة على أبيه وكان من الطبيعي أن يخضع لهم وينفدو أوامرهم التي تهدف إلى استعادتهم نفوذهم القديم فأعاد تقسيم الدولة القديم وعين حكاماً (رئاس) جدد على جميع المقاطعات فكان ذلك إيجاداً ينمو سلطة الأمراء من جديد محاولات استعادةامتيازاتهم القديمة التي تمتعوا بها قبل عهد أبيه، وتولى بعده مجموعة ملوك كان أهمهم بنادنجل الملقب بذاو الثامن 1508 - 1540 الذي كانت قوته مقسمة بين القضاء على الأمراء المسيحيين المناوئين له وعلى مسلمي الولايات الشرقية بعد أن غيروا سياستهم مع ملوك الحبشة وأصبحوا يقفون منهم موقف العدالة الصريحة بزعامة الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول والملقب بالجرياني الذي خاض حروباً مريماً ضد الأحباب كلت بالنجاح، فلم يمض عام 1540 حتى كان العرب قد جعلوا من أنفسهم سادة على الحبشة كلها وهذا ما سوف ندرسه شيء من التفصيل في الفصل القادم عن الصومال.

لقد لعبت المملكة البيئية (هليبي) وفي المصادر العربية رومانية، زوجة بند مريم، وكانت عربية الأصل ووالدها هو حاكم دوار دوراً هاماً في أحداث البلاد وكان لها أثر كبير في إدارة الشؤون السياسية والدينية في الحبشة فترة طويلة وكانت عربية مسيحية ولكنها كانت تجني إلى أصلها العربي وتتمت أن تحسى العلاقات بين ملوك الحبشة وملوك عدل ولكنها اضطررت بحكم الظروف القاسية آنذاك أن تناسب الأمراء والمسلمين العداء وقد ساعدت هي والمطران مرضات لبا دنجل على تولي العرش وكان صغير السن فقامت بإدارة البلاد وأخذت ترشد
الملك وتوجه ولكن الجهود السلية التي قامت بها قد أخفقت(30).

وقد فكرت في الاتجاه إلى مصر كحلفٍ طبيعي، ولكن حالة مصر في هذا الوقت لم تكن تساعدنا على مد يد المساعدة المطلوبة فقد كان السلطان الغوري يعاني من آثار هزيمة أسطوله في موقعة (دير) أمام البرتغاليين في عام 1509 فقبض البرتغاليون على التجارة الهندية خصوصاً بعد أن استولوا على عدن في عام 1513 واحتلوا جزر قمران ودهلك ثم مضوّع فيما بعد(31).

وفي عام 1516 جرى لبادنجن حملة ضد محمد ملك عدن وهزمه وغزا عدن وأحراق المدن وखزَّب القلاع، وقد حاصر المسلمون في مكان ضيق من الوادي بين عدن وفيضيجر وقتل منهم أعداد كبيرة، وفي تلك الأثناء كان البرتغاليون قد جربوا حملة على زيلب وأحوروها وانهزم فنصوّه الغوري آخر سلاطين مصر في موقعة مرج دابق أمام الجيش العثماني، وكانت المملكة تهذل إلى التحالف معه، وأرسل السلطان قائده سنان باشا في حملة إلى بلاد العرب وأخضع حكامها وعين حكاماً من الأتراك وكان ذلك باعثاً على قلق الأحباش وأمراء عدل فادروا إلى توقيع الصلات مع الأتراك وقد وجد الأتراك في ذلك مفيدة لهم ليستفيدوا من خبرة تجار عدل في التجارة وأساليبها في هذه البلاد، وكان الأتراك قد استولوا قبل ذلك على جزيرة زيلب حيث أسسوا بها أسطولاً يهاجمون به السفن التجارية المناوئة وهذا ما حفز أمراء عدل على التفاهم معهم(32). أما المملكة اليمن فقد رأت ضرورة وجود حلفاء لها فأرسلت إلى قنصوّه الغوري قبل محاربته سليم الأول ولكنه سرعان ما قتل واجتاحت الأتراك

(30) فتحي غيث، 113.
(31) للمزيد من المعلومات عن عمليات البرتغال التوغل في الساحل الشرقي


(32)
بلاده فطلعت الملكة إلى البرتغالين بعد أن تحولت الحروب في الحبشة من مناوشات يقوم بها ثائران صغير أو تجار رقيق محليون إلى حروب دينية تجمع المسلمين في قوة متحدة جبارة لمنازعة القوة المسيحية في البلاد التي استعانت بالبرتغالين في صراعها ضد القوة الإسلامية، كان ظهور الأتراك والبرتغاليون بالقرن الأوروبي ظاهرة خطيرة عملت على إذكاء نار العدوان والتعصب الديني بالمنطقة فقد أخذ كل طرف منها يعمل على السيطرة على شرق إفريقيا والحبشة المحاولين سدّ الفراغ الذي خلفه انسحاب مصر من المنطقة عقب هزيمة أسطولها وسقوطها في يد الأتراك عام 6/1519، فانتصدار الأتراك على السلطان قنصوه الغوري وسيطرتهم على مناطق الوطن العربي أصبحت منطقة البحر الأحمر والقرن الأوروبي مسرحاً لنشاطهم، وقد حارموا فرض وجودهم ووراثة مماليك مصر في التجارة الشرقية. وكان البرتغاليون يتسببون الأتراك العداء ويفسرون من سطوتهم ووقوفهم تجاه مطامعهم في البحر المتوسط، وما استطاع فاسكو دي جاما اكتشاف الطريق إلى الهند، وجد أن المسلمين يسيطرون على طرق هذه التجارة، وهم المحتركون الوحيد لها، وأنه بدون القضاء عليهم لا يمكنهم تحقيق مطامعهم في التجارة الهند كانت في يد المسلمين في بلاد العرب منذ قرون ويعتمدون على تأيد سلطان مصر الذي حصل على مكاسب ضخمة مما يجعله من ضرائب على البضائع الهندسية التي تمر بلاده ليستهريباً البنادقة غراماء البرتغال لتوزيعها في أوروبا، ولم يكن من المنظور أن يسمع السلطان بسهولة بزوال هذا الاحتكار وكانت لديه قوة بحرية كاملة للساحل.

وصمم ملك البرتغال عمانويل على الفوز بقيادة البحر فجهز قواته البحرية وأغدق عليه الباب لقب قسيد الملاحة والفتح والتجارة في أثيوبيا وبلاد العرب وفارس والهند، وبرز من قبضته اثنان هما فرنسكسو دي الميدا والفرنوس دي البكوبرك وقد لعبا دوراً بارزاً في بسط نفوذ البرتغال بالمنطقة.

أسس البرتغاليون مراكزهم الهامة في كلكتا وجوا في شرقي الهند وغربها
ومنها تحركت أساطيلهم للسيطرة على البحار فاستولوا بقيادة الميدا على سقطرى وهرمز اللتان تحرسان مداخل البحر الأحمر والخليج العربي، ثم جاء بعدة البوكيرك الذي ضرب عدن بالصدامات. ونشبت المعركة الحاسمة بين الميدا والأسطول المصري في براير 1509 أمام ميناء ديو انسر في يبرتغاليسو انتصاراً حاسماً وأبادوا الأسطول المصري، فخلا الجو للبرتغاليس وتسليم البوكيرك القيادة وأخذ يعمل على الاستيلاء على جميع النقط الاستراتيجية حيث يمهد للاستيلاء على عكا ومصر لاستعادة بيت المقدس والأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، ورغم ضخامة هذه الأعمال فإنها تدل على مغزى كبير وهو أن قادة البرتغال لم ينشروا بعد الأفكار الصليبية بل اعتبروا أنفسهم مكلفين بأخذ الثأر للحملات الصليبية الفاشلة لحملوا لواء الأهداف التي عجز عن تحقيقها ملوك أوروبا الصليبية السابقين (33)، ورغم عدم تمكن البرتغاليس من تحقيق هدفهم هذا إلا أنهم تمكنوا من تحقيق عمليتين هما: تطويق البلاد الإسلامية بالاستيلاء على منافذ الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي ثم تحطم الأسطول المصري بحيث لم يعد له أي قيمة حربية وذكر المصادر أن قادة البرتغال في حملاتهم البحرية كانت تدفعهم الآمال للاتقاء بالملك الفس يوحناً (34).

وبدأ البرتغاليس في محاولة اجتذاب الحبشة إليهم فتوافدهم وفودهم إلى ملوكها وكان أول رسول هو (كوليفام) الذي وصل إلى البلاد عام 1508 فاستقبله الامبراطور أحسن استقبال ولكنه منعه من الخروج من البلاد استجابة لدسائس من كان حوله من أجانب فمكث بها وتزوج من حبشية وأصبح له مركز ممتاز، وأصبح حلقة وصل بين دولته البرتغال والحبشة وتوزت تلك الجهود بطلب كل من الملكة اليني والامبراطور معونة البرتغال لمحاربة القوى الإسلامية.

Duffy P. 112.

(33) انظر: صفي الدين محمد، إفريقيا بين الدول الأوروبية، القاهرة 1955، ص 67.
برعامة أحمد بن إبراهيم الأشول الذي أعلن الحرب المقدسة على ملوك الحبشة.

وتمكن البرتغاليون من تعزيز مركزهم على الشواطئ البحرية ساحل إفريقيا الشرقية والقرن الإفريقي وأصبحت لهم السيطرة الفعلية على الخليج العربي والبحر الأحمر، وعندما استولى العثمانيون على العالم العربي لم يتمكنوا من تحسين موقفهم تجاه البرتغال وظهر ذلك واضحًا بعد فشلهم في حصار ديو في عام 1528.

ومنذ تلك اللحظة بدأ كل من البرتغاليين والأتراك في تركيز ثقلهم على الحبشة ومسلمي دول الصحراء اجتازهم إلى جنوب وبدأ الصراع يأخذ طريقه بين الحكم المسلمين في صراعهم ضد ملوك الحبشة وبين الملوك الأbyssيني وأمراء مصر، وعمل المطرزين أي البرتغاليين والأتراك على تسليح من يناصره في عدائهم بأحدث الأسلحة، وكان من الطبيعي أن يصبح الصراع بين ملوك الحبشة وأمراء الخلافة الإسلامية متسامأ بالطابع الإسلامي والذين أخذ كل من البرتغال والدولة العثمانية تذكى نبراه، فما أن بدأت ثورة الإمامة أحمد بن إبراهيم حتى بدأت الاضطهادات الدينية الكبرى تأخذ مكانها في بلاد الحبشة.

لقد ظلت الحبشة عقب هذه الأحداث في اضطرابات طويلة من الوقت لم يقتصر الأمر فيها على الاشتباكات بين الملك والسلالين، بل نشبت في البلاد حركة قطاعية تعرف الصفر الملوك والسلالين إلى بذل جهود كبير من جهودهم للقضاء عليهم.

ويعتبر عام 1520 عامًا حاسماً في تاريخ المنطقة حيث نقل فيه السلطان أبو بكر بن محمد عاصمته إلى مدينة هرر وكون جيشًا من الصوماليين استولى به على زيغول وقتل أميرها في عام 1525 واستمرت الاضطرابات وبدأ يظهر الإمام

Bernard, P. 129.
أحمد بن إبراهيم الذين خاض حروياً ضارية ضد الإمبراطور والممالك المسيحية، حتى سيطرت الجيوش الإسلامية بزعامته على بلاد الحبشة كلها وأصبح الإمبراطور تعبيراً لا حقيقة وأخذت المسيحية في الانهيار تحت ضغط وانتصارات المسلمين المتوقلة، ولم تكد تهال سنة 1540 حتى كانت جيوش الإمام قد اجتاحت الحبشة كلها وأصبح الإمبراطور فاراً طريداً من بلد إلى بلد وهو يقاسي ومعه من جنوده وأنصاره الجيوش والعشش حتى توفي وهو في أسوا حالات البؤس والعزوز(36). أخذ الإمام أحمد يصرف في الحبشة كلها تصرف الملك المستقل صاحب الأمر والنهي، وأخذ يرسل الولاة من قبله إلى بقية أجزاء البلاد لفتحها وإضخاع أهلها وجمع الأموال منهم أو الاتفاق معهم على طريق قد أدلها فأرسل إلى بيجداد الأمير ماجد فتم لهم فتحها وانتهى مع أهلها على أن يظلوا في أراضيهم يزعونها لقاء خراج سنوي، كما ولي صبر الدين على إقليم سمن حيث أخذ في تشييد المباني والمساجد بها، وولى علي على درجة حيث سار سيرة صبر الدين في التعبير وبناء المساجد، كما ولي الأمير حسين على دوارو، وولى الجرد صديق بن علي على شرما وولى علي باليلي عمر أن الوزير علي، أما هو فقد استقر في دميا التي اشتهرت بكثرة خياراتها فاتخذها عاصمته له ولم تكن سنة آنذاك تزيد على الأربع والثلاثين عاماً(37).

ولكن تطورت الأحداث المتملئة في دخول البرتغال حرباً الصراع وتغزو الأسلحة النارية المتزودة التي استخدمها هؤلاء في مناصبهم للامبراطور لتحقيق بعض الانتصارات على قوات الإمبراطور وأباه - كما نرى في الفصل القادم - غيرت هذا الوضع وبدأت قوات الإمام في التراجع، وبعدها فقد الثاورون قلوب البابز فدارت بهم الهزيمة وقتل منهم عدد كبير وتفرقت جيوش المسلمين في أكتوبر 1543، وبذلك تغير مجرى التاريخ في الحبشة، وظهر أثر

(36) راجع حروب الإمام أحمد ضد الحبشة في الفصل القادم عن الصومال.
(37) تقي الدين أحمد المقبري، ص 119.
هذا الانتشار سريعاً في البلاد حيث أخذ المسيحيين الذين انضموا إلى صفوف الإمام في إظهار مسيحيتهم، كما أخذ الرهبان ورجال الدين في الظهور واستعادة حياتهم الأولى.

وفي هذه الحقبة التي وصلنا إليها من التاريخ شرق إفريقيا أخذت تطفئ قبائل الجالا على مسرح الأحداث وأصبحت أحد العناصر الهامة التي تتكون منها سكن الحبشة وتميزت بكثرة العدد وانتشارها في مساحات واسعة في غلب المناطق.

كما سبق وأن ذكرنا، فإن الشعوب الحامية بالقرن الإفريقي تفرعت إلى ثلاث فروع كبرى هي الصومال وعفر ساهو والجالا وسرعان ما نشأت بينهم نزعة إلى التنافس والاستثمار بمناطق الرزق وأدى هذا التنافس إلى اضطرار قبائل الجالا التي أخذت تتكاثر بشكل كبير إلى الهجرة إلى داخل الحبشة.

بينما تأثرت قبائل الصومال وعفر ساهو بالثقافة السامية واختلطت بالعرب واعتنت الإسلام منذ ظهوره، وتبادلت قبائل الجالا تبادلها على الطبيعة البدوية مما جعلها بعيدة عن التأثر بالأديان أو الحضارات المتقدمة وبقى عددها قرون في وثبة وهمجية معزولة عن جيرانا (38).

ومنها أسلمت قبائل الصومال وعفر ساهو أصبحت في القرن السادس عشر قوة متماسكة تمكنت من دفع أبناء عمومتهم الجالا إلى الهجرة إلى الشمال وفي نفس الاتجاه الذي اتجهت إليه الحروب الإسلامية من الصومال والشواطئ إلى داخل الحبشة، وكان دخولهم للحبشة نتيجة لضغط قبائل الصومال التي تعيش في المنخفضات الساحلية من الجنوب عن طريق ودائن نهري جوبا ووالي شابيللي، واستمروا في الأجزاء المنخفضة الشرقية والجنوبية والغربية يعيشون حياتهم القبلية السلمية، حتى إذا هزمت الجيوش الإسلامية

Jean (CL) P. 75.

(38)
وتفرقت فاحدت ذلك فراغاً حاولت هذه القبائل أن تملاه فاخذت تسكن الأقاليم
القليلة الارتفاع المحصورة بين هر ووداي نهر أوش، كما أغزتهم خصوبة بالي
وكلة الأعشاب بها فاجهروا إليها، وكذلك عبروا نهر أوش واتجهوا إلى الأقاليم
المخططة المحصورة بين البحر الأحمر والحافة الشرقية للهضبة وهي إقليم
الداكال (39).

ولقد امتلأت بهم مقاطعات العروص وهر وامتدوا إلى نهر ديدة
وسيطروا في طريقهم على مقاطعة سيداما، بينما بلغت موجة هجرتهم مداها في
مقاطعتي شوا واللو في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر في
موجات متتالية حيث عاشوا حياتهم متفائلين عن المجتمع الحشي، وسرعان ما
استقرت قبائلهم في هذه المقاطعات المختلفة وتركوا حياة البداوة وأصبحوا
يعملون في الزراعة وتربية المواشي، ومنذ عهد هذا الاستقرار أخذ الإسلام
ينتشر بينهم.

وخلال الأحداث ازسلامية الحبشية السابقة كانت قبائلهم المشتتة قد بدأت
تجمع ووجدت فرصها الذهبية في ملء الفراغ الذي حدث بعد حروب الإمام،
ولم يكن غزوها للبلاد على هيئة هجرات غزيرة الأعداد في مبدأ أمرها تشن غارة
على جارتها ثم تعود بسرعة، وبعد قليل من الوقت كبرت هذه الغارات
وأصبحت حروباً احتلت فيها كثيراً من الأقاليم الحبشية كما ذكرنا، وبالرغم من
هزيمتها في بعض المعارك إلا أن هذا لم يؤثر كثيراً في عملية الزحف التي قامت
بها فاستولت على دوارو وباليا عامي 1545 - 1547، وبدأ توغهم السابقة
ذكرها.

وفي نفس الوقت أخذت سلطة هر وقواتها في الاضحلال وكانت قد
أنهكتها حروب الإمام فلم تعد تقوى على الصعود أمام زحف الجالا الذين

Despois (L) P. 123. (39)
قطعوا الطريق بينها وبين زيلع، وبذلك ساءت حالاتها التجارية، ولكن الأمير عثمان حاكم هرر لمكن من إنقاذ الموقف بأن عقد معاهدة مع الجالا صرح لهم فيها بارتذاد أساوس هرر. فكانت هذه الاتفاقية فائحة لتوتر الجالا ودفعهم إلى طريق السلام والتفاهم. وبعد سلسلة من القلاقل الداخليّة القصيرة الأمد استتب الأمر وبدأت الأحوال في عهد الأمير محمد الخامس الذي سرعان ما رادته فكرة الحرب فجهز جيشه وتفاهم مع قوات ملك الحبشة عام 1577 في معركة كان نصيبه فيها الهزيمة والفشل، وكانت هذه هي خاتمة القوة العسكرية له، التي لم تقم لها قائمة فيما بعد (40).

وبينما كان جيش هرر يخوض هذه المعركة، انتهت الجالات الفرصة وأغارت على حدودها ودمت ما يقوم عن مائة قرية وحاصرت المدينة نفسها، ومنذ ذلك العهد، وهرر شعباً وحكماً يعيشون تحت تهديد دائم من قبائل الجالا.

خلال تلك الفترة التي قاست فيها هرر مرة م quyềnة من هزيمة وتشتت كانت الحبشة مشغولة بأحداثها وحروبها مع قبائل الجالا والأجواف والفلاشا اليهود وسما، ثم بعد ذلك وقعت الحربين بينهم وبين الأتراك في مصوور وانتهت بعهد صلح استحضت بعده الأتراك بعد أن اكتسبوا بتعيين نائب في مصوور وحرفيزع مع بقاء هذه المنطقة تابعة للحكم العثماني.

وسرعان ما دبَّ الخلاف داخل المملكة الحبشية وعادت المنازعات القديمة بين الأمراء الذين أخذ كل منهم ينزع إلى الاستقلال، في الوقت الذي كانت فيه الدولة تحت تهديد دائم من قبائل الجالا، وبذلك سادت الحبشة كلها بمناطقها الإسلامية والمسيحية مرحلة جديدة من الاضطراب والعزلة وانتقلت أخبارها عن العالم، مدة قرون من الزمن كانت البلاد فيها نهمًّا للاضطراب وتنافس

(40) نقي الدين أحمد، ص 123.
الأمراء وتفتت البلاد إلى عدد كبير من الإمارات التي ظلت تتنازع الواحدة منها الأخرى إلى منتصف القرن التاسع عشر حين خرجت الحبشة من عزلتها مرة ثانية في عهد الملك تيودور.
الفصل الخامس
الصومال
الصومال

أولا: مرحلة ما قبل الإسلام

لم يتم حتى الآن الكشف عن أصل الصوماليين وتاريخهم القديم بشكل علمي واضح، فقد اختلفت آراء علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخين وتضاربت مطابقة بين اتجاهين متنافرين، وقد نشأ التضارب حول حقيقة صوماليين اليوم وهل هم من سلالة تلك الشعوب التي كانت تسكن البلاد في العصور القديمة، أم إن صوماليين اليوم لا يمتون للقدماء بصلة.

فبالنسبة لأصحاب الاتجاه الأول، فإنهم يؤكدون بأن أسلاف الصوماليين الذين قطعوا في الشمال الشرقي للقرن الإفريقي وصفة خاصة على سواحل الصومال كانوا بالمنطقة منذ ألفين أو ثلاثة آلاف عام على الأقل قبل الميلاد، بينما يؤكد أصحاب الاتجاه الثاني بأن الصوماليين قد ظهروا في إفريقيا في العصور الوسطى ومنهم من يقول بأن ذلك كان في القرن السابع بينما يرى آخرون بأنه كان في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر وقد كانوا إما من مهاجري العرب أو تخليط من شعوب شرق إفريقيا من هؤلاء المهاجرين.

وقد استند الاتجاه الأول على وثائق مأخوذة من الرسوم الموجودة على

أحد المعابد الفرعونية ومن الكثير من المخلفات الآثارية التي كشف عنها أخيراً.

بلاد بونت وهل هي الصومال:

في عهد ازدهار الامبراطورية المصرية وتحت حكم الأسرة الثامنة عشر بالقرن السادس عشر أرسلت الملكة المصرية عشبةوت حملة تجارية إلى أراضي النجور والمر أي بلاد بونت رمزاً، وقد عادت سفن الحملة الثمانية محملة ببقوش جدادية بمعهد الآثار بالاقصر ومن بين هذه الرسوم رسمان أحدهما يمثل ملكة بونت وتصورها سيدة بديعة جداً مشوهة الجسد وهي تحيي المصريين، والرسم الثاني لآن بونت وهو في ديارهم.

وقد بدأ المؤرخون والأثريون النقاش حول موقع بلاد بونت وانتهى الأمر إلى ثلاث وجهات نظر مختلفة:

1 - أن بونت تقع جنوب الجزيرة العربية.

2 - أنها تقع في الأقسام الشمالية للساحل الصومالي وخليل لمدن.

3 - أنها تقع على الأقسام الجنوبية للساحل الصومالي على المحيط الهندي في إقليم مدينة براوة ونهر والبي.

وقد مثل الثياب الأول الأثري الفرنسي لاروجيه والألماني بركش وثياب الثياب الثاني العلماء هيلد براوند وماربيت وشوا بيفورت، بينما مثل الثياب الثالث العالم الفرنسي ريغويل.

ولكن هناك العديد من العلماء من يعتقدون أن بلاد بونت كانت تلك المناطق التي تسكنها اليوم القبائل الصومالية مستندين على رسوم الدير البحري، وفي أن سكان بونت القدماء يشبهون كثيراً في مظهرهم وملابسهم الصوماليين اليوم، لذا فلا بد وأن يكون

---


(4) راجع:
الصوماليون من سلالة بونت القديمة التي كانت قائمة في القرن العاشر قبل الميلاد، ولما كانت بونت في ذلك الوقت قد دخلت عصر استخدام المعادن فإن أصل الإقليم الصومالي طبقاً للمخلفات الأثرية إنما يرجع إلى فترة 3500 إلى 3600 قبل الميلاد حيث ظهرت أول حضاراة قديمة.

وأتباع هذا الرأي - بخلاف رسوم الدير البحري - يعترضون على الكثير من تلك المخلفات الأثرية وقد كشف العالم حويلان بالقرب من غرشق على منزلاً وخرائب مدينة قديمة، بينما وجد هيلبرانت في نفس الموقع مخلفات زجاجية لأدوات منزلية وأدوات إطلاع ومزهريات من الحجر والمرمر وأسوار من الزجاج والعديد من الأحجار الكريمة والآلي، كما عثر ريفول في نفس المنطقة على بقايا مقابر دائرة الشكل والتي كتبت عليها الأحجار بشكل ركام هرمي تنتشر حولها قوافع وعظام أسانس، وقد اختلطت ببقايا الأدوات المستخدمة بالمنازل وهي من الأحجار والبرونز وال الحديد.

أما أصحاب الرأي المخالف أي إن الصوماليين هم هجرة حديثة عبرت البحر من الجانب الآخر، فقد انتقدوا الآراء المستوحاة من تلك المخلفات مستندين على مبررين هما:

1 - إن المخلفات الأثرية التي عثر عليها بإقليم السواحل تؤكد بأن الجالا قد عاشوا حول زيلغ وفي أقصاهم من الساحل الصومالي الواقعة على المحيط الهندي.

2 - إن الصوماليين أقرب منهم اختلاطاً مع العرب عندهم والرأي الآخر يتفق بين ما يتفق عليه الأساطير الصومالية القائلة بأن أسلافهم قد قدموا من الجزيرة العربية.

---

(5) نفس المصدر، ص 229.
(6) نفس المصدر، ص 270.

Mage, P. 91.
الأصول العربية للصومالي:

إن الشعوب الصومالية أو على الأقل قسم منهم قد عبروا بدون شك من جنوب أو جنوب غرب الجزيرة العربية إلى إفريقيا وإنهم قد دفعوا شعوب الجبال نحو الغرب أو نحو الجنوب الغربي الذين كانوا في القرن الخامس عشر يعيشون على شواطئ المحيط الهندي، ومن هم الذين العنصر من الجبال والصومال، ظهر الآخرون في وقت متأخر في إفريقيا، هذا وإن القبور والمباني الحجرية المميزة تذكرونا بالجالة وقد عثر عليها في تلك الأماكن الواقعة في الشمال الشرقي، التي لا يمكنها الجالسة اليوم.

وقد اتخذ أصحاب الاتجاه الثاني من الدلل الذي تدعم رأيهم مستندين على الأدب والفولكلور الشعبي الصومالي نفسه، فهناك من الأساطير التي رواها الصوماليين أنفسهم عن أسلافهم المهاجرين من الجزيرة العربية وقد نشرت أول أسطورة ذاع صيتها بين صوماليين الشمال في عام 1866 وهي تقول:

في زمن النبي محمد فإن إسلاف الصوماليين اليوم وهي قبيلة عربية عاشت في مكة، غير أن الخلاف دب بينهم وبين إحدى قبائل المسلمين الكبرى بمكة - بنو قريش - لذا أمرهم النبي بالهجرة وذلك تحت قيادة قريب لآبي بكر صديق النبي، فأبحروا عبر البحر الأحمر ورسوا على ساحل الصومال قرب رأس جوارد أفر و في هذا المكان قامت إحدى مجموعاتهم بإنشاء مستوطنة وأقاموا العلاقات التجارية مع الحبش وساحل حضرموت ثم تزوجوا زوجات عربية وأصبحوا أسلاف الصوماليين الحاليين إلا أسلاف القبائل الشمالية. عند قدومهم كانت جميع البلاد خاضعة لبعض قبائل الجبال بينما القسم الآخر منهم توغلوا نحو الغرب، وقد تزوج هؤلاء نسوة من الجبال ومن سلالتهم صومالي الجنوبية، والشكل الآخرين عن الأصل العربي للصوماليين يتركز في أسطورة

(8) راجع بن فصل العمري، مسائل الأبصار.
انتشرت بين قبائل شمال الصومال وحسب هذه الرواية فإن الأمر كان يشكل مخالف للأسطورة الأولى وهي:

«أن عرب - وهو قريني من قبيلة هاشم - يعيش في الجزيرة العربية وقد هاجر إلى إفريقيا في القرن السادس الهجري في نهاية الثامن عشر، وهاك أسس دولة قوية كانت عاصمتها زيلع، ومن أسرة عرب وأحفاده ينحدر الصوماليين الشماليين قبائل عيسى وقد انقسمت عشيرتهم إلى فروع لأن عرب قد خلف حفيدين هما طاروت طارود وعسكاح وأصبح طاروت جد قبائل الورشنجلي والدوليحوتي... الخ، ومن إسحاق خرجت ذريته وهي قبائل العين والحاديلاس وجميع القبائل التي تحمل اسم حرب مثل حربتول - حرب غاز حاجي، حرب أول، وقد توفي الشيخ إسحاق في عهد ميناء قبيلة حرب غاز حاجي، وكان هؤلاء يجتمعون بجوار مسجد مهم لديهم، وقد ازداد البناء حول المزار حتى أصبح بقرب إحدى التحريات غرب المدينة...»

وهناك رواية ثانية لتلك الأسطورة تذكر بأن طاروت كان جد جميع الصوماليين، وكان محاربا قاسي القلب وقد عاش في إقليم جبال أندية وكانت له معجزة أنه يتناول طعامه بيد الله، ولقد وجب لذلك نفسه الله والإسلام، وقد قام إلى إفريقيا في 80 أو 90 بعد الهجرة وتزوج منها وأخذ ينشر الإسلام ومن سلالته قبائل ميجرتين ورشنجلي وغيرها(9). وثبت جميع هذه الروايات المتنوعة شيئاً واحداً وهو إن غالبية الصوماليين كانوا مغرونين ومغرونين بالتماثيل إلى الأسرة العربية القرشية وانتسابهم إلى أولياء الله، وإن العديد منهم كان يصر على ارتباطه وصلة قرابته بالبيت، ولأن ذلك يذكر الكثير منهم منازل وربوتو معينة في مكة يقولون بأن أجدادهم هم الذين بنوها، وليس من الغريب

Simmons, P. 123.
Oliver, P. 152. (9)

(10)
أن تنتشر جميع هذه الروايات بين القبائل الصومالية الشمالية الذين كانوا قد اختلطوا مع العرب احتثاماً كاملاً.

ولإلى جانب هذه الروايات فإنه توجد رواية أخرى تذكر بأن مستقرين عرب في الشمال الشرقي لإفريقيا أي في أماكن سكن صوماليي اليوم، والذين اضطروا لذلك بسبب تحطم سفنهم على السواحل هناك وأنهم تزوجوا نساء محلية، وهم الذين كانوا أجداد بعض القبائل الصومالية(11). وأخيراً فإن الفكرة القائلة بأن الصوماليين هم نتاج احترام الجالا بالعرب وهي ترتكز على دعائم حقيقية أو خيالية، والتي بالأساس تعتمد على النشوبات الأثروبولوجية، أي صلة القرابة الوثيقة بين الصوماليين والجالا، وكذلك في الامتزاج الذي لا شك فيه بين الصوماليين والعرب.

ونحن هنا نستطيع القول بأن الصوماليين مثلهم الدناكل يتنمو بأسلوبهم إلى فرع وحيد للجالا الذي يشكل قبائل الجالا الشمال الشرقيين وذلك بعد احترام المشديد بالعرب، وهذا ما حولهم إلى سلالة الصومال والدناكل في القرن السابع الميلادي.

وهناك من يرى أن الصوماليين هم أحد فروع شعوب الجالا والذي خضع لتأثير أجنبي وامتزج مع عناصر أجنبيه وأنهم عاشوا في أول الأمر في أقصى غرب أقاليمهم الحالية، ولكن في وقت متأخر دفعهم بعض قبائل الجالا الأخرى إلى الهجرة إلى الشرق أي نحو إقليم الساحل، وأدى تواجدهم هناك إلى احترامهم بالعرب وذلك لأن وضعهم هناك ضعيفهم إلى ذلك، وهذا الأمر أدى ذلك إلى ولادة الشعب الصومالي الذي هو نتاج عن استعراب الجالا أو كما يقول صاحب الرأي حرفياً 'الفرع العربي للدورة الجالادية'(12).

Smith, E, Thistory of Somal, VI, P. 119.

(11) نفس المصدر، ص 122.

190
والشّر للانتهاء هو أن المؤرخ هان الذي كان مقتناً بأن الصوماليين كانوا
بدون شك قد هاجروا إلى إفريقيا من الجزيرة العربية قد ناقش هذا الرأي في
مكان آخر يقوله: "إنه من الصواب لو اعتبرنا الجالية والممساك والمسلمين من
الشعوب التي اختلفت دمائها والتي تقف مكانتها متوسطة بين الشعوب الصغرية
وبين الشعوب الحامية السامية والأخيرة عمّا يكونوا قد قدموا من الشرق
الجنوب العربي أو من الشمال من مصر مهاجرين نحو الغرب أو إلى الجنوب،
وفيما بعد وخلال القرن السادس عشر انحسروا من الأقاليم الداخلية للقارة
عائدين إلى الشمال الشرقي، وهناك القبائل التي اجتاحت نحو أقصى الشرق
اختطافاً على العرب المستقرن على سواحل البحر، ومن هنا يرجع أصل
الشعب الصومالي الخليط"(13).

ونتيجة الاستعراض السابق فإن الصوماليين لم يقدموا من الجزيرة العربية
بل إنهم تناولوا في الموقع نفسه وذلك عن طريق الاختلاف والامتزاج مع الشعوب
المحيطة مع العرب حيث حدث ذلك في القرن السادس عشر.

وإنه لن المحتمل تلك الفرضية التي تقول بأن بلاد بونت كانت جزءاً من
بلاد الصومال الحالي أو من إحدى أقسامه الأخرى، وهذا الاحتمال تؤيده حققة
الرسوم التي سجلت أخبار الحملة ومن بين منتجاتها التي هي من بين منتجات
هذه الأقاليم الاستوائية المدارية وهي الحيوانات المميزة للإفريقيا.

ولكن في حالة ما إذا كانت بلاد بونت هي إقليم التجور المشهور، فإن
ذلك لا يثبت بأن سكان بونت كانوا هم أسلاف سكان الصومال اليوم، إذ أن
السير بين ملاسا سكان بونت المرسومة بالدير البحري مع ملاسا سكان
الصومال اليوم ليست دليلاً قاطعاً، إذ أن تلال التي يستخدمها الصوماليين
اليوم قد لحقت بها مؤثرات حبشية وعربية.

(13) نفس المصدر.
ولا يمكن كذلك قبول أمر الآراء التي تحاول القيام بمقارنة المظهر الخارجي للصوماليين مع مظهر صور رجال بونت، فالأنثروبولوجي الذي يلجأ إلى الملابس والأشياء الخارجية لكي يقرر نظرية علمية، وإن أصل أحد الشعوب محدد بها فهو يجاب الصواب ويخالف العقل، وهو يحاول التمييز بين خيط أبيض وأسود في ظلام دامس على أن الخيطين من لون واحد.

وهؤلاء الذين اعتمدوا على المخلفات الأثرية فقط والتي عثروا عليها في المدن القديمة الصومالية الواقعة على ساحل البحر يمكنهم فقط تقديم معلومات لتلك الحضارة التي ازدهرت بالمنطقة، وكيف إن أهل بونت قد ازدهرت بينهم تلك الحضارة ولكن لا يمكنهم البث في أمر أي العناصر البشرية تتميّز إليها أهل بونت؟ وعما إذا كانوا صوماليين أو من الجالا؟ وكذلك عما إذا كان هؤلاء قد غادروا الإقليم قبل وصول الصوماليين فيما بعد؟ أو أنهم قد انقرضوا؟ إذ إن المخلفات التي عثر عليها لا تستطيع تقديم الروح الكافي على ذلك التساؤل بل إنها تقدم الحجج القوية للجانب المعارض أكثر من أنها مستمك يمكن الاعتماد عليه لإثبات الرأي السابق.

كما وآتنا إذا ما ناقشنا الرأي الثاني وهو انتقال الصوماليين من الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام وطردهم للجالا من المنطقة فإنه يجب علينا أن نقر بأنه ليس لدينا الدليل الكافي على ذلك والذي يؤكد أن فكرة الجالا كانوا فقط وحدهم سكان الأقاليم الساحلية، فقبول الجالا التي عثر عليها هناك لا تثبت ذلك، فقد يكون الجالا والصوماليين قد عاشوا بالتعايش في نفس الإقليم أي أنهم غيروا مواطنهم عدة مرات، أما إن الصوماليين قد امتدوا بالحرب فإن هذه حقيقة ثابتة ولكن لم يتم التأكد أين تم هذا الامتزاج ومكانه، فقد يكون قد تم بالجزيرة العربية أو في إفريقيا حيث كانت هجرات العرب إليها مستمرة من الجهتين وقبل ظهور الإسلام بوقت طويل.

أما بالنسبة للرأي الذي يذكر بأن بعض قبائل الجالا باختلاط مع العرب قد
تحولت إلى صوماليين فهو رأي تنقصه كل الأساس الواقعية، إذ أنه في حالة تواجد الشعب الصومالي أو الدنيلك بعد وجود شعب واحد فقط والذي يمكن لأتباع هذا الرأي تسميته بالجلاة، فهم حينئذ قد يكونوا يقضون الوقت الذي لم تكن فيه تلك الشعوب ذات القرابة الواحدة، الجلاة والصوماليين والدنيلك قد تشكلت منه بعد شعوبًا مستقلة الخصائص بل أنها كانت ترجع إلى أصل عربي واحد والتي ما زالت تشكل شعبًا واحدًا، فمعنى وأين تم هذا؟ وأين كانت هذه الشعوب حينما انفصلت عن الأصل الأم؟ ولكن ما لا شك فيه فإن هذا لا بد وأين يكون قد حدث قبل الميلاد أي قبل ظهور الإسلام وليس بأي حال من الأحوال في القرن السادس عشر!!

وخلاصة القول فإن الصوماليين اليوم هم سلالة الشعب الذي أنجب الجلاة والدنيلك وهذا الفرع اختلط فيما بعد بالعرب اختراعًا فعليًا فاستعرب بشكل واضح.

وهناك نقطة يجدر بنا الإشارة إليها وهي أن تلك الآراء السابقة عن أصل الصوماليين قد خضعت بعض الأهداف السياسية سواء من قبل الصوماليين أنفسهم أو لدى دول هؤلاء المؤرخين أصحاب هذه الآراء، والذين كانوا يحاولون إظهار ذلك الرأي أو هذا ليخدم سياسة معينة.

ثانياً: دور الصومالي في نشر الإسلام في شرق إفريقيا

لقد لعبت الهجرة المبكرة واللاحقة دورًا كبيرًا في نشر الإسلام بأقيم الصومال وبالمنطقة المجاورة لها، ولا شك أن هجرات العرب إلى سواحل الصومال والحبشة كانت مستمرة منذ العصور القديمة، والظاهر أن العرب كانوا قد تعودوا أن يجدوا في هذه السواحل ملهجًا يفرون إليه ومنذًا ينزعون إليه في ظروف الحياة القاسية، وكانوا يجدون في هذا الساحل فرصًا كثيرة لكسب الرزق
باختلاف إلى السواحل وحتى القوت الحاضر وتغترب فترة الحكم العباسي بثابة المورد الذي لا ينجب للمهاجرة إلى هذه البلاد حيث لا تتمد إليهم أيدي الخلفاء العباسيين الذين اتفقوا إلى الشيعة والخوارج الذين قاموا بثورات ضدهم، وكانت الصومال بموقعها وخصوبها مثل الحبشة بما فيها ولا شك من إغراء كبير على أن تقاسها أعداد كبيرة من هؤلاء الفارين، وعلى أن الساحل الصومالي كان مفضلا للعرب من ساحل الحبشة لقرب الشفة بينه وبين بلادهم فهاجرت إليه جماعات عربية وكثر عدد المهاجرين واشتدت شوكتهم فكونا إمارات في المدن الساحلية، وكانت القبائل الصومالية - سكان البلاد - يقيمون في الأجزاء الداخلية من الساحل في حين كان العرب المهاجرة يستوطنون المناطق المشرفة عليه ثم حدث الاختلاط وقوى بينهم وكان تأثير العرب قويًا على السكان.

وكان الزيديون قد تركزوا على سواحل الصومال حتى وصلت إلى البلاد هجرة عربية أخرى وفدت من الشاطئ العربي للخليج العربي من منطقة غرب جزيرة البحرين وقد جاء هؤلاء في سفن ثلاث ب ragazze سبعة إخوة هاربين من اضطهاد أمير الإحساء، وكانت أول مدينة بنوها هي مقديشو وذلك في منتصف القرن العاشر، وقد ازدهرت مكانة هذه المدينة فيما بعد حتى أصبحت سيدة على كل عرب الساحل، وقد ظلت كذلك زهاء سبعين عامًا حتى أدى قدم مهاجرين آخرين من الخليج العربي إلى إنشاء وطن آخر تنافسه على بعد منها ناحية الجنوب، وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى عليًا وهو من أم حبشية ولذا ازدهرت إخوته فاضطر للهجرة ببحث عن موطن يقبر إلى شواطئ إفريقيا ومعه جماعة صغيرة مذهبة فاتحه جنوبًا وأسس مدينة كلوة وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل وأن يكون متمهراً بعيدا عن تدخل منافسيه المقيمين بعيدا عنه في مقديشو بالشمال.

(14) عرب فقه، فتح الحبشة، ص 113.

وقد تألفت هؤلاء المهاجرون العرب في البيئة الصومالية، ويقال أنه في هذا الوقت بالذات زحفت مجموعة من الهند إلى جنوب الجزيرة العربية وسواحل الحبشة والصومال وأن جنودًا من الهند زحفوا على الجزيرة العرب في القرن المحادي عشر وأخذوا من كان في طريقهم وعبروا إلى ساحل إفريقيا واستوطنوا هناك، ويقال بأن أمير مسقط امتنع عن آداب الجزية لهذا الهنود وجمع جيشاً واجتاح الصومال واحتل مناطق من تلك البلاد بعد أن هدم الكثير من المعالم والمعابد الوثنية الهندية وحول بعضها إلى مساجد.

كما هاجر أربعين عرباً من حضرموت استقروا في ثغر بربر الصومال حيث أخذوا يعملون على نشر الدين الإسلامي من خلال اتصالاتهم النشطة مع السكان، وقد تمكن أحد هؤلاء الدعاة المسلمين وهو الشيخ إبراهيم أبو زرابي من التوغل نحو الحبشة الحبشية حوالي 1430 م وتمكن من إقناع عدد كبير من الناس باعتناق الإسلام وعمق مبادئه في نفوسهم وقد توفي هذا الداعية في منطقة هير ولا يزال ضريحه موضع تججيل وتوقير(16). وكما رأينا في الفصل الثالث في حديثنا عن الهجرة ودورها في نشرها الإسلام كيف أخذت هجرات العرب تزداد بمضي الزمن بحكم تلك العلاقات السياسية والاقتصادية، والمعروف أن القبائل حتى القرن العاشر كانت محدودة ثم كثر عدد المهاجرين فتكون تلك الإمارات على الساحل.

وقد شهد القرن السادس عشر كما رأينا سابقاً صراعاً قوياً بين القوى الإسلامية التي قويت في المنطقة خاصة بعد أن ازدهرت منطقة زيلب (الصومال الإيطالي) وأصبحت عاصمة لدولة إسلامية فتية عرفت باسم دولة عدل الإسلامية وبين المسيحية التي تمتلك فيها أقوى المسيحية وأخذ صراعها مع المسلمين طابع الحروب الصليبية في القرن الوسطى حيث تالف البرتغاليين

(16) نفس المصدر، ص 117.
مع الأحباش ضد هذه الإمبراطورية الإسلامية وزعماءها في المنطقة. ففي عام 1526 جُردَت الإمبراطورية الحشيشية لبندانجل حملة على محمد ملك عدل وهو زوجها وغزا عدل وأحرق المدن وخرَّب القلاع. وقد حاصر المسلمين في مكان ضيق من الوادي بين عدل وفاطح وأتى منهم ما يقارب إثني عشر ألفًا واعتصم الباقون بالجبال، وفي تلك الأيام كان البرتغاليون قد جردوا حملة على زيلع واستولوا عليها وأحرقوها، وفي نفس السنة أي 1516 انهزم قنسوه الغوري آخر سلاطين مصري في موقعة مرح دابق أما جيس سليم الأول العثماني وكانت المملكة الهيلينية تهدف إلى التحالف معه وأرسل السلطان سليم قائد سفان بنشأ في حملة على بلاد العرب وأخضع حكامها وزعماءها وعين حاكماً من الأتراك في كل المدن، وكان احتلال الأتراك لهذه البقعة باعتُ على قلق الأحباش حيث بادر أمراء عدل إلى توثيق الصلاط مع الأتراك الذين وجدوا في ذلك فرصة جيدة حيث سيتنفرون من وراء هذا التحالف بخزيرة تجار عدل في التجارة وأساليبها في هذه البلاد. وكان الأتراك قد استولوا قبِل ذلك على جزيرة زيلع حيث أسسوا بها أسطولاً يهاجمون به السفن التجارية لمالها وهذا ما حفر أمراء عدل على التحالف معهم. لذلك رأت الملكة أن تبحث عن حلقة فارسية إلى قنسوه الغوري قبل محاربته سليم الأول ولكن بعد مقتله واجتياح الأتراك لبلاده تطلعت إلى البرتغاليين واتصلت بهم كما زارينا سابقاً عن طريق مبعوثهم كوفنهام الذي أرسله الملك عمانيَّ، وهكذا حولت هذه الملكة الحروب في الحبشة من مناوشات يقوم بها ثوار محليون أو تجار إلى حروب دينية تحالفت فيها القوى المسيحية ضد المسلمين الذين تجمعوا في قوة متحدة جماناً لموقف في وجه أعدائهم.

غير أن الملكة توفيت في عام 1525 وأصبح لبندانجل وحيداً أمام قوى المسلمين التي بدأت تظهر وتتعاظم وخرج السلطان أبو بكر بن محمد ابن آزر

على الامبراطور تناصره جميع من الصوماليين فاستولى على هر فوجه الملك إليه الجردابون ولكن هذا مات في الحرب وانتصر عليه أبو بكر وعرض ولائه فأقامه على إيفات وهرر(18).

وهنا يلعب الامام أحمد ابن إبراهيم دورًا كبارًا في سير الأحداث ويلورةها، ويكون هو القضاة التي قسمت ظهر الامبراطور لحسم الصراع لصالح القوى الإسلامية في المنطقة حيث تمكن هذا الشيخ بفضل مساعدة أعوانه من المسلمين الصوماليين من نشر لواء الإسلام ليس في الصومال فحسب بل وفي الهضبة الحبشية نفسها.

ولا يحدثنا التاريخ شيئًا عن نشأة الإمام أحمد بن إبراهيم إلا ما يرويه هو عن نفسه من أنه كان ابنًا لأحد قساوسة إيجو المسيحين وترك موطنه إلى عدن حيث دخل في الإسلام، ولا بد أنه دخل في خدمة أحد الأمراء المحاربين فتعلم فنون الحرب وبرز بين صفوف جيش الامبراطور وأهم مراجعنا لهذه الفترة والتي سجلتنا أحداثها هو كتاب "فتح الحبشة" للدكتور الدين الشهير "بعرف فقه" حيث ذكر أنه كان مع جيش الجردابون محاربًا للثائرين في شرقي البلاد وأظهر من الشجاعة ما جعل القائد آبوب يحبه ويقدر، وقد زوجه الأمير محفوظ صاحب هر ابنه "باتي" وعندما خرج السلطان أبو بكر بن محمد ابن آزر على الامبراطور تناصره جميع من الصوماليين وجه إليه الامبراطور القائد آبوب ولكنه مات في الحروب إذ انتصر عليه أبو بكر ثم عرض ولائه على الامبراطور. وهنا لم يقبل الإمام أحمد الحضوع لأبي بكر ولكن له يخرج على الامبراطور نفسه(19). وقد خرج الإمام هاربًا عقب موت القائد آبوب إلى بلاد آيت ومعه ماتة أو أكثر من الفرسان أمروا عليه القائد عمر دين ابن أخى السلطان إعلانًا لولائهم للدولة وأمضى الإمام أحمد سنواته الأولى في صراع مع السلطان أبي بكر في

(18) نفس المصدر، ص 129.


(19)
هر وانتهى هذا الصراع بقتل السلطان عندما عرف بأنه يدير مؤامرة للقبض عليه عقب صلحهما الثاني فأرسل له من تمكّن من قتله. وأعلن الثورة على الإمبراطور الذي كان ينادي السلطان ومنع موظفيه وجبة خروجه من أن يقدموا إلى هر، كما منع الناس من أن يدفعوا لهم شيئاً وبذلك خرج الإمام وانقلب الخادم المخلص إلى ثائر عند واتخذه رأية وأخذ في تنظيم أمره كما يفضل الحاكم المستقل، فقسم البلاد إلى خمسة أقسام أمر على كل منها أمير ممن دخلوا في الإسلام وكان ذلك في عام 1527، وعندئذ أُصبح قيام الحرب بينه وبين الإمبراطور أمريًا لا مفر منه، وعندما تحركت الحبشة تصدى الإمام لها وهزمها شرّ هزيمة فيما قد الفحوله كثير من المسلمين وقد أُوغرت الحماسة الدينية صدورهم كما زاد من حاماتهم يربئهم في نهر الدين لا سبباً وقد وعدهم الإمام أن ي استولي كل محارب على ما يغنم بعد أن يخرج خمسه الله (20).

ولكي يكون الإمام واقعاً من الانتصار رأى أن يجمع المسلمين حوله فبدأ بالاتصال بالبلاد الإسلامية التي سوف تموته بالمال والرجال، فبدأ يأقرّ ببلاد حوله وهي دواروا وبالتالي فاستولى عليها بعد أن حرك الإمبراطور التي كانت تدافع عنها وقتئ قادها، وانضم إلى ثانية الأمير حسن أبي بكر الجاتري والأمير علي وبذلك سطر الإمام على جنوب شرق الحبشة وفي عام 1529 ثمّ ما بدأ بالاستيلاء على بقية الجزء الإسلامي من الحبشة فقصد إيفات وأطبق عليها من اليمن بجيش يقوده وزيره عادلي، ومن السار بجيش يقوده وزيره الآخر نور الدين بن إبراهيم، فاستطاع الأول وحده أن يستولي على المدينة بعد أن حرك الإمبراطوري في موقعه شنери كوري في مارس 1529 فضميما الإمام إلى أملاكه وغنم من المسيحيين خيامهم وأموالهم وأسر منهم كثيرون من بينهم بنت خاله الإمبراطور الخشبي فافتنت بهم خمسة أوقية من الذهب (21).

(20) نفس المصدر، ص 172.
(21) نفس المصدر.
وعاد الإمام بعد هذه الانتصارات إلى هرر وأخذ في تكوين جيشه من جديد معتمداً على العناصر التي تدين له بالولاء دون غيره، بذلك تخلى عن بعض الصوماليين الذين شكلوا قوة الأولى وكذلك بعض قبائل الجالا الذين شكلوا جناباً من هذه القوات وإذا فضل كثير منهم العودة إلى مواطنهم حاملين معهم ما غنموه، وقد استغرق إعداد الجيش منه عامين وأصبح على استعداد للقيام بغزوات كبرى، وقد بدأ الإمام بالفعل في هذه الغزوات والفتحات وقد اتسمت الحرب في هذه الفترة بسمة الحرب الدينية وصارت حرباً بين المسلمين والنصارى حيث يغي كل منهما اتفاقيات على الآخر، بينما كانت قبل ذلك حرباً حول السيادة السياسية أو بين الأمة يغي كل منهما السيادة والظلم بموجب من الاستقلال، أو بين الامبراطور والثائرين عليه. وفي هذه الفترة عزل الإمام علي غزوة بلاد الامبراطور لنادية ذات الأغلبية المسيحية، وكان هذا الامبراطور قد رفض عرض رئيس الوفد البرتغالي الذين يتضمن مشروع مساعدة بينه وبين ملك البرتغال ولكن الساحة رفضوه فاقتتح هو مشروع معاهدة جديدة حملها هذا الوفد الذي عاد أدارجه إلى البرتغال في عام 1526.

وفي تلك اللحظة أدرك الأتراك خطر التحالف البرتغالي الحشري أن التحالف المسيحي ووجدوا أن البرتغاليين يلقون في الحشيشة نجاحاً سريعًا فلجأوا إلى الاتفاق مع أهل عدل وأميرهم وأمودهم بالأسلحة النارية، كما وجدوا الفرصة سانحة بقيام أحمد ابن إبراهيم ملك هر والذي يساعده البهاشي التركي حاكم زبيد باليمن والذي أرسل الأسلحة والمدافع إليه، كما أزره شريف مكة الذي بعث إليه جنوداً من العرب، فقام الإمام بمحاربة لنادية الذي ينامه عليه السلطان أبي بكر كما ذكرنا واضحاً حروباً طاحنة ضده في قلب الحشيشة استمرت حتى عام 1543 ففي أوائل 1531 عبر نهر أواش وغزا شوا

(22) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، الكويت، عالم المعرفة، 1989، ص 219.

199
داتها واستولى على مدينة (بر البيانونيس) وأصبح الامبراطور مطارداً من بلد إلى بلد وكانت هزيمته فكرة حتى أنه اضطر إلى الفرار إلى ناحية الشمال وهناك التجأ إلى مقاطعة جوجام معتصماً بجبالها العالية بعد أن عبر النيل الأزرق فتبعته جيوش الإمام إلى هناك حيث استولت على المقاطعة ثم رجعت إلى هرر منتصرة(23).

وقد أدت هذه الانتصارات المتتالية التي أحرزها الإمام إلى انضمام كثير من أعداء الامبراطور والناقمين على حكمه إلى صفوف الإمام وأدى إعجابهم به إلى اعتناق الإسلام. وقد استغل هؤلاء الأحباش الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصي في تحريض غيرهم من أفراد جيش الامبراطور على الانتقام بهم واعتناق ديانة المتصرين.

وفي عام 1533 عاد الإمام إلى مثابة الامبراطور الذي هرب إلى دميا شمال بحيرة تانا فطاريه واستطاع أن يكتسح جوجام مرة أخرى ويتصل بمضامين سنار وعقد معهم حلفاً حصل بمختلفة على الأدلة الذين ساروا معه إلى داميا فهرب إيا دي نجل إلى دارا في جنوب النيل الشرقي من بحيرة تانا فلحقه جيوش الإمام هناك وعند مخرج النيل الأزرق من البحرية دارت معركة كبيرة انصر فيها الإمام وتستج جيوش الأحباش بعد أن قتل من أفرادهم عدد كبير(24).

وفي عام 1535 استطاع الامبراطور أن يجمع قوات جيشه الممزق ويهاجم به جيش الإمام المرابط بشرقي بحيرة تانا، ولكنه هزم مرة ثانية هزيمة منكرة وتقدمت جيوش الإمام إلى أكسوم فاحتلها ثم عبر نهر تيكاز كواجت شمال الهضبة كلها ثم انحدرت إلى إقليم بيجمادار الذي يقع شمال جوجام واستطاع أن يسيطر على شمال الهضبة من الشرق والغرب بعد أن سيطر على جنوبها من قبل.

(23) للzureيد من التفاصيل انظر: عرب فقيه، مصدر سابق.
(24) نفس المصدر.
وفي عام 1536 اجتاحت الجيوش الثائرة جوجام للمرة الثانية وكانت قد دخلتها من الشمال وعبرت النيل الأزرق إلى شوطيإ إذا كان عام 1537 عادت إلى هر في أقصى الجنوب الشرقي.

وبذلك سيطرت الجيوش الإسلامية بزعامة قائدها أحمد بن إبراهيم على بلاد الحبشة كله واصبح امبراطورها تعبيراً لا حقيقة لها، وأخذت النصرانية في الانهيار والاندحار تحت ضغط انتصارات المسلمين المتواصلة.

وفي عام 1538 أرسل الإمام إلى امبراطور بعثة طالباً الزواج من ابنته

مهدداً إياه بأنه في حالة رفضه المصاهرة فلن يترك أحداً يستطيع امبراطور أن يلحا إليه، فرفض الامبراطور واغتاظ الإمام وصمم على تنفيذ تهديده فأرسل جيشاً بقيادة قائد عمار النحم مع الجيش الإمبراطوري عند الضفة اليمنى لنهر تيكازي عند مكان يدعى "وج" فسحق الجيش الحبشى وقتل فيكتور الاين الأكبر للامبراطور، كما قتل كل من معه، وأسر ميناس الإبن الثاني، كما أسر عددًا هائلًا من الجند المسيحي، وفي غزوة أخرى هجم القائد عمار على الجزء الرئيسي من الجيش الذي يقوده الامبراطور بنفسه واستطاع أن يوقف به الهزيمة في "سلاوا" بالقرب من مكان المعركة الأولى ففر الملك مع بعض أصدقاءه إلى الجبل صنفرا في إقليم سلامت وهناك طاره أبو رام حاكيم الإقليم حتى وصل إلى نهر تيكازي وعبر النهر مع قلة من أصحابه ووصل إلى إقليم تيجري حيث قضى الشتاء، واستولى القائد عمار على معسكر الامبراطور وغنم جميع مؤنه وحمل معه كل ما وجدته من الذهب والنفاثة.

ولم تكد تنه سنة 1540 حتى كانت جيوش الإمام قد اجتاحت الحبشة كلها وأصبح الامبراطور فاراً طريداً من بلد إلى بلد وهو يبكي ومعه مكة من

(25) عثمان صالح سيي، ص 90 وما يليه.


201
أنصاره الجوع والعطش ويلع عليها الإجهاد والمرض حتى مات وهو في أسوا حالات اليأس والعوز.

لقد تميزت حركة الجهاد الإسلامي التي قادها الإمام أحمد ضد القوى المسيحية في شرق إفريقيا بوجه عام وفي بلاد الصومال بشكل خاص بأنها أكثر عمقاً وأشدّ صلابةً من غيرها من حركات الجهاد الإسلامي في بقية أجزاء القادوة الإفريقية، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذه المنطقة عرفت الإسلام قبل غيرها(27).

ومتتبعاً لخطوات الحرب يستطيع أن يتبين بسهولة أنها كانت حرباً من جانب واحد، أي أن قوة هذا الداعية الإسلامي كانت ساحقة حتى استطاعت أن تجتاح الجزء الأكبر من الحبشة في مدة بسيرة لا تتجاوز العشر سنوات، بينما كانت جيوش الامبراطور تنهار أمام الأمير الذي لم يحدث من قبل مطلقاً وأن هذا الفرار ليدنا على روح اليأس التي استولت على الجماعة المسيحية ممثلة في الامبراطور وطرحها كل أمل في إمكانية المقاومة.

وظاهرة أخرى، يستطيع أن يتبين بسهولة أيضاً وهي ظهور الدافع الديني وتجسمه خلال حوادث هذه الحروب فقد رسمت الصبان على رايات الجيش المسيحى وعلقت على صدور الجنود وظهر القساوسة والرهبان بين القوات الحبشية، في الوقت الذي طرذت راية الإمام في وسطها وعلى حافتها الآيات القرآنية وتعلت صيحات بلا إله إلا الله، محمدداً رسول الله، والله أكبر، وحي على الجهاد.

لقد دفع انتصار المسلمين الساحق المسيحيين إلى اعتناق الإسلام فاعتنقه نسبة هائلة من السكان، وبذلك أصبحت المسيحية بالحبشة بأنهاح لتم تعرُّفه في سالف أطوارها.

(27) عبد الله عبد الرزاق، المسلمون والاستعمار، ص 219.

202
وفي هذه الظروف القاسية التي تدعو إلى البأس، وفي العرش الحبسي، والإمبراطور الشاب جلاوديوس الذي صمم على سحق ثورة الإمام، فعبر إلى تيجري وأمضى الشتاء هناك في جميع الجند وجمع قوة من المشاة سار بها إلى شوا حيث يوجد بها نصر الدين ابن الإمام أحمد الذي كان يقود قوة مكونة من ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة، فلم يقو الإمبراطور على الوقوف أمامه طويلاً وارتدى إلى شرق شوا حيث انضم إليه عدد من الناقمين على الإمام وتحصنوا في قمة جبل في إيفاف وهاجم نصر الدين ولكنه مهين بهزيمة ساحقة وقتل عدد كبير من جيشه.

وفي هذا الوقت وصلت الحملة البندنجالية التي طلبها الإمبراطور لبندنجال قبل وفاته إلى مصدع في 1541 وكان لوصولها صدى كبير على الأوساط المسيحية بالحبشة، وكانت تتكون من 451 من المحاربين المسلمين بالأسلحة والمدفعية الحديثة، فكان من أثر ذلك أن انتصر جلاوديوس في بعض المعارك الصغيرة وكان ذلك في أوائل 1542. وقد عمل إسحاق بحر بخش أمير المقاطعات البحرية على الانضمام إلى الإمبراطور، وانضم إليه بعض الأمراء القدامى وتمكنوا من تلقي مؤازرة بعض قبائل التيجري، ووجد الإمام نفسه مضطراً للحيلولة دون اتصال الجيش البرتغالي مع القبائل المعدية التي تضمر التأييد لملك الحبشة في مقاطعة شوا، وعندما نسبت المعركة مع هذه التشكيلات الجديدة تفوّقت قوات الإمام رغم أنه يواجه قوات تستعمل من الأسلحة المتطورة، لم تشهد الحبشة من قبل وهزمت قوات البرتغاليين والقوى الحبسيّة في المعركة الأولى وأسر قادتهم وفرت الباقون، فشجع ذلك نصر

(28) راجع تفاصيل هذه المعارك في:
الأمير عبد الكريم، "الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا إلى نهاية القرن التاسع عشر" دراسات إفريقية، العدد الأول 1985، المركز الإسلامي الإفريقي، السودان.

203
الدين على أن يشح هجومه من جديد على جنود الامبراطور بقوة هائلة ولكنه أصيب بالهزيمة وقتل عدد كبير من جنوده، وبعد ذلك أصيبت الجيوش الثائرة بضربة شديدة كان وقعا على الإمام أحمد باشا أشد من وقعة على أي أحد آخر، وهي موت نصر الدين مؤناً فجائياً وقبل يوم ذاك أنه مات مسموماً (29).

وأخذت قوات الإمام في الأنهار وانقضت عليه جلالدوس ومعه قوات البرتغاليين في جار جنوب غرب سمن يهومو واستشهد عدد كبير من المسلمين في هذه المعركة وكان من بينهم قائدهم سعيد بن محمد وكان ذلك في يونيو 1542.

وكان لهانين الهمزتين أسوأ الأثر على الإمام الذي سارع إلى العودة إلى الجبال (جبال زوبول) المطلة على وادي الدناكل لكي يعمل على جمع قواته وت ninguém صفوفهم، ووجد نفسه مدفعاً إلى طلب الموت بن والي العثماني في زبيد باليمن وكذلك من شريف مكة فأرسلوا إليه قوة مؤلفة من 900 فارس وعشر مدافع قام الإمام بالهجوم على القوات البرتغالية والحبشية وانتصر على القائد البرتغالي دي جاما وقتيه، وفي هذه المعركة فقد البرتغالين نصف قوتهم وكمية كبيرة من الأسلحة والذخائر (30).

وتوهم الإمام أن مركزه قد توصل ثانية فأعاد الجنود الأثراك والعرب إلى بلادهم وعاد هو إلى مركز قبادته بجوار بحيرة ثانا ولم يكن على بيئة بما أصاب مركزه من ضعف وما تعرضت له قواته من إهانة، وسرعان ما جمع البرتغاليون صفوفهم الباقية مع قوات الامبراطور، وهجمت القوات المتحالفة على الجبهة الرئيسية وأعملت في جنودها القتال واختارت فصيلة منهم بقيادة بدور ليوبي الصوف إلى حيث الإمام نفسه وأطلقوا عليه النار فجرح جرحًا مميتًا ومات هذا

(29) نفس المصدر.
(30) عثمان سبي، ص 60.
المجاهد العظيم، ولكن حركة الجهاد لم توقف بوفاته، بل استمرت المقاومة فترة طويلة قاوم فيها المسلمون هذا المد الصليبي على ديارهم. وظل الصراع والتنافس قائماً بين المسلمين والمسيحيين في الصومال والحبشة واتسع حروب الأخلاق وحلقاتهم من النصارى والبرتغاليين بالطابع الصلبي بغرض التوسع على حساب الشعوب المجاورة حيث حظى امبراطور الحبشة ملكه الثاني بدعم الدول المسيحية له فأخذ يتوسّع على حساب جيرانه من الصوماليين، وفي الرابع الأخير من القرن التاسع عشر صار القرن الإفريقي مسرحاً وهدفاً للصراع الاستعماري خصوصاً بعد انسحاب مصر من الصومال وشرق إفريقيا واعتبار هذه المنطقة أرضياً لا صاحب لها، وهنا بدأ التنافس بين القوى الاستعمارية من أجل تقسيم أملاك الصوماليين بين إيطاليين وإنجليز والفرنسيين طبقاً لقرارات مؤتمر باريس 1884(31)، وظهرت على مسرح الأحداث في هذه الفترة التي تسمى بالصراعات الصليبية شخصية الزعيم المسلم محمد عبد الله حسن الذي أكد ما كان قد بدأه وحققه الشيخ أحمد بن إبراهيم من أمجاد، وقاد حركة نضال وجهاد المسلمين في هذه المنطقة ضد القوى النصرانية من الأحباش والإيطاليين لفترة طويلة من الزمن وسوف تتعرض لهذا الدور في دراسة مستقعة عن مرحلة الاستعمار وحركات التحرر الإفريقية(32).

(31) عبد الله عبد الرزاق، ص 221.

(32) لمزيد من المعلومات عن هذه الشخصية وحركة الجهاد التي قادها، انظر: حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ج، 1, القاهرة، 1960. 205
الفصل السادس

الممالك الإسلامية في الساحل الإفريقي
الممالك الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي (م)

أولاً: التشكيلات السياسية وانتشار الإسلام في الهوسة

تتكون ولايات الهوسة من حزام المسافات الممتدة وسط القارة الإفريقية حتى المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر والواقع بين الصحراء شمالاً والمنطقة الاستوائية جنوباً والذي عرف عند المؤرخين والجغرافيين العرب باسم بلاد السودان، والواقع أن بلاد الهوسة تمثل الجزء الأعظم في ذلك الحزام في المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد والنيل الأبيض غرباً، والواقع أيضاً أن للموقع الجغرافي أثر كبير في تاريخ دويلات الهوسة، فمن ناحية الشمال أصبحت الحدود الصحراوية محطة للاتقاء بين أجناس الشمال والجنوب (1) لذا ارتبط تاريخ هذه المنطقة بمنطقة شمال إفريقيا الذي شهد نوعاً من الاستقرار الاقتصادي والازدهار في الفترة الأخيرة من الحكم الروماني حيث نجحت في حماية حدود ممتلكاتها من الجنوب وذلك باعتبار الصحراء حدود طبيعية يصعب عبورها، ولكن أثناء الحكم البيزنطي ونتيجة لعدم تمكن هذا الحكم من فرض سيطرته القوية على المنطقة استقلت الكثير من المراكز ونتشرت الفوضى السياسية نتيجة عدم وجود سلطة قوية تفرض النظام والاستقرار وقد أدى ذلك

(م) يقصد بالساحل الإفريقي منطقة بحيرة تشاد وحوض النيلerg


209
إلى هجرة الكثير من العناصر البشرية إلى المناطق الواقعة بين حوض النيجر وبحيرة تشاد.

وبعد الفتح العربي للشمال الإفريقي استقر العرب في البداية في مناطق التجمعات السكانية مثل برقة وطرابلس دون أي تدخل في شؤون القبائل الصحراوية وقد تعرض شمال إفريقيا للعديد من الثورات والانقلابات التي قامت ضد تصرف الولاة وكانت سبباً في نزوح الكثير من العناصر البشرية نحو الجنوب وقد اختفت هذه الهجرات في طبيعتها عن الفتح العربي فهي لم تحاول الاستقرار في المراكز والتجمعات السكانية ولم تحاول أيضاً الاستقرار واحتراف مهنة الزراعة بسبب طبيعة حياتهم المعتمدة على التنقل والترحال سعياً وراء الماء والمراعي، وهاجرت نتيجة لذلك أعداد كبيرة من سكان شمال إفريقيا وتحالفوا مع التشكيلات السياسية التي كانت قائمة في المناطق التي هاجروا إليها ويمكننا أن نفترض أن هذه المجموعات البشرية الهجرة اختفت الصحراء في آزام مختلفة واستمرت بين المجموعات البشرية الإفريقية وكان استقرارها سلبياً نتج عنه تأثير واضح في مختلف النواحي، فالكثر من الروايات الشفهية التي تعتبر مصدراً أساسياً في تاريخ بلاد الهوسا وغيرها تذكر التأثير فما بالرواية التي تتحدث عن وقود المرأة في المحاكم وبقصص تلك الملكة دوراً هي ظاهرة كانت منتشرة بين قبائل شمال إفريقيا أكثر منها في المناطق الجنوبية الصحراوية(2).

ومصادرنا التاريخية عن دولات الهوسا في عصرها المبكر تكاد تكون محدودة وقد يكون مرد ذلك إلى أن حركة الجهاد التي قامت مع بدايات القرن التاسع عشر اعتبرت الكتابات الموجودة كتابات غير إسلامية فتم القضاء عليها، أما بالنسبة لما بعد هذه المرحلة فإن المصدار متوفرة نتيجة لذلك الإنجاز العلمي الذي قام به زعماء الجهاد وأتباعهم وأغلب هذه المصادر كتبته باللغة العربية.


210
التي اعتبرت لغة الثقافة في ذلك الوقت، وعلى الرغم من قلة المصادر عن الفترة المبكرة إلا أنها يمكننا أن نعتمد على ما كتبه الرحالة العرب الذين زاروا هذه المناطق أ말 ابن بطوطس الذي تتحدث عن واحدة فقط من ولايات الهوسا المسماة جوبيء (3) كذلك ما دونه لنا حسن الوزان عن بعض هذه الولايات في كتابه (4) كذلك الكتابات الوظيفية التي لم يصل إليها الدمار وأهم تلك الكتابات هي محفوظات ولاية فانو والتي نشرها بالمر في المجموعة المسماة «ذكرى سودانية» ونشرت عام 1928 وقد كتب هذه المخطوطات باللغة العربية لتغطي تاريخ ولاية فانو منذ القرن الخامس عشر الميلادي وهو القرن الذي زار فيه العالم الكبير محمد المغني هذه الولاية وأدخل ما سمي في ذلك الوقت باستعمال اللغة العربية في الأدب الإفريقي (5) وهذه المخطوطات مهمة لأنها تعطي الفكرة عن بداية حضارة الهوسا وتطورها فعلياً تذكر لنا كيف تطورت منطقة فانو من مجرد مركز استقرار إلى القرية ثم إلى المدينة ثم إلى دولة ذلك توضع لنا كيفية معجمة العناصر المهاجرة والكينية التي وصل بها الإسلام إلى تلك المناطق وانتشاره وكذلك التوسع العسكري للدولة بعد تكوين التنظيم السياسي وكيفية امتداد سلطاني لتشمل ولايات أخرى (6).

لقد انتشرت الفوضى في أعقاب الغزو المغربي في بقاع النيجر حتى القرن التاسع عشر وانقلت في ذلك الوقت مركز الثقل السياسي إلى ناحية الشرق حيث تقع بلاد الهوسا في المنطقة المحصورة بين الصحراء الكبرى في الشمال ودولة برنو في الشرق ومنحنى النيجر في الغرب والريو الساحلي لخليج غانا والتوجو.

(3) ابن بطوطس ص 282.
(4) حسن الوزان، ص 172.
(5) لمزيد من المعلومات راجع:
- كايمي، «مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية» ص 15، وما يليها.
Robert, P. 123.
والكمرون في الجنوب ويصل عدد سكانها إلى أكثر من خمسة عشر مليون نسمة، وكانت مسرحاً للصراع بين الدول الإسلامية في الشرق والغرب من أجل السيطرة عليها، وجميع المصادر المتوفرة تتفق مع الأسطورة التي كانت تتحدث عن بداية التكوين السياسي لها والتي تنص على أن أمير تركي من مدينة بغداد يسمى أبو زيد نتيجة الخلاف مع والده فلجأ إلى منطقة بحيرة تشتاد حيث كانت توجد دولة فانو. وفي تلك المنطقة قام الملك بتزويجه إبنته ماجيرا ولكن هذا الزواج عزله عن إتباعه فاضطر إلى الفرار إلى الغرب خوفاً من عقاب الملك لتركه لزوجته في مكان يدعى "برام غابس" وفي المنطقة التي تدعى غايا قابل أحد الحدادين الذي صنع له سيفاً حسب مواصفات خاصة، وبعد ترحال طويل وصل إلى مكان انشققت فيه الماء عن السكان وذلك بسبب وجود حية كبيرة أطلق عليها الرؤية اسم "سركيا" وهي كلمة تعني بلغة الهوسا الزعيم، وتمكن أبو زيد من قتل تلك الحية بواسطة سيفه القوي وشجاعته التي أشادت بها الأسطورة وكانت النتيجة أن زوجته الملكة صاحبة القرية المسماة دوراً مكافئة له وأنجبت له ابناً سمي باوا الذي خلف والده في حكم القرية وانجب ست أولاد اسموا ولايات الهوسا الستة وهي: كام - رانوا - كاستنا - زاوزو - زايا - جوير ثم تأسست الولاية السابقة والتي عرفت باسم بيرام، وعرفت هذه الولايات السبعة باسم هوسا بكاوي كما كان أبو زيد قد تزوج من جارية وذهبها لزوجته فأنجب منها سبعة أولاد اسموا سبع ولايات أخرى عرفت باسم بنايكةوي وهذه الولايات هي: كي - جوالي - زاماغارا - جوكن - نوبي (7) ومن الواضح أن هذه الرواية تجسد الترابط بين المهاجرين من شمال إفريقيا وبين الشرق الإسلامي والسكان الأصليين، ثم التقدم الحضاري الذي تميز ظهور لغة الهوسا التي صنفت في امتداتها إلى مجموعة اللغة الحامية التشادية، وتفا ظهور اللغة بناء نظام دولة المدينة والذي ظهر في شمال نيجيريا بحيث كونت كل مدينة قوة سياسية واقتصادية متصلة عن بقية المدن الأخرى على الرغم من إن العوامل
الجغرافية قد وحدت ببنها، ثم بدأت تلك الولايات في مدن نفوذها السياسي والاقتصادي على مناطق أخرى مجاورة ببدأ سكانها في استخدام لغة الهوسا كلغة ثانية ومنها تكونت الولايات الثانية الأخرى والتي عرفت باسم "بيزا بكاري" والمعلومات المتوفرة عنها في بدايتها لا تعد إلا من كونها مجرد أسماء الملوك الذين يرجمون في أصولهم إلى ما ورد في الرواية، وعن طريق المقارنة بين الروايات المختلفة يمكننا تحديد تاريخ معينة ومعالجات قريبة إلى المناطق وخاصة في الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر، فمثلاً حددت سنة 999 م تأسيس دولة كانو وبداية حكم ملوكها، وحددت سنة 1000 م لبداية تاريخ كاستينا، هذا كما تقارب أعداد الملوك في الولايات مثلاً في كانو ثلاثة وأربعون ملكاً وفي كاستينا ثمانية وثلاثون وفي رانو أربعين وفي زمغاوا أثنا وأربعون(8).

مع بداية القرن الرابع عشر كونت كل من ولاية كانو وكاستينا الإطار العام لدولة الهوسا فاستمرت الأولى بالتجارة والثانية بالثقافة والعلم وكثرة العلماء الوافدين إليها، واعتمدت جوبيرو في الشمال على الزراعة. وهنا بقية الولايات، كل واحدة منها اشتهرت بنوع معين من الحياة، وبالرغم من ذلك فإن بعضها لم تصل إلى مرحلة الاستقرار فكثرت فيها الفلافل والاضطرابات، ويعتبر القرن الخامس الميلادي مهما بالنسبة بتاريخ بلاد الهوسا ومرد ذلك إلى زيادة الاتصال بالعالم الخارجي وإلى بداية انتشار الإسلام على الطريقة الصحيحة. ورغم أن دخول الإسلام إليها لم يحدث تحديداً دقيقاً غير إنه من المسلم به إنه حدث قبل نهاية هذا القرن وقد جاء من جهة الغرب وليس من الشرق كما هو الوضع في منطقتي كانو ويرنو ويرجع الفضل في دخوله إلى عامل التزوح والهجرة حيث نزح إليها جماعة الونجراوه Wangrawa(9)، كما يعود الفضل في


(8) كاثي، ص 16.

214
هذا المجال أيضاً لقبائل الفولاني وهي من القبائل الكثيرة العدد في إفريقيا عامة وغرب إفريقيا خاصة وأصبحوا تابعين لبريطانيا غانا ثم مالي وبعد سقوطها خضعوا لبريطانيا السنغالي وبعد سقوطها هي أيضاً عقب الزحف المراكشي عليها اندفعوا نحو الشرق واندسا كراعة بمحاصرتهم بين القرى الزراعية ونشط تجارتهم في البحر والبنادر، وما أن جاء القرن السادس عشر حتى ازدادوا قوة في إمارات الهوسا واستقر بعضهم هناك واهتموا بشر الإسلام والزراعة وكانت الأراضي الفسيحة التي تكون منها إمارات الهوسا مناطق عظيمة الخصوبة فتدفقت الثروات من المحصولات الزراعية التي ازدهرت بها المنطقة، وهكذا كانت هذه القبائل متلاقحة في شتى أقاليم الهوسا وفي إفريقيا عامة ومنهم من كان يشتغل بالتجارة فتكثى بتجارته حدود ولايته إلى أخرى من هذه الولايات وبفضل أخلاقهم الطيبة أصبحوا محبيبين في البقاع التي ينزلون بها(10).

ومن المعروف أن أول ذكر للإسلام جاء في مخطوط كانو السابق الذكر والذي ظهر في عهد الملك ياجي 1349 – 1385 حيث أوضح أن بعض عناصر الماندي من مالي قد أتبعوا الملك ياجي بأهمية العقيدة الجديدة كما أورد المخطوط أيضاً أن تلك العناصر كان على رأسها عاليم اسمه عبد الرحمن زغيب وكان ذلك في عام 1380، وبعد سنة 1381 أقيم في كانو أول مسجد في ولايات الهوسا، كما أوضح المخطوطة أن اعتناق ياجي للإسلام قوي بممتعة شديدة من قبل رجال الدين الوثنيين ولم يخفف من ذلك إلا الانصارات التي حققتها ضد معارضته.

والواقع أن انتشار الإسلام كان انتشاراً بسيطاً في بدايته واعتمد على عامل الإقناع الفردي بدليل أن خليفة ياجي لم يحول اسمه إسلامياً بل حمل اسمًا وثنياً، ويعتبر وصول الملك عمر 1410 – 1431 نقطة تحول رئيسية بالنسبة

(10) إبراهيم جوب، ص 23 – 14.

215
للإسلام حيث قام بكسر كل التماثيل التي ترمز إلى الوثنية. وفي عهد خليفته يعقوب 1431-1463م انتشرت المساجد في كثير من القرى، ووصلت هجرات كثيرة من الفولاني والتي ساهمت في الأخرى بدور كبير وواضح في انتشار الإسلام وقد أوضح الدراسات التي ظهرت حول مخطوط كانو ذلك الصراع الذي كان على أشد واجيال عديدة بين الوثنية كديانة تقليدية للإفريقيين وبين الدين الجديد المتمثل في الإسلام (11).

وبابتداء من القرن الخامس عشر بدأت المنطقة تحظى باهتمام عدد من علماء شمال إفريقيا، وفي الربع الأخير من نفس القرن ظهرت فيها حركات إصلاحية على يد بعض المصلحين ثم تطورت حركة الإصلاح هذه بوصول محمد بن عبد الكريم المغتلي إلى المنطقة والتي نابتها العلمية وتأثرها الثورية وقد تالت مؤلفاته شهرة واسعة ولاقت أفكاره الإصلاحية في السياسة والاقتصاد رواجاً وأرضتاً خصبة (12). وقد انتقل كانو في عهده إلى مصاف الدول وادت أدواراً خاصة تمثلت في تأثيرها الخارجي وفي وصولها مرحلة من الزعامة بين الولايات الأخرى، وأطلقت الرواية على المغتلي لقب "الشريف الولي"، ويقال إنه أحضر معه بعض العلماء وإنه جاء من المدينة المنورة واختار كانو لأن تربيتها تشبة تربة المدينة (13) وهنالك تبدو المبالغة في هذه الرواية فالمعروف أن المغتلي كان في مدينة توات في الشمال وكانت زيارته لغرب إفريقيا في فترة سابقة لذهاب للحج.

ولا شك أن دور هذا العالم المسلم في منطقة جنوب الصحراء كان دوراً هاماً حيث يعتبر من الدعاة الذين أثروا تأثيراً واضحاً في سير خط الإسلام ووجد

Robert, Histoire de L'Isam, P. 129.

(11) كاثي، ص 17.

Carbou, P. 223.

(12) (13)
في الحاكم محمد رونقا 1463 - 1499 تلميذاً مطيعاً لتقليد الإسلام مما أتاح للملالي حرية الحركة والعمل وتعدد نشاطه في الدعوة ووسع وتشر المعرفة فقد ازداد عدد العلماء زيادة كبيرة، كما كان له تأثير كبير على النواحي السياسية والإدارية والقانونية حيث استعان به محمد رونقاً لإعداد دراسة للقوانين والأحكام الدستورية لدولته فكتب له المغيلي رسالة شاملة عن واجبات الملك المسلم، واعتبرت هذه الرسالة أو وثيقة كتب عن بلاد الهوسا باللغة العربية، كما كتب بحثاً شاملة عن تصويره لهيكل الحكومة وضمن آراءه في كتاب بعنوان "نافال الدولة فيما يجب على الملوك". وقد لاقت هذه الآراء قبولاً حسناً لدى الحاكم الذي قام فعلاً بتنفيذها في حكومته(14)، كما أمر الملك ببناء مسجد لصلاة الجماعة. وإجمالاً تضيف القول إنه في عهد محمد رونقا أصبح الإسلام ديناً رسمياً للدولة وسمي الحكام بأسماء عربية إسلامية، وبدأ الإسلام في الانتشار تدريجياً ليشمل عدد كبير من رعايا الدولة مما انتشرت الثقافة العربية والتي كانت عنصرًا مكملًا لانتشار الإسلام.

أما عن كاستينا فإن الإسلام وصل إليها في نفس الوقت الذي وصل فيه إلى كاستينا وأول الحكام الذين أسسوا فيها حسب الرواية محمد كورا الذي حكم حتى عام 1430 حيث انتصر على الوثنين والمسلمين بل انتصراً لفترة طويلة وفي الوقت الذي جاء فيه الإسلام مبكراً بالنسبة لكاستينا فإنه انتشر بشكل أسرع في كثير من الولايات الأخرى في ولاية أوردو وردت قائمة لمملوكها وكان أول من أسلم منهم الملك الرابع والعشرون اسمه عليو وهو الذي حكم أواخر القرن السادس عشر.

وارتبط الإسلام بظاهرة التجارة وتطورها ويدبر ذلك واضحًا من التقدم الملموس الذي حدث في المجتمع والذي أصبح يمثل مركز هام من مراكز التجارة جنوب الصحراو وعلل أول هذه التطورات حدثت في القرن الرابع عشر.

(14) كاثي، ص 17 - 18.
عندما افتتح الطريق المباشر بين كانو ومدينة غات وهي طريق ذات أهمية كبيرة تمثلت في تقصير المسافة واحتكارها، وتلا هذا التطور الطريق المعروف طريق الأربعين وهو الطريق الرابط لمصر عن طريق النوبة ثم دارفور ف المناجم الذهب في منطقة الأشانتي وقد افتتح بعد توقف استمر لمدة ثلاث قرون بسبب الصراع بين المسلمين والدولة المسيحية في أعلاى النوبة، كذلك لا ننسى أن الطرق التجارية المتصلة بـ نهر النيل في شمال إفريقيا قد تدهورت بعد الغزو المغربي للسنجابي وقد ساعد ذلك على أن تتحول الطريق نحو الشرق منذ عام 1591 مما زاد في أهمية كانو وأصبحت تتمثل أهم مراكز التجارة في السودان الغربي م(15).

وقد أثر ذلك على ولايات الهوسم الآخرين التي أصبحت محور أطماع في أوقات مختلفة منذ منتصف القرن السادس وقد كانت ولايات الهوسم في هذه الفترة تمر بمرحلة من الرخاء الاقتصادي فأصبح الاستيلاء عليها مغربياً، ففي عام 1513 أرسلت السنغالي قواتها إليها وتمكن أسـكا محمد من السيطرة عليها وفشلت الولايات في الدفاع عن نفسها وسقطت الواحدة تلو الأخرى وقتل ملوك كل من جوبي وكاستينا وزاوزو وأسرملك كانو بعد سقوط دولته ولكنه رجع إليها بعد أن تعهد بدفع الضرائب والتي كانت عبارة عن ثلث دخل البلاد السنوي، وأصبحت الولايات الأخرى تابعة لاسـكا محمد وعين على كل منها أمير من أتباعه وأرغم كاهل السكان بالضرائب م(16).

وتمكن محمد كانا الذي تعاون في بداية الأمر مع اسـكا محمد من أن يقلب عليه ويهزمه خلال ثلاث سنوات من المقاومة تمكن من صدّ محاولات كل من السنغالي وبرنزو وكون لنفسه دولة كبيرة على حساب أملاك السنغالي (15) لمزيد من المعلومات عن حركة التجارة والطرق التجارية في هذه المناطق انظر: ـ إبراهيم حركات دور الصحراء الإفريقيا في التجاردة ؛ ص 37 وما بليها. ـ حسن الوزن، ص 182. ـ 218
امتدت من أطراف الصحراء حتى نهر النيل، ومن الملاحظ أن تكون هذه الدولة اعتمدت على قوة الشخصية لذا فإنها انهارت بسرعة بمجرد وفاتها في عام 1520، ثم تحررت بقية الولايات من سيطرة سنغاي فتحررت كاستينا في عام 1554، واستطاعت ولايات الجنوب خاصة ببناء علاقات تجارية مع البرتغال، كما تميزت هذه الفترة بظهور ونمو مدينة تمبكتو حيث طغت على بلاد الهوسا من الناحية الثقافية.

ومن نتائج الصراع الذي وقع بين ولايات الهوسا بدأت تعيش مرحلة من الضعف الواضح كما أن الكثير من القبائل الموالية لها أخذت تتغير تدريجياً.

ثانياً: انتشار الإسلام في كانم برنو وواداي

قامت مملكة الكاينم برنو شرقي بحيرة تشارد وامتدت في الشرق حتى بحر الغزال وشملت واداي في منطقة تشاد والمناطق الواقعة إلى الغرب من بحيرة تشاد والتي تعرف قدماً بإقليم برنو بجمهورية نيجيريا حاليًا ولذلك عرفت في التاريخ بمملكة كانم- برنو (17). وقد استوعبت العديد من الشعوب المختلفة التي كانت تمثل أمة لها حضارة وتراث، وأهم القبائل التي تكونت منها هي الصدم والزغاوة والبلولا والكانوروي والبدا والعرب. وكان امتد ضر وابست نسبة إلى جنس كما ذكر البقعاوي وابن خلكان وقد اختفى البايونيون في تحديد نشأتها في الوقت الذي كان يقطنها الزنجي ببايونيون حكمها، وقد ذكرت موسوعة كامبرنج أن ظهورها ارتبط باستيكان الرعاة في الصحراء وخاصة الزغاوة في ولايات الزنجي الصغيرة التي كانت قائمة وكان ذلك في أوائل العصر الإسلامي (18). وهذه من يرى بأنها قامت في القرن الثامن الميلادي وحددها

Carbou, P. 219. (17)
Marc, P. 130. (18)
البعض بسنة 85 م بينما حددوا آخرون بعام 800 م في منطقة محصورة بين النيل والنيجر بالتحديد شمال بحيرة تشاد(19)، بينما تفيد روایات كانم بأن بطلًا عربياً من اليمن هو سيف بن ذي يزن سيطر على جماعة من الرجل في الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ثم بسط وذرته نفوذهم على عدد آخر من القبائل أصبحت تعرف باسم الكونري أو شعب كانم، وقد ظلت هذه الأسرة السيفية أو الهزينة التي قامت في أوائل القرن التاسع الميلادي تحكم كانم نحو الف عام أي إلى حوالي 1836 م(20).

ونحن نتفق مع هذا الرأي الذي يقول بأنها قامت في القرن التاسع الميلادي وذلك لأنه من المعروف أن هذه المملكة قد قامت عقب زوال مملكة الزغاوي التي نشأت خلال القرنين السابع والثامن.

وقد ورد ذكرها في أغلب كتب الرحالة والمؤرخين العرب والمسلمين، ويبعد مما أورد بعض هؤلاء أن التوثيق كانت تسودها حتى مطلع القرن السادس الهجري وتمنع كانم بموقعها الجغرافي الذي كان ملتقى لعدة طرق تجارية ثم تأثرها بالحضارة الإسلامية المحيطة بها من كل جانب فقد وصل منذ وقت مبكر إلى مقرها من منها عقبة بن نافع الفهري، كذلك هاجر إليها الأمويون الذين هربوا من تبع العباسيين لهم و تعرضوا لهجرات عديدة من شمال إفريقيا، وهكذا عن طريق هؤلاء، وأيضاً التجار يستطيع القول أن الدين الإسلامي قد أخذ طريقه إليها بالطرق السلمية، وتؤكد المصادر التاريخية دخوله على أيدي عناصر عربية مهاجرة وفي فترة مبكرة حيث استقرت فيها جاليات إسلامية كبيرة واكتسبت أهمية بحكم صلاتها بالتجارة الخارجية، وقد حملت قوافل التجار عن طريق فزان وكوار وبوسطة هجرة من جماعة زغاوة أصحاب السيادة في دارفورد.

(19) نفس المصدر، ص 129.
(20) أمين الطبي، وصول الإسلام وانتشاره في كانم وبرنو، مجلة الدعوة، العدد الرابع 1987، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية، ص 180.

220
ورداً قبل قيام دولة الفور، هاجرت هذه الجماعة الزاغوية من مناطقها ثم دخلت الكانه وأنشأت فيها دولة صغيرة.

ويعتبر شعب الزاغوة من أقدم الشعوب التي وصلت إلى بحيرة شناد ونجموا بحكم تكاثرهم في المنطقة من إنشاء مملكة واسعة الأطراف امتدت فيما بين تشاد غرباً إلى النوبة شرقاً. ولكن الأصول البعيدة لهذا الشعب مثار خلاف وجداول بين المؤرخين فرغم أن أحياناً كثيرة إلا أنها غالباً نحن نجد ذكرهم في كل ما يتصال بانتشار الإسلام في المنطقة دون أن نعرف شيئاً محققاً عنهم، وقد ناظر حسين مؤنس هذه القضية مناقشة علمية جادة توصل من خلالها إلى أن هؤلاء كانوا في أصولهم البعيد فرعاً من قبيلة زوارة كما يسهمها ابن خلدون وزاغوة هؤلاء يكتبون أحياناً زوارة وأحياناً أخرى زواوة وربما زواره وكلها تحريفات لاسم الأصلي، وقد هاجرة زاغوة من مناطقها على ساحل البحر المتوسط إلى بلاد الجرير جنوبى تونس ثم إلى طرابلس ومنها أخذوا طريق فزان وكوار إلى إقليم تشار ثم اتجهوا شرقاً فاستقرنا في إقليم دار فور وأعطوا اسمهم لجزء كبير منه، وقد دخلوا هذه الناحية مسلمين حاملين معهم جانبياً كبيراً من الثقافة العربية الإسلامية فأنشأوا المساجد في المناطق التي وصلوا إليها وأصبحوا مركزاً من مراكز الإسلام وانتشاره في السودانين النيلوي والتشادي.

وقد أتيح لها بعد أن استقرت في تلك الناحية تجمع بين الطريقين اللذين اتخاذهما الإسلام في الوصول إلى السودان الشمالي وما الطريق الآتي من مصر والآخر خلال فزان وكوار، ومن ثم فقد كان لهما أثر قوي وهام في تقوية أكبر تيار فكري ثقافي دخل القارة في تاريخها الطويل وهو تيار الإسلام وحضارةه.

---

(21) سعيد الجندي، الحياة السياسية في تشاد منذ الاحتلال الفرنسي حتى نهاية حكم تمبلي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة قارونس - بنغازي، 1989، وص. 18.

(22) حسين مؤنس، ص 99.
وهكذا نستطيع القول أن الإسلام بدأ وصوله إلى كأم منذ أن فتح العرب المسلمين فزان وكوار ومنها أخذ الإسلام في الانتشار رويداً رويداً في السودان الأوسط عن طريق الجاليات المهاجرين والتجار المسلمين.

إن تاريخ الأسرة السيفية المالكة في كأم من حوالي 800 - 1846 يوضح أن أول من أسلم من ملوك هذه الأسرة هو حميج بن سلمان 1085 - 1097 الذي أخذ هو وسلالته كاملي من بعده على عاقتهن نشر الإسلام بين رعاياهم ويلاحظ أنه ابتداء من منتصف القرن الثاني عشر كانت الزوجات الرئيسيات لملوك كأم مسلمات كما يستند من اسهامهن وأسماء آبائهن.(23) وكان انتشار الإسلام رائعا حامداً في هذه الفترة حتى عهد السلطان دونما ديبلمي 1210 - 1248 حيث أخذ الإسلام بشق طريقه بقوة بين عامة الناس. ويمكن القول إن إمبراطورية كأم قد بلغت أقصى اتساعها في عهد، وقد أشتهر دونما بأنه غازياً وفاتحاً وناشراً للإسلام حيث قام بغزوات ضد القبائل القاطنة حول بحيرة تشاد، كما تعززت في عهده العلاقات مع الدول الإسلامية بشمال إفريقيا حيث أسس حوالي عام 1244 مدرسة في القاهرة لإقامة طلب كأم الدارسين فيها.(24) أما عن التأثير الإسلامي فقد اتفص على كافة الأوساط حيث أدى انتشاره بالكيفية إلى رسوم الإيمان والعرفة الصحيحة في ملب الناس وبالتالي جلب روح الإسلام ومبدئه وتعاليمه السمحاء محل المعتقدات الوثنية الفاسدة فتم تدريجياً القضاء على العادات والتقاليد الوثنية المؤثرة في المجتمع الكامي تأثيراً سلباً، وانتشرت اللغة العربية لغة الحضارة والثقافة والمدنية بين المواطنين وأصبحت هذه اللغة هي الرسمية للدولة طوال أعقابها التاريخية الطويلة وانتشرت المدارس وطرق انتشار اللغة والثقافة العربية بشكل واسع وأقبل الناس على التعليم دون تردد وأصبحت المراسلات والوثائق والمحفوظات التي تمتل

(23) الطبى ص 185.
(24) نفس المصدر السابق، ص 187.

222
تاريخ هذه المنطقة وحضارتها تكتبت بلغة عربية وقد بلغت درجة كبيرة من الجودة وحسن التعبير وسلامة اللغة والخط.

وقد ساعد على ذلك في حقيقة الأمر وجود العلماء والمؤرخين والمهتمين بالجوانب الثقافية بكثرة أمثال أحمد بن فروخ مؤرخ البلاط الكاباني زمن السلطان إدريس ألوما 1940 - 1603 وأحمد بن ماتي الذي كان له دور كبير في نشر الإسلام وترسيخه في المنطقة والشيخ سفره عمر بن عثمان والشيخ محمد الكاباني الذي حكم ما بين سنوات 1811 - 1835 والذي يعتبر من أبرز علماء المالكي في إفريقيا وهو من مواقد فزان وكان له دوراً واضح في نشر الإسلام بكمان التي استمر بها فترة وكان له الفضل في الدفاع عنها ضد زحف الفولاني حيث نظم قوة من أنصاره لوقف التقدم الفولاني وأصبح منذ تلك الفترة في نظر الكابانيين البطل المنقذ وهذا ما أوصله إلى سلسلة الحكم فيها.

كما كان للإسلام دوره الواضح في تغيير الأعراف الاجتماعية والسياسية المعروفة والسائدة فقد كان سلاطين كابام وحكامها يتورثون الحكم عن طريق الأمهات شأنهم شأن الكثير من المناطق الإفريقية الأخرى وكان يطلق على هؤلاء السلاطين (الأمات) فعرفت المنطقة العديد من هؤلاء السلاطين الذين نسبوا إلى أمهم أمثال عثمان بن زينب وداود بن فاطمة ودونمة بن ديانا وإدريس ألوما بن عائشة، ولكن بانتشار الإسلام وتعاليمه بينهم أصبح الميات يتورثون الحكم عن آبائهم كما أخذ في الاعتبار أصلح الأبناء وليس أكبرهم كما أخذت الشورى طريقها إلى الحياة السياسية حيث وجد في نظامها السياسي إلى جانب السلطان مجلس شورى عرف باسم مجلس الأكابر أو مجلس أرباب الدولة الذي يتكون من إثنين عشر عضواً وكان يناقش أمور الدولة أثناء السلام والحرب.

(25) سعيد الحنيدي، الحياة السياسية في تشاد، ص 24.
(26) نفس المصدر.
(27) نفس المصدر، ص 25 - 26.
كما كان للإسلام تأثيره الواضح على سلوكات الأفراد من حيث آداب الحديث والملبس والمأكل والاحترام المتبادل وحدهم على مساعدة الفقراء والمحتجزين، وأداء الزكاة، كما أبلغ الأعراف الموروثة في التبادل والتعامل التجاري حيث أبلغ نظام الربا وقضى على ظاهرة الغش وغيرها من المظاهر السيئة المعروفة في مثل هذه المجتمعات.

لقد بلغت الإمبراطورية من الاستغلال والقوة في المنطقة ما لم تبلغه أي إمبراطورية أخرى خاصة في عهد السلطان دونما ديبالي، ولكن كما هي الأحوال دائما تتغير ولا تستمر، بدأت هذه الدولة تواجه الكثير من المتاعب بعد عهد دونما بسبب تنازع الأبناء واستقلالهم في الولايات مما أدى إلى تدخل قبائل البلالة في الأراضي الواقعة جنوبى كامان والسياح في ذلك يعود حسب رأى Moni مؤرخين المرحلة إلى قيام السلطان دونما بتدبير شيء مقدس يدعى مونى الذي كان يشكل عنصرًا أساسياً لعبادة ملكية منذ مرحلة ما قبل الإسلام وكان خاصًا ببني سيف الذين عظموه ووضعوا في مخبأ لا يجوز فتحه وكانوا يرون أن انتصارهم يتوقف عليه ولما فتحه أغضب ذلك فرعة من الأسرة الحاكمة عرفت فيما بعد باسم البلالة الذين رأوا أن فتحه وتدبيره كان يعني التخلي عن قدرية الملوك ويدو أن السلطان دونما بتدبيره له أراد إزالة أثر من آثار الوضعية في كامان إسوة بما فعله المسلمون بالأصنام في مكة المكرمة عند فتحهم لها وهذا دليل على ما أشار إليه الكثير من المؤرخين من أن دونما هو أول مسلم صحيح من ملوك كامان.(28)

كما واجه سلاطين كامان في أوائل القرن الرابع عشر صراعًا شديداً من الشعوب غير الكونية جنوب بحيرة تشاد وغربها وهي الشعوب المعروفة باسم ساو وقُتل في هذا الصراع أربعة من ملوك كامان(29) وفي النتيجة للمشاكل والصراع

Robert (B) Histoire de L’Islam, P. 135.
(28) الطبيبي، وصول الإسلام، ص 188.
(29)
الداخلي في الدولة، ونتيجة للحروب التي استمرت دون انقطاع طوال معظم النصف الثاني من القرن الرابع عشر أخذت أحوالها في التدهور والانحطاط خاصة بعد استيلاء البلاطة على مدينة جيمع والتي كان من تيجتها هروب السلطان عمر بن إدريس (1386-1391) ناحية الغرب من بحرة شاد حيث تزخت إليها أيضاً جماعات كبيرة من كاتهم Kaja استقرت بمدينة كاجا حيث عين كاجا Kaja. منذ بداية الصراعات والاندلاع الثورات أي منذ نهاية القرن الثاني عشر حيث أخذت تستقر في إقليم برنو.

وفي أواخر القرن الرابع عشر استمر الصراع بين أفراد الأسرة المالكة في برنو مما دفع بالبلاتة وغيرها للانقضاض عليها ولم تستقر الأوضاع إلا في عهد علي حاجي الصغير 1476-1503 حيث تمكن من إنهاء هذا الصراع وانه تط Gazetteur عام 1484 عاصمة مسترورة جديدة في جازارجيو أقام بها سلاطين برنو في القرن الثلاثة التالية، منها اقامتهم إمبراطورية كات- برنو الثانية، ويعتبر السلطان علي حاجي المؤسس الحقيقي لها وواحدة من أعظم سلاطينها الثلاثة مع دونا ديالامي وإدريس علومه حيث ازدادت في عهده التأثيرات الإسلامية وأصبح للعلماء والفقهاء مكانهم المروعة في الدولة، كما قام بإنشاء لقب خليفة وحذاء حذوه فيما بعد بقية السلاطين. وفي عهد خلفه إدريس كات جارماني 1503-1526 أعيدت كات وأصبح زعماء البلالة خاضعين له لتقسمت هذه الإمبراطورية الثانية وأصبحت ذات شأن وانت تجدها شملاء الصحراء الكبرى وغربي ولايات الهوسا وشرقًا بحيرة تشاد وقد ذكر هذه الدولة الكثير من الرحالة العرب الجغرافيين أمثال ابن سعيد الغزيري والمقرزي وإبن خلدون والحسن الوزان الذي زارها في بداية القرن السادس عشر (31). وقد تكونت هذه الدولة الجديدة من نفس القبائل التي تكونت منها

(30) نفس المصدر، ص 189.
(31) حسن الوزان، ص 184.
دولة كان سابقاً، وقد اهتمت هذه الدولة بالتجارة وكان القائمون عليها من العرب الذين كانوا يمثلون فترات في بلاد كنام ووصلت الدولة الجديدة إلى درجة متقدمة من التطور السياسي، وقد اندهش الرحلة العرب الذين زاروها من وجود نظام سياسي أرقي بكثير مما كان في الممالك السودانية الأخرى، ولا شك أن نظام الإقطاع كان منتشرًا فيها وكان ملوكها يسيمون أنفسهم (ماي) كما كان الحال عند الكاناميين وتعني الزعيم وقد استمرت هذه التسمية حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما توفي آخر حكام أسرة سيف عام 1746 ثم أخذ الحكم يلقبون بلقب الشيخ وهو اللفظ الذي لقب به محمد الأمين الكاني مؤسس الأسرة الجديدة التي قضت على أسرة السيفيين.

يعتبر القرن السادس عشر هو أزهى العصور التي مرت بها الدولة ولا سيما الفترة التي حكم فيها إدريس علوم الذي يعتبر أهم حكام الدولة وقد خاض العديد من الحروب لتشتيت حدود دولته وقطع إلى الذين كانوا يغيرون عليها، كذلك قام بأداء فريضة الحج وشجع المسلمين على تأديتها، وعُمومًا كانت قوافل حجاج كنام برتع إلى مكة تذهب عن طريق السودان ومصر (دراب الأربعين) وكانت تلك القوافل محلة تقدير وإعجاب لكثيرها حتى احتتاج لإقامة مأوى لها في مصر. كما قام بعض الاصلاحات كالتأكيد من جديد على تطبيق أحكام الشريعة ونقل السلطة القضائية من أيدي رؤساء القبائل إلى القضاة وقام بتشييد المساجد من اللين، وإجمالاً تستطيع القول أن المملكة قد ساد فيها بحلول القرن الخامس عشر نظام التعليم الإسلامي وازداد عدد الطلبة منذ عهد السلطان علي جاجي فانشئت المدارس واشتهرت من بينها مدرسة الشيخ أحمد فاطم ومدرسة كالومباردو التي تقع على بعد خمسين ميلاً من العاصمة والتي تعتبر مركزاً لنشر الطريقة القادرية والتي كان لها دور كبير في نشر الإسلام في المنطقة وانتشرت فروعها وتنقل علماء ودعاء الطريقة بين مناطق

(32) سعيد الحسنيري، الحياة السياسية في تشايد، ص 23.
الساحل الإفريقي وكان لهما تأثيرهما المعنوي والثقافي لفترة طويلة (33).

وفي القرن الثامن عشر ظهرت مدارس أخرى في مصر وسوريا، وقد اجتذبت إليهما الكثير من المسلمين من بقية المناطق الأخرى، وكان لهذه المدارس صلة وعلاقة بالجامع الأزهر وقصدها علماء آراؤك وأندلسيون استهروا بتعليم الدراسات القرآنية والفقه، واحتفظت برؤها بمكانها في مجال تدريس العلوم القرآنية إلى عهد قريب، ويفضلها مع بقية عوامل انتشار الإسلام الأخرى تقابل عامة الناس الإسلام والتزموا بتعاليه أكثر من غيرهم (34).

وفي القرن السادس عشر تمكن الدولة من بناء علاقات ودية وتجارية مع الدولة العثمانية عن طريق حكم فزان، كما بدأ أيضًا علاقات تجارية مع دولة المغرب الأقصى خاصة في عهد المنصور ملك السعديين وأغلب هذه العلاقات تمت في عهد إدريس سلطان حفص بن محمد بن عبيد الرازي، إلا أنه بعد وفاته تولى عدد من الحكام الضغط والتنافس والصراع، ومع بداية القرن السابع عشر بدأ الضعف يدب في جسم الدولة وإن كان الملك علي ابن الحاج عمر 1645-1685 الذي اعتبر من أهم السلاطين بعد إدريس والذي وصف بأنه محاورًا قديماً وأدى فريضة الحج ثلاث مرات وقد تمكن من إلحاق الهزيمة بالطوارق أكثر من مرة.

وفي نهاية النصف الثاني من القرن الثامن عشر وفي علي بن الحاج حمدون تعرضت المملكة للغزو الغولياني ونشبت بين الطرفين معارك وحروب طاحنة تمكن من خلالها الغواليون من الاستيلاء على أغلب مناطق المملكة إلا أن الشيخ محمد الكاتمي تمكن في عام 1811 من وقف هذا الزحف معتمداً على قوة تكوينها من القبائل العربية ولكانمو، ثم أخذ الكاتمي في تنظيم

(33) كمال الدشير، دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان، ص 37.
(34) أمين الطبيبي، وصول الإسلام، ص 190. 

227
شؤون الدولة حيث قام بتحصينها وشيئ العدد من المباني ودور العلم، كما
شهدت كامن في هذه المرحلة نشاطاً استثنائياً أوربياً واسعاً وكان من الممكن
أن تستمر قوة الدولة وتطورها لولا تعرضها في عام 1893 للاستغلال خارجي
عرفته منذ تأسيسها وهو غزو الأمير رايع بن فضل الله السوداني لها حيث
تمكن بفضل جودة أسلحته وتنظيم جيشه من الاستيلاء على الإمارات الصغيرة
 التابعة لمملكة كما استوى على بارقي و كان عام 1893 بهذا الاستيلاء تمكن
من السيطرة على مساحة كبيرة من الأرض تمتد من دارفور شرقاً إلى غرب
بحيرة تشاد، وهكذا تم القضاء على مملكة كامن التي عاشت ما يقرب الألف
عام (35).

أما وادي ف فهي منطقة إسلامية كانت تشمل الطرف الغربي من حوض بحيره
النخال ونهيراته المتعددة وتمتد شرقاً وشمالاً وشرقاً مكونة حاجز بين كردفان ودارفور
في الشرق وبلاد الكان في الغرب وتمتد شرقاً حتى السفوح الجنوبية لجبال
تسبت ويفي الآن جزء منها بجمهورية السودان والجزء الآخر في جمهورية تشاد.
أما سكانها فهي خليط من مجموعة قبائل ومناطق إلا أن قبائل النجور هم
أول من حكم هذا الإقليم ثم أصبح سكانها ينقسمون إلى مجموعات مختلفة
منها مجموعة سودانية مثل الزغارة والبيجي والغناية وفروع ينجلون لغات سودانية
 قريبة من لغة النوبة، ثم جماعة الأفارقة وأهمها الكتروبين والتبود وهما
المعروفين بالبدو وأخيراً جماعات العرب ويمثلهم أولاد سليمان وعرب
الشوا (36).

وهناك اختلاف حول مدلول لفظة وادي ومصدر التسمية إلا أن هناك

(35) لمزيد من المعلومات عن سقوط كامن وحروب رايع في المنطقة راجع:
- سعيد الحنديري، "الحياة السياسية في تشاد"، ص 27 وما يليها.
(36) حسين مؤسس، ص 101.

228
اتفاق على أن اسمها السابق هو دار صليح، نسبة إلى صالح أو صليح مؤسس الحكم العباسي فيها حيث توارث أبناءه من بعده العرش.(37)

ارتباط وادي كغيرها من المناطق الإفريقية الأخرى بدول الشمال الإفريقي ومصر حيث كان هناك طريق تجاري يربط بينها وبين القاهرة وهو الذي يعبر ليبيا إلى الواحات المصرية وكان السبب في نفح هذا الطريق هو الأحداث التي أدت إلى عزل المملكة عن السودان الإنجليزي المصري وقتل طريق الأربعين الذي كان منفذاً رئيسيًا لسلع المملكة، وكان التجارة بالرغم من ذلك بصول القاهرة بالطريق الغربي في الحقبة التي تلت عام 1890.(38)

لقد لعبت فزان دوراً هاماً ورئيسيًا في نشر الإسلام في وادي فأغلب الهجرة التي جاءت إليها كانت من جنوب ليبيا حيث إن من الثابت أو أولاد سليمان دخلوها في متصف القرن التاسع عشر عندما أخرجهم الأتراك العثمانيون من فزان، كذلك وصل إليها عن طريق فزان أيضاً جزء من قبائل الشوا.(39)

أما عن النظام السياسي في وادي فإن السلطان هو الحاكم وهو أعلى سلطة في الدولة ويستخدم مجلس يسمى مجلس أصحاب الشورى أو مجلس الحلف ويتكون أعضاءه من أهل رجال الدولة ويقوم هذا المجلس بإدارة شؤون المملكة أثناء السلم والحرب ويشترف على مراقبات تولى السلاطين ويشترك بعض أعضائه في الحرب مثل العقائد الذين من ضمن واجباتهم قيادة الجيوش وتزويده السلطان بالمحاربين.(40)

Marc. L. Histoire du Tchad, P. 92.

(37) يترس دالاس، "تجارة القوافل بين ليبيا ومصر، دور عبد الله الكحلا، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1981، مركز الجهاد، طرابلس، ص 105.
(38) حسين مؤسس، ص 102.
(39) سعيد الحنديري، الحياة السياسية في تشاد، ص 33.
(40)
ولخلاصة القول إن منطقة الساحل الإفريقي قد وصل إليها الإسلام وانتشر
بها انتشاراً واسعاً وذلك بفضل هجرة عناصر وجماعات عربية إسلامية من مناطق
مختلفة وذلك لأن هذه المنطقة كانت تمثل عامل جذب لهذه الهجرات فظهرت
منها فئات كبيرة استقرت بها مما أدى إلى تطور المنطقة حضارياً وذلك بظهور
القرى والمدن وتطور نظم التجارة والصناعة والزراعة، وهذا الاستقرار أدى
بطبيعة الحال إلى استقطاب الأفارقة الذين كانوا يعيشون فراغاً روحيًا فالفروا
حول حملة الحضارة الإسلامية الجديدة فأخذ الإسلام طريقه بينهم في سهولة
ويسر وتأقلمت هذه الشعوب المختلفة وعاشت في سلم ولم تحدث بينها أي
مشاحنات أو حروب لأن الشعوب الإفريقية تقبلت الثقافة الجديدة وتفاعلت
معها والدليل على ذلك كما أشرنا سابقاً إصرار ملوك وسلاتين وأمراء هذه
المناطق على الاتساب إلى الأصل العربي، كما بلغ التأثير الإسلامي مده في أن
كثير من أسماء الأماكن والأودية والمناطق وغيرها أخذًا أسماء عربية
إسلامية، كما انتشرت اللغة العربية بشكل واسع مما أدى أولئك المهتمين
الأجانب بالدراسات الإفريقية(41).

الفصل السابع

مملكة غانا
مملكة غانان

أولا: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل الإسلام

تعتبر غانان أول الممالك الإسلامية التي ظهرت في إفريقيا إلا أن تاريخها المبكر يكتنف الغموض، فهناك من يرى إن تكون هذه المملكة بعمر إلى فترة سبب ظهور الإسلام، لكن قواتها ظهرت في العصر الإسلامي حيث برزت في القرن الثاني الهجري (1) ورأى آخر يرى إنها وجدت منذ القرن الخامس الميلادي وتبالت مكانة ذات شأن منذ حوالي القرن التاسع حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر (2) بينما هناك من يرجح قيامها في القرن الرابع الميلادي (3)، ولكن المرجح إن تاريخ تكوينها قد حدث قبل الإسلام بفترة طويلة تجاوزت القرنين.

ويقصد بإمبراطورية غانان أو دولة غانان تلك المنطقة التي شملت كل من موريتانيا والجزء الشرقي من السنغال ثم بعض المناطق من دولة مالي حيث قامت في الأقاليم الواقعة بين نهر السنغال والنيجر منذ القرن الأول الميلادي.

---
(1) أحمد سويلم العمري، الإفريقيون العرب، القاهرة، مكتب الأندلوس المصرية، 1967، ص 27.
(2) أحمد سعيد الفيروزي، الجاليات العربية، ص 246.
(3) نعمين قداح، إفريقيا العربية في ظل الإسلام، القاهرة، سلسلة الثقافة العربية، 1960، ص 28.
حتى عام 1240 حضارات راقية تمثلت في ظهور مملكة أوركارا أو غانا التي توسعت وأصبحت إمبراطورية بعد هذا التاريخ. أما عن سكانها فقد كانت قبائل الوتوك أو السونينكي غالبية Souniki وسه وعده القبائل إحدى فروع المناور ومن أشهر قبائل السونينكي عشر مجموعات تختلف نسبتها من منطقة لأخرى وهذه الأقسام هي:

1- الستين 2- السيلي 3- الساخور 4- الدوكرى 5- الدياورا 6- باكراي 7- الدبالي 8- الكابا 9- البيناغي 10- الونقرا

ومعنى كلمة غانا لغة السونينكي "قيادة العسكرية" ومن هنا أطلق هذه الكلمة على المدينة التي كانت بها هذه القيادة. أما البكرى فيقول بأن كلمة غانا كانت سمة لمملوكهم ربما لأنهما كانت تحمل معنى القائد العسكري ثم استعملها ومعناها فأصبحت تطلق على العاصمة (4). أما القلقشندى والمقرزي فإنهما يستعملان اسم غانا، أما ياقوت الحموي فإنه يقول عنها "غانا مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان" (5). أما ديفرسون فيرى بأن غانا عرفت في العالم الخارجي بلقب ملكها جانا الحاكم الأعلى، وهي عاصمة الإمبراطورية التي تتألفت من قسمين يقع كل منها على تل تمتد نحو الوادي على رقعة يعده كل قسم عن آخر ستة أميال يسكن المسلمون في قسم والوثنيون في قسم آخر (6). ويفق المؤرخون على أن غانا نمت واسعت على مر العصور وتحولت إلى إمبراطورية عظيمة لانتماء خاصة بين القرنين التاسع والحادي عشر إلا أنهم اختلفوا حول أصل الأسرة الحاكمة فيها، فالسعودي يقول: "إنه غانا إمارة عظيمة على أرض باغن قبل إن سلطتهم كانت قبل البعثة (4) البكري، ص 174.
(5) أحمد شلي، ص 102.
(6) ديفرسون، لمحات من تاريخ إفريقيا، ت، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، طرابلس، مطبعة الثورة العربية، ص 37.
حيثما 22 ملكاً وعدد ملوکهم 44 ملكاً وهم بيشان الأصل ولكن لا نعلم من ينتمي إليه في الأصل. والواضح من الروايات الشفهية المتداولة إن جماعة من المهاجرين الساميين جاءت من الشرق أو من شمال إفريقيا ومن منطقة برقة بالذات واستقرت في منطقة أوكارا وقد أشار إليها البكري في كتابه «المسالك والمالماك» ثم اختلطت سلمياً، وفي وقت ما من القرن الرابع الميلادي استطاع هؤلاء المهاجرين بسط نفوذهم وتزعموا السكان وظهر أول ملك من بينهم وهو كارا، وقد تعرض الكثير من الباحثين لهذه المنطقة بفكرة وجود حكومة بيدة الذي ذكر بأن الإدريسية أول من أشار إلى ذلك Mani في غانا من بينهم ماني حين قال بأنه في سنة 790 م قام الملك ماغان بطرد المهاجرين نحو الصحراء. ونذكر بعض المؤرخين الغربيين الذين حاولوا أن يدلوا بأن الحكومة البيضاء التي حكمت غانا حتى القرن التاسع الميلادي ما هي إلا بعض العناصر اليهودية التي هربت من برقة بعد ثورة اليهود عام 115 م في مدينة شحات وما تبع عنها من اضطهاد لهذه العناصر.

وهكذا نستطيع أن نستنتج بأن الحكومة التي قامت بتسدير أمور الحكم في غانا من القرن الرابع إلى القرن الثامن كانت من العناصر المهاجرة التي جاءت واستقرت بين السكان الاصليين، وفي نهاية القرن الثامن قامت بعض العناصر من السوفيتي بالسيطرة على مقاليد الحكم واستمرت حتى سيطر المرابطون عليها، ومن المعروف أن السكان الصحراء حاولوا قبل ذلك إقامة حلف ضد دولة غانا من أجل السيطرة على مدينة أودغيست ولكنها تمكن أن تختصص بها وتعود أهمية هذه المدينة والتي توجد الآن في موريتانيا أنها عاصمة مملكة إسلامية تحكمها قبيلة لمونة وهي وطن ابن باسين وتقع على بعد حوالي مائتي


(7) السعدي، ص 119.
(8) نفس المصدر، ص.119.
مِثل شرقي كومبي العاصمة وتعتبر من أهم محطات القوافل في هذه المنطقة وقد تعَدَّدت أسواقها(10).

أما عن الحياة الاقتصادية فقد اعتمدت غانا على تجارة القوافل حيث أن موقع عاصمتها كومبي على حدود الصحراء وفي أقصى شمال غرب إفريقيا جعلها حلقة اتصال بين الشمال والجنوب، وبهذا أصبحت العاصمة أهم المدن التجارية في بلاد السودان الغربي لفترة امتدت لثلاث قرون وفي هذه الفترة استقر فيها الكثير من تجار شمال الإفريقي للإشراف على أمور التجارة. فابن خلدون يذكر أن عدد سكانها كان كبيراً وأنها كانت من أكبر مدن العالم وأكثرها ازدهاراً، وكان سكانها يرتديون الملابس الصوفية والقطنية والحربية، وازدهرت الصناعة، وبدأت صناعة النسيج والأقمشة والحجس واللحاء والجوارية، والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة(11).

كما كان سكان هذه الإمبراطورية يمارسون الزراعة والرعي، كما أن الحكومة كانت تسير على معادن الذهب والملح، اللذان يعتبران من المصادر الهامة لاقتصادها، وقد ساعدوا موقعها بين منجمي الملح في الصحراء من ناحية الشمال والذهب من ناحية الجنوب على استقلالها في تجارة تجارتها مع دول شمال إفريقيا حيث جلب عليها هذه التجارة أرباحاً هائلة، كما أن الحكومة كانت تقوم بفرض الضرائب على السلع الداخلية والخارجية(12).

إذ هذا الثراء والثروة الذين تمتعت بهم غانا يعودون بالدرجة الأولى إلى موقعها الجغرافي بين الموارد الطبيعية المتعددة حيث في الجنوب توجد مناجم الذهب وفي الشمال توجد ملاحم تغازا، وهذا جعلها محطة تجارية هامة وبوابية.

(10) أحمد شيلي، ص 105.
(11) ابن خلدون، ص 129.
(12) حامد تراوري، ص 15.
لإفريقيا الغربية ودول الشمال الإفريقي وقد اشتهر غناه ووصل إلى الشرق العربي حيث عرفت بارض الذهب ومع نهاية القرن العاشر بدأت أخبارها تنتشر لدى كتاب الرحلات والجغرافيين العرب (13).

فابن حولل يذكر إن حاجة ملوك غانا لأدغست ماسة من أجل الملح وأنه لا قوام لهم إلا به وقد بلغ حمل الملح في دوالي ببلد السودان وأعاصيما ما بين 2000 - 3000 دينار (14).

إن أهم مراكز مناجم الذهب كما ذكرنا هو غانا وسجلماسة وكلاهما تقع على طريق القوافل. وقد تحكمت قبائل صناعة وزنادة في هذه المناجم، أما الذهب فكان يأتي من المنطقة المسمى ونقارا وهي المنطقة التي أصبحت علمياً على بعض مجموعات الماندي التي تسكن عند أعلاى نهر السنغاي وبالرغم من أنها لم تكن ضمن حدود غانا إلا أن موقع كرمي العاصمة الممتاز جعل غانا تقوم بدور وسيط وتأخذ الضرائب عن كل كمية من الذهب فيما عرف باسم التجارة الصامتة» ويعني هذا المصطلح بدأ المقايقية بناءً على رغبة الطرفين، ويؤكد المصري الذي إذ يقول: «ملك غانات عظيم الشأى ويتصل بلاد معادن الذهب ... ولهم خط لا يتجاوزه من صدر إليهم فإذا وصلوا إلى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكاسية عليه وانصرفوا فأتي أولئك السودانيين ومعهم الذهب فيركوبه على الأمتعة وينصرفون ويتلو أصحاب الأمتعة فإذا أرضوا أخذوه وإلا عادوا ورجعوا فيعود السودانيين ويذدونهم حتى تتم المبايعة»(15).

ولا شك أن هذا الأسلوب في التعامل كان أساساً أن القبائل التي امتلكت مناجم الذهب كانت قبلان بذائة تخاف الغرب وتتخوف من معرفته لأماكن المناجم.

(13) أحمد الفيروي، ص 246.
(14) ابن حولل، صورة الأرض، ص 98.
(15) المصري، ص 119. عمالة ذهبية تساوي 8/1 أوقية.
ويحدثنا البكري عن مهارة الملك في التجارة فقول: "إن غانا كانت تفرض ديناراً من الذهب تدفعه على كل حمل حمار من الملح يدخل إلى المدينة، ودبيارين على كل حمل يخرج منها، كما أن الذهب والملح يخفضان قيمتهما دائماً، وكان حمل النحاس القادم لغانا من مناجم الصحراء الجنوبية يدفع للملك خمسة متشالات بينما كانت السلع الأخرى تدفع ضعف هذا المقدار"(16).

وقد شاهد ابن حوقل في أودغست صكياً قيمته اثناً وأربعون ألف دينار كتب على ذمة التجار السجلماسي إصحاق إبراهيم بن عبدالله(17).

إن ثراء غانا وما خلفها من إمبراطوريات في السودان العربي قد نشا نتيجة إلى تبادلها التجاري واستخراجها للذهب حيث قامت فيها طبقة نشطة من التجار المثقفين لتشييد الحياة الاقتصادية، وفي ذلك يقول ياقوت الحموي: "بما جمع إليها التجار "أغاث" ومنها يدخل المغازات إلى بلاد الشرق ولولاها لتعذر الدخول إليها لأنها في موضع مقطع عن الغرب عن بلاد السودان"(18).

ويقول الهمداني عنها: "إن بلاد غانا ينبت فيه الذهب نباتاً في الرمل كما ينبت الجزر ويقفف عند زروع الشمس"(19).

وبدو أن مملكة غانا كانت تسيطر على ممالك أخرى نتيجة تحكمها في مصادر الذهب وفي ذلك يقول اليعقوبي: "وملكها عظيم الشأن... وتحت يده

(16) البكري، بلاد إفريقيا والمغرب، ص 176.
(17) ابن حوقل، ص 97.
(18) أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 170.
(19) أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمداني، البلدان، مطبع بريل، ليدن 1886، ص 87.

238
عِدَة ملوك فِمنهم مملكة عَام وملكة سامة(20).

ويبدو أن تجارة غانا لم تقترح على الذهب فقط، فقد اعتمدت أيضًا على الرقيق، إذ كان التجار من المغرب الأقصى يقومون برحلة طويلة وخطيرة عبر الصحراء لشراء الرقيق الزنوج لبيعهم في مناطق الشمال وقد انتشرت كومبي بسوق الرقيق فيها(21).

وقد كان التبادل التجاري يتم بين سجلماس عاصمة تأهرت في الجنوب العربي وبين بلاد السودان حيث كانت القوافل تذهب من سجلماس محملة بالمصنوعات المغربية لتعود بكثير من الذهب والرقيق(22).

كما اهتم الفينوسيون بالصناعة حيث كانت مملكتهم أول الممالك التي عرفت الحديد الذي كان وسيلة فعالة في بد الشعوب القاطنة جنوب الصحراء لاستغلال الأرض والغاب، كما يذكر أن إمبراطورية غانا تكونت في أول أعراب من عشيرة من الحدادين(23) كما استخدموا الذهب في صناعة نبل الملك وكيار رجال الدولة وفي أغطية الرؤوس ومقايض السيوت وسروج الخيل وكان للملك صولجان به ثلاثون رطلًا من الذهب(24). كما كان لغانا دار لصناعة المراكب.

(20) أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ البعوفي، ج 1، بيروت، دار صادر، 1960، ص 194.
(21) لمزيد من المعلومات عن هذه التجارة راجع: بوفيل، تجارة الذهب، 1964، ص 152، وما يليها.
(22) محمد مزين المغرب والسودان خلال القرن السادس عشر والسابع عشر، المؤرخ العربي، العدد 31، الجزائر، المركز الوطني للدراسات التاريخية، 1987، ص 215.
(23) أمين اسمر، إفريقيا والعرب، القاهرة، دار الحقائق، 1980، ص 21.
(24) البكري، ص 176.
الحرية على جوانب بحيرة كوري، كما كانوا يصنعون الأسلحة من الحديد والحراب والرماح والخناجر، كما اهتموا بالزراعة فزرعوا الذرة وغيرها من المحصولات ومارسوا أيضاً صيد السمك (25).

أما عن الجوانب العسكرية فرغم أن الإمبراطوريات السودانية بشكل عام تعتمد في بقاءها وقوتها على القوة العسكرية إلا أن غانا كانت تختلف عنها في هذا الجانب اختلافاً كبيراً لأن السبب في تكوينها لم يكن عسكرياً لذلك بقيت زمناً طويلاً دون الحاجة إلى تكوين قوة عسكرية كبيرة (26) ولكن مع الوقت أصبحت تتمتع بقوة حربية هائلة إذ بلغ عدد المحاربين فيها مائتي ألف محارب يحمل تسعم ألف منهم الرماح (26) وكان معظم الجيش يتكون من قبيلة الملك كذلك المرتزقة والمستقلين، وكانوا يستخدمون في حركتهم الأسلحة المصنوعة من الحديد كالسيف والحراب والرماح والخناجر في الوقت الذي كان فيه جيرانهم يحاربون بقضبان الأنبوب (27)، كما اعتمدوا في معاركهم على الأقواس والنشاب والدبابيس التي كانوا يتخذونها من شجر الأنبوب، وأما قبائهم فكان من القصب الشكوي الذي صنعوا منه سهامهم (28).

وكان ملوك غانا وعامة شعبها يديعون بالوثيقة التي تجسدت في المجوسية وعبادة الأصنام، ويقيمون أهل دياناتهم حول القصر الملكي حيث القبار وقبر الملوك التي يحرسها حرس خاص ولا يمكن لأحد من الغرباء دخولها ولا معرفة ما فيها (29) وتقوم الوثيقة في جميع أنحاء إفريقيا على تقدس القوى الطبيعية

(25) زاهر رياض، المملكة الإسلامية، ص 109.
(26) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 96.
(27) عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، بروت، دار العرب الإسلامي، 1988، ص 111.
(28) شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي، تحفة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكرونة، بيروت، 111.
(29) محمد عبد المنعم الحميري، الوضع العطرا في خبر الأقطار، حققه إحسان.
الأشجار الضخمة والحيوانات، وينظر إلى الملك الغاني على أنه ممثل الآلهة لأنه زعيم عظيم لأقلي القبائل وتشترط فيه القوة التي هي عنصر مقدس وكثيراً ما كان زعيم القبيلة يتدرج على الأرض المروحة ليجلب لها الخصب، وإذا ما الملك صنعوا له قبةً عظيمة من خشب الساج وتأتى به على سرير قليل الفرش والغطاء ثم يدخلون في تلك القبة ويعضوا معه رجلاً من الذين كانوا يقدمون له الطعام والشراب ثم يغلقون باب القبة بعد أن يضعوا فوقها الحصير والأمتية ثم يردونها بالنراب حتى يصبح كالجلب الضخم ثم يخندقون حولها حتى لا يتم الوصول إلى ذلك الكون إلا من موضع واحد، كما أن من عاداتهم أنهم يذبحون لموتاهم النبائح ويقربون لهم الخمور(30)، وعلى هذا فإن الحياة الأخرى تقوم على الإيمان بالبعث لذا تدفن حاجات البيت منه لأنه يحتاج إليها في حياته الثانية، لذا فإنهم اهتموا اهتماماً كبيراً بالقولون فكانت على شكل إهرامات لا يدخلها إلا السحرة والكهبان.

أما المعابد فهي عبارة عن أبنية بسيطة مربعة ذات أبراج أسطوانية مزينة بالصور، وكانوا يقدسون الحياة ويدعون لها كل عام إحدى الفتيات قرياناً(31) وكانوا يعتقدون أن أرواح الأسلف تسكن التماسيح التي في مجري المياه ومن ثم نجد في بعض القرى برك في كل منها تمساح يطمعه الأهالي للدجاج ويعتقدون أن رخاء القرية متوقف على بقاء التمساح الذي يحرسه حارس خاص يقدم له الطعام ويرده عنه أنظار المتطفلين وبالذات الغربيين عن القرية وكانوا يعتبرونه بمثابة الأب والسيد(32).

عباس، بيروت، دار القلم، 1985، ص 465.
(30) حسن عيسى، الدعوة الإسلامية، ص 96.
(31) قذاف، إفريقية الغربية، ص 35.
(32) محمد عبد الفتاح إبراهيم الثقافات الإفريقية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1965، ص 152.
أما عن الأوضاع الاجتماعية فقد كانت القبيلة تشكل جزء كبير في الحياة الاجتماعية حيث تتنوع إلى عدة عشائر تتقاسم بينها صلة قرابة لكل منها مهنة معينة تختص بها، وتعرف مدينة الملك باسم الغابة لأنها تكون بها الأحراش ولله قصر عظيم وقباب يحيط بها حائط مثل السور ويجلس حول القباب عشيرة من الفرسان بثيراب مذهبة وله من الوراء عشرة غلمان يحملون السيفو السيف المحلة بالذهب وعن يمينه يجلس أولاد ملوك بلده وقد ظفروا شعورهم ويرتدون ملابس رفيعة وإلى يساره يجلس والي المدينة ومن حوله الوزراء.

وقد كان الملك يتمتع باحترام الشعب حيث كان يقابل بالانحناء كما يضع النراب على الرأس خلاصة على الخضوع، أما المسلمين فقد كانوا يقابلونه بتصفية البدين١٣٣ كما كان من عاداتهم الاجتماعية إيقاف النار للملك الوثني الذي يخرج بعد عشاء كل ليلة ليساعر كمومه ولا يخرج حتى تجمع عليه ألف حزمة من الحطب ويتم إشعالها مرة واحدة لكي تشرق البلاد كلها ثم يأتي ويجلنس على منصة الذهب الأحمر ويدقده في هذه الأثناء الآف الوالدين فأكل الجميع إلا هو، ومن ثم الأكل يقوم ويدخل وهم لا يقومون حتى تصبح الحزم رمادًا١٣٤ كما كان الملك يتمتع بسلطة قضائية حيث كان يفصل بنفسه في أمور القضاء وإذا دعت الحاجة حكم بنوؤات الآلية دون مجدالة، وكان يطوف كل يوم بعاصمة ملكه للفي الشكاوي، وعلى الرغم من أنه كان يعبد الأوثان كشعبة إلا أنه كان متاسماً مع الغراء المسلمين المقيمين في غانا الذين كانوا من الكثرة بحيث كانوا يشغلون في نهاية القرن الحادي عشر حياً خاصاً بهم١٣٥.

(33) أمين توفيق الطبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب الأندلس، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984، ص 305.
(34) حسن عيسى، الدعوة الإسلامية، ص 95.
(35) شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا، ص 81.
ويصف لنا البكري لباس أهل غانا قائلًا: "ويليس سائر الغانيين ملامح القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم... وهم أنعم يحققون لحاءهم، نساهم يحققون روؤسهم وملكمهم يتحلى بحلى النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراز المذهبة عليها عمايل القطن الرفيعة" (36). كما كان لهم ثياب خاصة بالرقص وهي في الغالب أما أردية القماش أو جلود الحيوانات أو ريش الطيور، كذلك يستعملون الأصباغ التي تغطي الجسم والوجه، كذلك يستعملون الأقنعة.

أما المرأة فقد تميزت بالتحرر الزائد في العادات، ففي الوقت الذي تبدو فيه راشفة كل الرضوض للرجل فإنها تبدو أيضًا متحررة من كل القيود الأخلاقية والاجتماعية ومظهرها الخارجي يوحي بأنها غير خاضعة لأي قانون، وقد كانت المرأة الزنجية سلعة تباع لزوجها ولهذا كانت تشكل لأبيها وأسرتها قيمة تجارية، والمهر الذي يدفعه الخطب يذهب إلى الفتاة المخطوبة بل إلى أهلها الذين قاموا بتزويتها وتحملوا مسؤوليتها، كما عرف في غانا تعدد الزوجات، والنساء الجميلات كانت من نصيب الطبقة الغنية فقط، وإجمالًا كان لدى المرأة شعور بالتفوق حيث تشعر دائماً بأنها عبارة عن سلعة تباع وتشتري وأنها خلقت للامتلاك والتمتع فقط وكبرائ ما تحصد الفتاة عذريتها قبل الزواج بالرغم من أن الزواج يتم بعد البلوغ مباشرة وفي بعض الأحيان يطلق الزوج زوجته إن لم يجدها عذراء، ويلوäs متر العروس بالدم حتى تشهد العائلة الحريصة على كرامتها، وعمومًا كان الطلاق والزمني والمضاعفة لأهل الدعارة من الأمور السائدة والمألوفة في المجتمع الغاني الوثني (37).

(36) البكري، ص 176.
(37) جان بول رو، الإسلام في الغرب، ت، نجده ماهر، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1960، ص 193.
ثانيا: انتشار الإسلام وتأثيراته على غانا

اربط انتشار الإسلام في غانا وفي جنوب الصحراء الكبرى بانتشاره بين سكان شمال إفريقيا حيث كانت الصلة الثقافية والتجارية وثيقة بين الطرفين منذ القدم، رغم أن الكثيرين من المؤرخين يرجمون هذا الانتشار إلى جهود المرابطين ولا يعبرون أهمية كبيرة للجهود السابقة لهذه المرحلة. ونحن نعلم بأنه قد حدثت هجرة متواصلة لمسلمي شمال إفريقيا إلى مناطق جنوب الصحراء واستقروا في المراكز التجارية وقد أدى هذا الاستقرار إلى محاولات فردية لنشر الإسلام والتي لا شك أنها كانت بسبطة في بداية الأمر ولكنها كانت البداية لوجود الإسلام بين الأفارقة حيث تطورت إلى جهود جماعية عملت على نشره بقوة في غرب إفريقيا ولما كانت غانا جزءاً من هذه المنطقة فإن الإسلام ولا شك قد دخلها وانتشر بين سكانها ولكن بدرجات متفاوتة، إذ لا تستطيع القول إن البلاد كلها قد اعتنقت الإسلام ولكننا نرجح أن أعداداً كبيرة من سكانها قد قبلت هذا الدين وأن ظاهر الإسلام من شعور وثقافة ومساجد بما في ذلك اللغة قد وجدت طريقها إلى غانا منذ وقت مبكر ربما يرجع إلى القرن التاسع الميلادي وهو القرن الذي شهد نهضة غانا السياسية والاقتصادية وذلك قبل ظهور المرابطين بوقت مبكر، فالبكري في وصفه للمدينة الإسلامية يقول: «مدينة غانا مدينتان محليتان أحدثهما المدينة الإسلامية التي يسكنها المسلمون وهي المدينة الكبيرة فيها إذن عشاء مسجداً إحداهما يجتمعون فيه وله أئمة ومؤذن، وفيه فقهاء وحالة علم وحولها أياً عذبة منها يشرون وعليها يعتمدون». كما يقول في موضع آخر: «وفي مدينة الملك يصل إلى فيه من يقد عليه من المسلمين على مقرية من مجلس الملك، وملكها محمود السيرة، محبت للعدل، مؤثراً للمؤمنين، وإن تراج عمل الملك وصاحب بيت ماله وأكبر وزراءه من المسلمين»(38)، وما أورده البكري ليستطيع أن نلاحظ ونتنتج ما يلي:

(38) البكري، ص 170.
1 - إن نمو الجزء الخاص بالمسلمين بالعاصمة ليس من المعقول أن يكون قد ظهر مرة واحدة أو ظهر فجأة بحيث أصبح يضم اثنا عشر مسجد وأنه صار مواطنًا لعدد من العلماء والفقهاء.

2 - وجود العلماء والفقهاء دليل على استقرار الإسلام وعلى كثرة أعداد المسلمين، كما أن وجود اثنا عشر مسجداً دليل على اعتراف الحكومة في البلاد بالإسلام كدين رسمي لمجموعة معينة من رعايا الدولة.

3 - حب ملك غانا للعدل جاء كنتيجة لتآثره بالإسلام، هذا إلى جانب إسناد بعض الوظائف الحكومية للمسلمين يعتبر دليل آخر على أهمية الإسلام ومتعتقه في الدولة.

وهكذا نستطيع أن نستنتج ونؤكد ظهور الإسلام وانتشاره تدريجيًا في غانا حتى قامت حركة المرابطين فدفعت عجلة هذا الانتشار دفعًا قويًا، والمرابطون ينتمون إلى صناعة التي ترتفع نسبها إلى حمير وملتوة وكان أول ملوكهم الأمير بولونان اللمتوني الذي كان يسيطر على ملوك السودان حيث كانوا يدفعون له الجزية (39).

وقد ظهرت دولة المرابطين في الصحراء الغربية إلى الجنوب من بلاد المغرب الأقصى في القرن الخامس الهجري بفضل نشاط الفقهاء والمتصلي عند الله بن ياسين الجزولي من أتباع المدرسة المالكية بالقوران، الذي عمل على نشر الإسلام في بلاد السودان فعيّن الأمرأ بأبا بكر بن عمر اللمتوني قائدًا عامًا لجيش الدولة وظل يجاهد ويجادل في سبيل الله (40) واستخلف على المغرب لسان الدين بن الخطيب، أعمال أعلام فين بوع قبل الاحلام، ج3، حققه أحمد مختار العبادي، الندوة البيضاء، دار الكتاب 1964، ص 225.

(39) محمد عبد القادر أحمد، المسلمين في غينيا، ص 38.
ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي أعجبته الأمرة فلما اتصل به خبر رجوع الأمير أبي بكر من الجنوب صعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته لكن الأمير أبي بكر عزم على تسليم الأمر له بعد أن رأى طاعة البلاد له (41) ثم عاد بعد ذلك إلى الصحراء التي كانت الولاية الأم لأنها أصل المرابطين وقفر الأمير الأكبر، وقد وجه الأمير أبي بكر كل جهوده إلى التوسع في بلاد السودان ونشر الإسلام بين قبائله وكان هدفه هذه المرة إمبراطور غانا.

إن جهاد المرابطين في جنوب الصحراء أدى إلى استيلائهم على كومبي عاصمة مملكة غانا الوثنية عام 1076 م وقد أسلم أهلها المعروفون بالسونتي وانشتر تجار ديولا في المناطق المجاورة من حوض نهر النيل وبفضل جهودهم المتكررة انتشر الإسلام بين الوثنين من سكان تلك المناطق وقد ساعدت ظروف مملكة غانا التي كانت سبعة للغاية أثناء الزحف المراقب على سقوطها بسرعة خاصة وأن الأمن كان مضطراً والولاء نحو السونتي كان ضعيفاً من قبل الممالك الخاضعة لهم وكذلك وقوف المسلمين وهم أقلية إلى جانب إخوانهم المسلمين القادمين من الشمال كما ساعدت قبيلة الفولاني التي كانت في منافسة تجارية مع السونتي بانضمامها إلى قبيلة لمثولها ضد السونتي على سقوك غانا (42). ولم يتوقف جهاد المرابطين بعد وفاة أبي بكر بل استمر حتى بعد مجيء الأمير يوسف بن تاشفين الذي لم يتردد رغم انشغاله في بناء دولة في

(41) لبعض من المعلومات راجع:
- أبو العباس بن خلكان، وفيات الأعيان، ج. 7، حققه إحسان عباس، بيروت دار الثقافة 1971، ص 117.
- ابن عزوري المراكيش، البيان المغرب في أخبار المغرب الأندلس، ج. 4، حققه إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة 1971، ص 11.
(42) أمين الطبي، دور المرابطين في نشر الإسلام في السودان العربي، مجلة الثقافة العربية، العدد الثاني، 1987، مؤسسة الثقافة الجماهيرية، ص 24.
وانظر لفدي المؤلف، دراسات وبحوث، ص 210.
الشمال في الإسهام مساهمة فعالة في الجهاد في بلاد السودان حتى قبل إنه قضى
على أغلب مملكة غانا(43).

ومن المؤسف أن المصادر لم تذكر أية تواصل عن جهاد الأمير أبي بكر
طيلة الأربعة عشر عاماً التي انتهت بسقوط غانا وانتفخت بذكرة ستة وفاته ويبقى أن
سبب ذلك راجعاً إلى أن أحداث المغرب وجهاد المرابطين في الأندلس أكثر
أهمية في نظرهم.

مع أن السيادة المرابطية المباشرة على إقليم غانا كانت قصيرة وذلك
بسبب انشغال المرابطين بشؤون المغرب والأندلس إلا أن العلاقات بين بعض
حكام السودان وبين المرابطين في مراكش كانت قائمة ومستمرة ويوقد لنا الطبيبي
بعض مؤشرات هذه العلاقات نقلًا عن بعض المصادر منها أن مشاركة أربعة
آلاف من الجنود السودانيين وبين المرابطين في مراكش كانت قائمة ومستمرة
ويورد لنا الطبيبي بعض مؤشرات هذه العلاقات نقلًا عن بعض المصادر منها أن
مشاركة أربعة آلاف من الجنود السودانيين في وقعة الزلاقة بالأندلس عام 1086
توحي بأن تجاهلًا كان قد قام بين المرابطين وبين إخوانهم الأفارقة المسلمين،
كما أن الوحدة التي أثناها المرابطون في المغرب الإسلامي من الأندلس إلى
بلاد السودان العربي تضح من اكتشاف عدد من شواهد قبور إسلامية يرجع
تاريخها إلى العقد الأول من القرن الثاني عشر(44).

كما ظهر إلى جانب المرابطين ودورهم في نشر الإسلام قوة أخرى كان

(43) انظر:
- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص 109.
- سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ت حسن إبراهيم حسن
وآخرون، ط 2، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، 1967، ص 57.
(44) الطبيبي دور المرابطين في نشر الإسلام، ص 25.
لها دور هام وواضح في هذا المجال وهي التجارة والتجار المسلمين حيث تطورت حركة التجارة بين المغرب العربي وغرب ووسط إفريقيا بعد الفتح حيث تأسس ما يعرف بتجارة عبر الصحراea التي نقلت الإسلام ومبادئه ومفاهيمه الجديدة إلى مختلف أنحاء إفريقيا، فأخذ طريق التدريج إلى هذه المناطق التي تحولت في النهاية إلى إمبراطوريات وممالك إسلامية زاخرة مثل غانا ومالي والسنغاي وكوانو وبرونو حيث أخذت هذه الممالك والدول والسلطانات على عاتقها وفضلت جهود الزعاعات الإسلامية السياسية والدينية المختلفة على عاتقها نشر الإسلام وترسيخه بين الشعوب الإفريقية المختلفة ونشبت التجارة في الداخل والخارج وصار لها فرق تجوب الصحراea وفي غاية أصبحت عاصمتها كومبي صالح أكبر سوق للتجارة في بلاد السودان ووجد فيها التجار من مصر وشمال إفريقيا وقامت حركة تبادل تجاري كبير بينها وبين جميع المدن الهامة في المناطق الإسلامية وظلت قوافلها التجارية وأقوال حجاجها تمر بالقاهرة.

وكان لتطوير القوافل ونظمها في عهد الفتح الإسلامي أنوه في تسيير نشر الدعوة الإسلامية جنوب الصحراea، وكان من أبرز هذا التطور ما تم في تسيير الطرق وتفجير شخصية التاجر بعد دخوله الإسلام ومن ذلك ما قام به حفيد عقبة بن نافع وهو عبد الرحمن بن حبيب في أواخر الحكم الأموي وذلك بحفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة أودغست مما مهد الطريق أمام القوافل التجارية للتوغل في غرب إفريقيا عبر الصحراء بعد أن كانت مقسمة على الساحل فقط وقد اتسمت هذه التجارة في ظل الإسلام بلوان حضاري منظم تنظيماً محكماً وانضح انتشاره في تشكيل المدن الكبيرة والأحياء الراقية النظيفة كذلك في أساليب التعامل التجاري حيث كان التاجر المسلم (45)

(45) إدريس الحرير "العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء وأثريها في نشر الإسلام" مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1987، طرابلس، 85.
يجمع بين دعوته وتجارته بالكلمة والسلوك وحسن العلاقة والصلة بمن يتعامل معهم فينوقون به ثقة كاملة (46).

وبفضل التجارة انتشر الإسلام بشمال غانا حيث كان يأتيها التجار العرب وابتسلوا مع سكانها وقبائلها وقد ظلت تلك القبائل محتفزة بعاداتها وتقاليدها الإفريقية وانثرت بينهم الطرقة الصوفية والتي من أشهرها القادري والطيبية اللتان نشأتا في المغرب، فمن طريق حركة الاتصال والتجارة جاءت هجرات من علماء متصوفة وفدوا إلى المنطقة لتعليم القرآن والعلوم الأخرى وكان بعض هؤلاء المهاجرين من العلماء من الذين أجازتهم الظروف السياسية إلى الفرار بحياتهم وديثهم وجدوا في هذه المنطقة وغيرها من المناطق الإفريقية مجالاً خصباً لنشر الدعوة الإسلامية فما هؤلاء إلى الزهد والتصوف وتمكن هؤلاء من غرس البذور الأولى للثقافة الإسلامية الصوفية (47). ولم يقتصر نشاط التجار العرب على القسم الشمالي من غانا فحسب، بل كان لتجارتهم مع جنوبها أعظم الأثر في ترابط القبائل في الشمال والجنوب ومع ممالك السودان العربي كجزء وصلت المؤثرات الإسلامية بواسطةهم إلى شعب الأكان ذاته خاصة الأشامي، كما نجح التجار بفضل ما وصلوا إليه من مراكز سامية في المملكتين السودانيتين في أن يدخلوا الملك الدين الإسلامي، كما أصبحت الطبقة الارستقراطية في المملكة تتعتنق الإسلام، وكانت حركة انتشار الإسلام والتي قام بها التجار والمواجهة موجهة إلى الأمراء والرؤساء الذين كانت في أيديهم مبادئ الأمور (48) ونظرًاً للثقة التي تفرض على الحاكم التجول في شوارع المدينة وبين رعاياه ليشرف بنفسه على سير الأمور فبملكة ويتلقى الشكاوى من المواطنين، كما كان

(46) ماهر صبحي رزق، غانا أرضاً وشعباً ودولة، طرابلس، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، ب. ت، ص 185.
(47) كمال الضو الدقير، دور الطريق القادري في نشر الإسلام في السودان، ص 37.
(48) دنديش، دور المرابطين، ص 168. 250
للإسلام تأثيره الواضح على الحياة الاجتماعية العامة والخاصة حيث خفت
بوجوده حدة التناحر والصراع بين القبائل والعشائر وأصبحت العلاقات بينهما
متأثرة بحضارات الشمال ونجمه، كما أخبر الإسلام رعايا من الأفارقة على ستر
عوراتهم واستكمال ملابسهم فانشر الزي الإسلامي الأبيض اللون كما انتشر
لبس العمامات ونمت المدينة الإسلامية بمظاهرها وطابعها المتمثل في وجود
المساجد والمدارس وانشر بها الفقهاء والدعاء كما انتشرت عوامل الرقي
والاستقرار واستثمار الأمن، كما بنى المسلمون مباني خاصة لسكنائهم فكانت
مدينتهم على نمط الطراز المعماري في المغرب، كما استقدم الملك والأشراف
المهندسين المعماريين العرب من فاس ليقوموا ببناء القصور (49).

أما من الناحية الدينية فقد قضى الإسلام على الطقوس الوثنية وأخذت
تحل محلها العادات والتقليد والمبادئ الإسلامية السحرة، كما ضمن الإسلام
لأتباعه حياة أفضل فقد كانت أكثر حاشية الملك وأكثر جنوده من المسلمين
الأمر الذي جعل الفوهة الإسلامية تسير نحو السلطة كما منع الإسلام أتباعه من
الركوع أمام الملك والسادة وهو ما كان يفعله غير المسلم.

ولم يكتف ملوك غانا بإسلامهم بل عملوا على توحيده صلتهم بالخلافة
العباسية ببغداد وحاولوا ربط نسبيهم بالحسن بن علي، وتحمس هؤلاء الملكاء
وشعبهم لنشر الإسلام حتى أن بعض العشائر الصوندية تختص بالعمل في
الدعوة إلى الإسلام فقط، وقد استخدم الماندونجو كلمة سونتوك مرادفة لكلمة
داعي مما يدل على الدور الكبير الذي قام به سونتوك غانا في نشر الإسلام بعد
إسلامهم (50).

(49) قداح، إفريقيا الغربية، ص 41.
(50) دندش، ص 50 وانظر كذلك:

Gray (M) History of Ghana, Ghana. L. 1960, P. 119

251
أما عن التأثيرات الاقتصادية فقد كان الإسلام أحد أهم الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في غانا حيث انتشرت حركة تجارة الفواكه في اتجاه الغابات في الجنوب حيث جلبت منها الكوكا والذهب وزيت النخيل والخشب مقابل السمك المجفف والقطن

كما كان للإسلام تأثيره الواضح على سلوكات التعامل التجاري حيث حث على الكسب الحلال فألهم الناس على المهن الشرفية التي تحفظ كرامتهم كبشر، وكانت صلة التجار المسلم وثيقة بأولئك الذين يعملون على تحويلهم إلى الإسلام فكثيرا ما يلبثون عند دخول القرية أو المدينة الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات صلاته وركوعه وسجوده، وكان لما يتحلى به من كرم الأخلاق وسمو التفكير أنه كان يفرض احترامه والثقة به بين الأهل والوثنيين.

وتعتبر غانا مثال جيد تأثير الأفارقة بالتجار المسلمين وقد اتضخ ذلك من خلال ما دونه المؤرخين والرحالة الجغرافيين عن زيارتهم لها أمثال البكري وأبو الفدا وصاحب كتاب الاستبصار والتي دلت على مدى تأثر الأفريقيين بالمسلمين بدرجة أنهم يوفرن لهم الراحة والمكان المناسب للإقامة بينهم وذلك بسبب سمعتهم وأخلاقهم النبيلة التي كانت سببا رئيسيا في تعزيز أواصر علاقتهم وارتباطهم بالأفارقة كما كانت سببا رئيسيا في حدوث المصادرة بينهم حيث أن طول الفترة التي يقضيها التجار المسلمين أدى بالكثير منهم إلى الزواج من

(51) جبريل بنياني، "مالي والتوسع الغزالي للماندنج" تاريخ إفريقيا العام، ج، 4، باريس، اليونسكو، 1988، ص 133.
(52) انظر: البكري، ص 171.
- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول، الإسكندرية، 1958، ص 200.
- عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، تقويم البلدان، باريس، 1840، ص 157.
السكان المحليين مما خلق جيلاً مختلطاً ذا ثقافة جديدة وساعد ذلك على سرعة انتشار الإسلام (53).

كما ساهم الإسلام في بناء المدن التجارية التي لعبت دوراً هاماً في تطوير الحياة الاقتصادية حيث عرفت هذه المدن الصناعات العربية الإسلامية حيث قامت مصنعين يدويين للنسيج وغيرها، كما عرفت أيضاً المعاملات المالية حيث تطور نظام التبادل التجاري والمالي وتطورت العملة كما عرفوا الصكوك والمعاهدات وأدخلوا النظام الضريبي على الدخل وضرائب جمركية.

كما كان للإسلام تأثيره الواضح على الحياة الثقافية حيث انتشرت اللغة العربية والتي كانت لغة العبادة والثقافة فضلاً عن كونها لغة التجارة وأخذت طريقها إلى المدارس التي ارتبطت ارتباطاً شديداً بالدين حيث ألحقت في بداية الأمر بالرابط حيث كان يقيم المراقبون للتعليم والعبد فكان الشيخ عبد الله بن ياسين معلموه الأول تعلموهم الشريعة وقرأ الكتاب والسنة حتى صار حوله فقهاء ورتب لهم أوقاتاً للفكر وعندما ينتهي من تعليم رواد الرابط هذه الأمور كان يأمرهم بالذهاب إلى قبائلهم ليشروا الإسلام على ألسنة سليمة، وقد ألحقت المدارس بالمساجد فكان إلى جانب كل مسجد غرفة أو غرفة لتعليم الأولاد وكان هناك بيوت أو أسكنت لعدد الطلاب الذين يحضرون من أماكن بعيدة.

ويعتبر المسجد المقر الرئيسي لتلقي العلم إذ كانت تعقد فيه حلقات للدراسة والمناقشة في أمر الدين (54) وقد كان القرآن هو محور هذه المعارف في هذه الدراسة وكذلك الفقه وقواعد اللغة العربية وبعض العلوم القديمة وكان هذا التعليم الذاتي أفضل تعليم للإفريقي الذي لم تكن لديه وسيلة أفضل للحصول على ثقافة هو في حاجة ماسة إليها (55) ولم تكن هذه الدراسة محدودة بزمن.

(53) إدريس الحريرى، ص 77.
(54) دندش، دور المراقبين، ص 162.
(55) جان بول، الإسلام في الغرب، ص 65.
معين وإنما كانت مرهونة بانتهاء الطلاب من استيعاب عدد معلومات من كتب الفقه الحديث والمنطق والنحو، وعندما تنتهي من هذه الدراسة المتنوعة فإنها تحصل على إجازة تؤهل للقيام بتعليم القراءة أو الخطابة أو الإمامة أو القضاء، ونتيجة لازدهار الحياة العلمية أقبل الناس على اقتناة المكتبات الخاصة التي تُعتبر بالكتب العربية.

كان من الممكن أن تستمر سطوة غانا ومكتباتها الإسلامية لولا انهيار المرابطين السريع فيها وعودة الخلافات الجديدة بين القبائل الصحراوية التي كانت دوماً سبباً في ضعفهم فقد رفضت قبائل مسورة العمل تحت زعامة لمثونة، وفي خلال عشرة أعوام اشتهرت السوندك من استعادة استقلالهم ولكنهم كانوا كمرابطين تعوزهم الوحدة وتسوية عليهم الروح القبلية فعاد الشفق إلى صفوفهم ورغب كل قبيلة في الاستقلال بعد تحت يدها وتمدت قبيلة صوصو التي كانت تدفع الجزية لغانا وأعلنت استقلالها ثم حاولت السيطرة على بعض الأقاليم التابعة لغانا وقد نجحت في ذلك حيث أصبحت الأقاليم الجنوبية تحت سيطرتها وفي عام 1203 اشتهر زعمهم الذي يدعى سوما تكورو كانه Soumankourou Kante، الاستيلاء على عاصمة غانا نفسها وأصبحت تابعة له، وقد نزح مسلموا غانا هرباً من ظلم الملك الجديد إلى بلدة بيرولانا واتخذوا منها مقراً لهم أما ملك صوصو فقد أخذ يعمل على محاربة شعب ماليك في مالي حتى يمكنه من فتحها إلا أنه لقي مقاومة شديدة من الملك سونديانانا كتيا

(56) دندش، ص 156 وكذلك السعدي، ص 45.
(57) تعتبر صوصو من الموانع الهامة في غرب إفريقيا حيث تقع على مسيرة 135 ميلاً شمال شرق باماكو عاصمة مالي وقد كانت عاصمة لملكة تكمها قبيلة سونينكي وكانت الأصل ولاية تابعة لغانا ثم استقلت في أواخر القرن الحادي عشر بعد سقوطها في أيدي المرابطين وكانت تحكمها في ذلك الوقت أسرة مسلمة من قبيلة سونينكي تدعى جرمو: انظر، حامد تراوري، ص 19.
نهاية سنة 1235، انتهت المعركة لصالح Sonjata Katia. حيث قتل كابيسي واستطاع أن يحرر المنطقة وفتح المدينة وما حولها، ثم مد فتوحاته شمالاً حتى بلغ غانا حيث استولى عليها عام 1240 واستبدل اسمها من غانا إلى إمبراطورية مالي. (58)

(58) نفس المصدر، وانظر كذلك:
الفصل الثامن
مملكة مالي
مملكة مالي

أولاً: التشكيل السياسي والاجتماعي

لمملكة مالي قبل الإسلام

لقد شكلت مملكة مالي مع مملكتي غانا والسنغال السمات والخصائص المحددة والواضحة لمنطقة السودان الغربي "غرب إفريقيا" لفترة طويلة من الزمن. ومن خلال تعاون هذه الممالك الثلاث تطورت الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا الإقليم تطوراً ملحوظاً.

ومن خلال دراستنا للمصادر التي اهتمت بهذه المنطقة في هذه الفترة المبكرة - وإن كانت قليلة - يتضح لنا أنه من الصعب تحديد الفترة الزمنية والأصول الأولى لتشكيل هذه المملكتها، وإذا كان التوسع المالي قد بدأ كما هو معروف في مراحله الأولى على حساب مملكة غانا فإنه مع الأسف الشديد فإن معلوماتنا عن تاريخ هذه المرحلة القليلة إن لم تكون نادرة وقد انحصرت فيما دونه لنا الرحالة والمؤرخين المعاصرين أمثال البكري والعمري اللذين يعود لهما الفضل والامتنان لما أقدرنا به من معلومات وإن كانت قليلة إلا أن قيمتها تكمن في أنه لولاها لاكتشف هذه المرحلة غموض وظلام دامساً.

كذلك أمدنا المؤرخ ابن خلدون في تاريخه الرائع بمعلومات وافية تتمها القلقشندي وابن بطوطة حيث غطوا لنا تاريخ مثار حتى نهاية القرن الرابع عشر. وربما يكون أبو عبد الله البكري أول مؤلفي العرب الذين ذكروا مالي في
القرن الحادي عشر وإن أشار إليها بأنها بلد اسمه (ملل) ويطلق على ملكه لقب
المسلماني (1) وجاء الإدريس بعد مرور حوالي قرن من الزمان وأدرك هذه
المعلومات التي ربما تقلها عن البكري غير أنه أضاف إليها تفصيلات هامة
ويذكر أن هناك مدينتين هما ملال ورو تفصيل بينهما مسيرة أربعة أيام (2) أما
السعدي فيذكر أنها كانت في عهد دولة غانا وذلك قبل البعثة النبوية وأنه خلال
تلك الفترة التي يقدرها سنوات حكم اثنان وعشرون ملكاً في غانا كانت دولة
مالي تنمو وتتسع تدريجياً في إقليم كانجابا على نهر النيل (3) أما القلقشندي فقد
يبيّن لنا النطق الصحيح لكلمة مالي الذي يكون بفتح الميم ولام مشددة مفخمة
وياء مثناة، وقال بأن هذه المملكة تقع في جنوب المغرب العربي فهي متصلة
بالمحيط الذي يحده من الغرب كما تحدها من الشرق بلاد البرنون ومن
الشمال بلاد البربر ومن الجنوب الهمج (4).
أما حسن الوزان فقد حدث لنا مساحة مالي فقال بأنها تمتد على طول أحد
فروع النيل مسافة نحو ثلاثمائة ميل، يحدها جنوبا جبال وعرة، وغربا غابات
مسحورة التي تتمتد إلى المحيط وشرقاً إلى إقليم كانو (5).

ومنفتصف مسيرة القاهرة في طريقه إلى مكة سأل البعض عن

(1) أبو عبد البكري، المعرّب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب من كتاب المسالك
والمالك، بغداد، مكتبة المشي، 1827، ص 178.
(2) نابي (ت 1704 م) والتوسع الثاني للماندنغ، تاريخ إفريقيا العام، م 4،
بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1988، ص 128.
(3) عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باريس، 1964، ص 182.
(4) أحمد ابن علي القلقشندي، صحيح الأعشي في كتابة الإنشاء، ص 5 الدار
المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص 288.
(5) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ط 2، ترجمة محمد الحجي ومحمد الأخضر،
دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 164.

260
مساحة مملكته فقال أنها تبلغ سنة في الطول، ويؤكد العميري الذي كان يعيش في مصر أثناء هذه الزيارة بأنه سمع هذا التقرير من رواة آخرين، ثم حدثنا القلفشندلي مثلاً عن العميري أن طول المملكة بلغ أربعة أشهر أو أكثر وكذلك مثلها في الطول، مع ملاحظة أن هذه المؤرخين اعتمدا على مصدر آخر هو ابن سعيد الدوكرالي.

وهكذا يتضح لنا اختلاف الروايات حول مساحة مالي ولنكن نميل إلى الأخذ بآراء الروحالة والمؤرخين العرب الذين لم يختلفوا كثيرا في تقديراتهم فيما بينهم هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنما ورد على لسان الملوك في تقدير مساحة مملكته مبالغ فيه ولعل السبب في ذلك أنه أراد أن يفخر باتساع رقعة ملكه ليبدل عليه مدى قوته وعظمته. وعلى أي حال فإننا نستطيع أن نستخلص أن رقعة مالي امتدت من المحيط الأطلسي غرباً إلى بلاد كامور والبرنوة والوهسا شرقاً ومن غابات السافانا جنوباً إلى الصحراء الكبرى شمالاً ناهيك عن المناطق الجديدة التي ضمتها إليها والتي عجزت إمبراطورية غانا عن إتمام سيطرتها عليها. أما عن الظروف السياسية التي ساهمت في ظهور هذه المملكة وتطورها فإن الروايات تجمع على أنه بعد فتح المرابطين لغانا عام 1076 تدهورت الحياة التي كانت تدفع الجزيرة لغانا أعلنت Sousou فيها لدرجة أن قبيلة صوصو استقلالها ثم حاولت السيطرة على بعض الأقاليم التابعة لغانا وقد نجحت في ذلك. وفي عام 1203 استطاع زعيم القبيلة صوصو ويدعى سومانكورو رئاسة الاستيلاء على عاصمة غانا نفسها وأصبحت تابعة له.

و نتيجة لهذا الاستيلاء نزح مسلموا غانا هرباً من جور الملك الجديد إلى

---

(6) القلفشندلي، ص 283.


(7)
بلدة بيرور ل ана حوالي عام 1224 واتخذوا منها مركزاً لحياتهم الإسلامية، أما ملك صوص فإنه شرع في محاربة شعب الماند نيك - الذي كون عن طريق تجمع عشائره الصغيرة والمتعددة مملكة مالى فيما بعد - وفعلاً استطاع فتح مالي وضمها إلى مملكته، ويذكر أن هذا الملك قد قتل ملوك مالي وعددهم أحد عشر ملكاً وذلك فيما بين سنوات 1222 - 1230 وكان يقتلهم بمجرد اعتلاءهم العرش، إلا أنه لقي في النهاية مقاومة عنيدة من الملك الثاني عشر وهو سونديا (Sundata Katia) تاكيتا نيك فحسب بل في الولايات المتاخمة لها أيضاً حيث كون جيشاً تمكناً به من ملاقاة قوة صوص قريب النيجر حوالي عام 1235 واستطاع أن يهزم ويقتله أيضاً، وهكذا استطاع سونديانا أن يحرر المنطقة من عبودية كانيتي وتمكن من فتح المدينة وما حولها، ثم مد تتويته شمالاً حتى بلغ غانا حيث استولى عليها عام 1240 واستبدل اسمها من غانا إلى إمبراطورية مالي.

وتشمل المملكة على خمس أقاليم جعلتها من أعظم ممالك السودان الغربي وهذه الأقاليم هي:

1 - مالي، وهو إقليم يتوسط الأقاليم المكونة للململكة ككل وتقع بين إقليم صوصو وكوكو وقاعدة بني أو بيتي.
2 - صوصو، تقع إلى الغرب من إقليم مالي وأخذت اسمها من اسم قاطنيها.
3 - غانة، تقع غرب صوصو وتمتد إلى المحيط الأطلسي وقاعدة مدينة غانة وقد أسلم أهلها مع بداية الفتح الإسلامي.

4 - كوكو، يقع شرقا في إقليم مالي وقاعدته مدينة كوكو.

5 - التكرور، يقع شرقا في إقليم كوكو وقاعدته تكرور.

وساعد تشكّل كل إقليم من الأقاليم الخمسة مملكة شبه مستقلة تتجمع حول سلطان مالي، ولذلك يمكننا القول بأن إمبراطورية مالي كانت بمثابة اتحاد كونفدرالي، مما يؤكد ذلك أن إقليم غانجا لم يكن يرتبط بالسلطة المركزية سوى الولاء الإسمي أو الرمزي.

كان نظام الحكم في مالي شأنه في ذلك شأن بقية الأنظمة الإفريقية نظاماً قبلياً، وكان شيخ القبيلة ينظر إليه على أنه ممثل للإله، وأنه زعيم عظمي لأقوى القبائل وتشترط فيه القوة التي هي عنصر مقدس. وكان يمثل القمة في الهرم الاجتماعي حيث يعتبر أكبر زعيم القبيلة وقائدها العسكري ورئيسها الدنيوي وكانت العشيرة تشكل وحدة اقتصادية وسياسية كبيرة متكاملة تتألف من وحدات أخرى صغيرة ومبعثرة ومتجاورة وهي الأسرة حيث تطور التضامن بين أفراد

(9) مؤلف مجهول، الاستبار في عجائب الأنصار، حققه سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، القاهرة، 1958، ص 106.

وانظر أيضاً:

- شمس الدين أبي عبدالله الأنصاري، نخوة الدهر في عجائب البر والبحر، دار أوتو، ليزنج، 1923، ص 240.

(10) أبو الحسن علي بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، المكتبة التجارية، بيروت 1970، ص 91 - 92.

وانظر أيضاً:


(11) نعيم قداح، إفريقية العربية في ظل الإسلام، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د. ت، ص 33.
العشرة في المسؤولية المشتركة وفي الأذن بالثأر في واجب الفرد أمام المجموع(12) وهنالك في المرتبة التالية الهيئة الاجتماعية وهذه الهيئة تتكون من طبقات رئيسية هي:

- النبلاء - الزعماء - الجنود - الصناع (ال حدادين) - الشعراء.

وكان تتشر بين هذه الفئات جميعاً عادات اجتماعية سليمة منها أذكر لحوم البقر وتقديم الإنسان قرباناً وواد الأطفال وتقديم الأسلاف واعتقادهم بBluetooth الأرواح وإيمانهم بالسحر والشعوذة كما أنهم كانوا يعيشون عرضاً أو شبه عرضاً لا يغتسلون(13). أما عن الحياة الثقافية والمعتقدات الدينية فإننا نجد أنها في مالي لا تختلف عن سائر المجتمعات الإفريقية الأخرى حيث عمّ الجهل وانشترت الأفكار والمعتقدات السائدة قائمة كلها على أصول الشعوذة والسحر وهناك قبائل تعتقد بكل وتحجج بأنها تنحدر من بعض الحيوانات ويعتقد أفراد تلك القبائل بوجود صلة بينهم وبين تلك الحيوانات وكذلك الأشجار، والمزهري في الأمر أن تلك القبائل تعتقد وتؤكد لأفرادها أن جدها الكبير كان له حلف سري مع تلك الحيوانات أو النباتات كما أنه قد أصبح من الأمور الطبيعية والمشاعر عند تلك القبائل تحريم أفراد تلك الحيوانات أو قطع تلك الأشجار أو النباتات أو إحرارها(14) كما انتشرت الوثنية بين السكان واستمرت متواجدة بين بعض القبائل والافراد حتى بعد انتشار الإسلام.

انتشار الإسلام والتطورات التي أحدثها:

بدأ الإسلام يتغلغل في مالي قبل بداية تشكيلها السياسي المبكر في القرن الثاني عشر وذلك عن طريق الدعاة والفقهاء والتجار المسلمين وقد ركز


(13) نعم قدأ، ص 137.

(14) حامد تراوي، ص 42.

264
هؤلاء جميعاً على الاتصال بالديمقراطي الحاكمة والطبقات العليا إذ أن الإسلام هذه الطبقات كان يعني إسلام بقية أفراد المجتمع وكان إسلام أول ملوك مالي على يد أحد الدعاة المسلمين ويرى لنا البكري هذه القصة إذ يقول أن مالي شهدت سنوات جدب مثالية فاستنبط أهلها بقرايبهم حتى كادوا يفسوها وكان عندهم ضيف مسلم يقرأ القرآن ويعلم السنة فشكنا إليه هذه الحالة وما هم عليه من ضيق فقال: "أيها الملك لو آمنت بالله وأقررت بوحدانيته ومحمد وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كله لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحلّ بك، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص فيه الإسلام وأقرأ من كتاب الله ما تسر عليه، وعلمه الفرائض والسنن وما يسع جهله، ثم أمره إلى ليلة جمعة فأمره فقطير فيها تطهيرًا سابعاً، وألبسه المسلم ثوب فطمن كان عليه وبزرا إلى رجوع الأرض قفام المسلم صلي والملك عن يمينه يأمّه، فصلى من الليال الشاء الله والملس يدعو والملك يؤمن، فما انتحر الصبيح إلا وقد عموه الله بالسقاي، فأمر الملك بكسر الدكاكير (الأصنام) وأخرج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصيته"(15).

لكن أهل المملكة لم يسليموا جميعاً بل بقي البعض منهم على وثنيتهم وأسموا ملكهم بالمسلماني ولا تخفي علينا دلالة القصة التي رواها البكري إذ يتضح لنا عظم المكانة التي يتمتع بها الدعاة المسلمون في بلاط ملك مالي الوثني وبساطة الإسلام وانتشاره بالطرق السلمية وهذا ما يفقد آراء بعض المستشرقين والمحتملين على الإسلام الذين شكوا في انتشار السريع.

إن انتشار الإسلام في مالي وغيره من الأقاليم الإفريقية قد اعتمد في ذلك على عامل هام هو خصائص هذا الدين وذاتيته وقد شهد بذلك بعض المسيحيين المهتمين بهذا الأمر، فهما هو الكاتب الفرنسي المسيحي (ديشان) حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقيا حتى عام 1950 يقول:

(15) البكري، ص 178.
إن انتشار الإسلام في أعظم الظروف لم يتم على العصر وإنما قام على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا إيمانهم العميق ببرهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقت الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعتها بقبيلة القبلة، وقد ميز انتشار الإسلام أمر آخر وهو أنه دين فطرة بطبيعته سهل التناول لا لبس ولا تعقيد في مبادئه سهل التكيف والتبعيق في مختلف الظروف،(16)

ويسلام الطبقة الحاكمة والطبقات العليا القرنية منها أخذ الإسلام طريقه بين مختلف أفراد الشعب وترسخ في نفوسهم حتى أصبحوا من أكثر شعوب إفريقيا تمسكاً به(17).

وحركة الانتشار هذه قد اختلفت من حيث بدايتها وتأثيرها بين مناطق الشمال والجنوب في مالي، فإذا كان الإسلام قد وصل إلى المناطق الشمالية منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي، فإنه قد انتشر في المناطق الجنوبية في عهد المرابطين في القرن الثاني عشر وقد أدى ذلك إلى أن أصبح الإسلام في الشمال أكثر رسماً منه في الجنوب ولا يعود ذلك فقط إلى الفارق الزمني وإنما أيضاً إلى اختلاف مصدر التبليغ حيث تلقى سكان الشمال تعاليم الدين من مصادره العربية الصحيحة، بينما تلقى سكان الجنوب هذه التعليم على أيدي شيوخ الطرق الصوفية مما أضاف له هذه التعليمات شخصية تأثرت بنمط الحياة والأعراف في تلك المناطق النائية(18).

(16) محمد فتح الريادي، انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، دار قتبة، بيروت، 1990، ص 136.

(17) عصمت عبد الحفيظ دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 155.

(18) حامد عثمان، المسلمون في العالم، قضايا وتحديات، ج 1، دار إقرأ، مالطا، 1990، ص 217.
وإجمالاً فإننا نستطيع أن نقسم المراحل التي مرنا بها حركة الانتشار الإسلامي في مالي إلى ثلاث مراحل رئيسية هي:

المرحلة الأولى: وهي التي بدأت منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي وقد حدث على أيدي الدعاة والفقهاء المسلمين.

المرحلة الثانية: بدأت مع التشكيك السياسي المبكر لمملكة مالي في القرن الثاني عشر على أيدي المرابطين.

المرحلة الثالثة: حدثت على أيدي قبائل الماندي التي تسلمت القيادة من المرابطين بعد اعتناقها للإسلام حيث أنجزت عمل جاهزة على نشر بين القبائل الوثنية وجميع الفتوحات العسكرية التي قامت بها هذه القبائل ارتبطت بالدعوة الإسلامية كما انتشرت الطرق الصوفية دوراً كبيراً في نشر الإسلام في مالي وقد انتشرت الطريقة التيجانية في الجنوب والقاحر في الشمال وقد اشتد الصدام بينهما طوال القرنين الثالث عشر والثامن عشر وقد ظل القريشان يتبادلان الاتهامات التي بلغت حد التشكيك في سلامة العقيدة.

ورغم هذا الاختلافات والظروف ورغم تعدد السمات واختلافها في المجتمع المالي إلا أن ثمة قاسماً مشتركاً ووضحاً بين أفراد هذا المجتمع وهو التمسك بتعاليم الإسلام وبالعبادات وتحتلاً الصلاة مقدمة تلك العبادات وقد عمرت المساجد حتى أن ابن بطوطس اعتبر أن من أعمالهم الحسنة إقبالهم على الصلاة ومشاركتهم بها وازدحاتهم في المساجد والزامهم بها في الجماعات وحضورهم أولادهم عليها. حتى أنه في يوم الجمعة إذا لم يبك مرء فإنه لا يجد مكاناً لكي يؤذخ ورثناه يطيبون السنة ويحبذون ليست الياض يوم الجمعة، وحتى إن لم يكن لأحدهم إلا قميص غسله ونظفه وشهد به الجمعة، وكانت عنايتهم بحفظ القرآن الكريم كبيرة حتى أنهم كانوا يجعلون لأولادهم القيوه إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تلوك عنهم حتى يحفظوه(19).

(19) ابن بطوطس، تحتا النظرة في غزاة الأمراء وعجائب الأسفار، جـ 2، 268
ولقد اهتم سلاطين مالي بتكثيف أهل المملكة دينياً فاستقدموا العلماء والفقهاء من مختلف البلاد من مصر والغرب والأندلس حتى أن بعض الروايات قد ذكرتهم بنحو 4200 عالم مسلم في مدينة جنوب وحدها - وإن صح الرقم - فإن في ذلك دلالة كبيرة على مدى انتشار الإسلام في مالي (20).

ولم يكن سكان مالي باعتناق الإسلام والحرص على تأدية فرائضه وتكريم علمائه وإنما أخذت تدعو له بين الوثنيين وأخذت ترسل الدعوة والعلماء لنشر الدين الجديد بين هذه القبائل وخاصة في بلاد الهوسا (21).

ولم تقترح جهود مالي على محاولة نشر الإسلام سلمياً بين الوثنيين بل شنت عليهم حرباً جهادية فانشأت حمياتها العسكرية من ساحل المحيط غرباً إلى كادوم في أرض الهوسا شرقاً وإقليم الشراعي والغابات وإلى الصحراء شمالي وأصبح لمالي الدور البارز في نشر الإسلام حتى أن عبيد المغري في كتابه الجغرافيا قال: "إن أهالي بعض المناطق كانوا كتاراً زمن البكري أما في زمانه فقد أسلموا" (22).

التطورات السياسية:

ما يميز الإسلام في انتشاره في القارة الإفريقية بصورة عامة وفي مملكة مالي موضوع درستنا بصورة خاصة هو ظهور زعامات إسلامية بين السكان الأصليين وقد أدى ذلك إلى تشكيل طبيعتين هما:

المطبعة الخيرية، القاهرة 1904، ص 244.
(20) حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا، إدارة الثقافة والنشر بالجامعة السعودية، 1981، ص 102.
(21) دنشص، ص 152.
(22) المغري، ص 90.
أولاً: إن ظهور هذه الزعامات كان أبعد أثراً في خدمة الإسلام وأكثر
نجاحاً، إذ صور الإسلام بصورة ثقافية قومية وفكر إفريقي، فلم يعد الدخول في
الإسلام تبعية لدولة غربية أو اعتراضاً بدين جماعات من الخارج بل أصبح انضواء
تحت رايات يحملها زعماء من الداخل، وأصبح الدخول في الإسلام يعني
الإسهام في تكوين مجتمع إفريقي سليم.
ثانياً: آلت إلى هذه الزعامات داخل المجتمعات الإفريقية السلافين الدينية
والسياسية وقد أدى ذلك بطبيعته الحال إلى إحداث تغيرات جوهرية وأساسية في
البنية السياسية والاجتماعية في الحياة الإفريقية ككل تمثلت في قيام الممالك
والمركز الإسلامية التي تأثرت إلى حد كبير بخصائص وسطات الدولة الإسلامية
وتتأتي مالي في صدارة هذه الممالك التي أخذت بالنظام والمبادئ الإسلامية.
وإذا ما تقدم بصبح لزاماً علينا إذا ما أردنا فهم الحياة السياسية والدينية
وتطورها في هذا الإقليم أن ندرس هذه الشخصيات السياسية والدينية والتي
لعبت دوراً بارزاً في نشر الإسلام وفي تطوير وتغيير البنية السياسية والاقتصادية
والاجتماعية والثقافية السائدة والمرؤوسة في هذه المنطقة.

سلاطين مالي:

يعود الفضل لإبن خلدون ومن بعده القلقشندي في إيراد القائمة الكاملة
لسلاطين مالي من أواسط القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر
الميلادي، ولقد ذكر ابن خلدون أن الملك برمانان - برمانان - أول من أسلم من
سلاطين مالي وأنه حج إلى مكة وأنه افتتح أثره من جاوة بعده من السلاطين(23)
وبيند أن مالي كانت قد وصلت قدرها لا يتأس بها من الاستقرار والقوة بدئها أن
أول ملوكها تركها وسافر قاصداً أداء فريضة الحج.

(23) ابن خلدون، العبر ودينان المبتدأ والخبير، ج 1، مؤسسة الأعلامي، بيروت،
1971، ص 200.

270
ولقد نشأت القبائل المالكة في مندنجو من قبائل كوتا التي اعترفت
الإسلام منذ منتصف القرن الحادي عشر (24).

وترك أسرة كيتا هذه أنها من نسل بلال ابن رباح مؤذن الرسول، وأنه قد
حكم من نسل بلال ثمانية عشر ملكًا تقف عند كون فوتا سنديانا سونجانا
المؤسس الحقيقي لمالي (25) وسونجانا هذا هو الذي أسماه البكري وكما سبق
أن أشروا بالنيلاني، كما تقول هذه الأسرة بأن لوالو ابن بلال بن رباح كان أول
من قد استوطن في بلاد المندينة - النواة الأساسية للمملكة - وأسس مدينة
كيرى أوكي ثم خلفه ابنه لافال كلامي الذي أنهب داهال كلامي الذي خلف
لهما تول كلامي وكان حفيد الأخير ماماري كاتي هو الذي وسع ملك آل كيتا
لبشاف سائر بلدان كيرى - كيرى - بكرو - بوريا، حيث أن كافي هذا كان صيادًا ماهراً
فيه عند إعداده إلى تكوين أول قوة عسكرية له من الصيادين حيث جمع شتاتهم عندما
عزم على تكوين جيش واستعان بصيادى القرى الأخرى مثل كامارا وترادري،
وأصبح هذا الجيش هو المدافع عن التجمعات القروية، وتحدد فترة حكمه
بأواقي القرن الثاني عشر وقد خلفه أربع أبناء كان من بينهم نابو كيلين الذي
أهبط كون فوتا والد سنديانا الذي جعل مملكة مالي الصغيرة إمبراطورية
عظمى (26).

سونجانا 1230 – 1255:

تحيط الروايات الشفوية المستقيقة منها تاريخ مالي شخصية سونجانا بهالة
عظيمة من التقدير يخلط فيها الخيال بالأسطورة والواقع، أما في جوليانا

(24) شارل أندره جوليان، تاريخ إفريقيا، ترجمة طلعت عوض، دار نهضة مصر,
القاهرة، 1968، ص 92.
(25) نعيم قدح، ص 45.
(26) ناني، ص 141.
العربية فقد أخبرنا بن خلدون أن اسمه ماري جاثة، حيث أن ماري تعلّم بلغتهم الأمير الذي يكون من نسل السلطان وجافة تعلّم الأسد، ووصف بأنه أعظم ملوكها حيث استطاع إخضاع صوصو(27) وأدك الفلكشندو ما ذهب إليه ابن خلدون. أما الروايات الشفوية فإنها تجمع على أنه يعتبر بمثابة الفاتح وأعماله التي قام بها هي أعمال عظيمة.

لقد كان سونجاتا في بداية حياته مقعداً، وعندما أصبح قادرًا على السير، اغتتصب العرش منه أحد الطايعين به وهو ذكر توما فاضطر للهرب مع والدته وشقيقه إلى غابة حيث استقر في مينا ونال إعجاب ورغب من مدّى مما فاعتمد عليه وأقول عنه وما سنده إليه أعماله كثيرة كبرى وواجها وهو في مينا مهمثين. عددٌ كانوا يحظونه على استرداد عرشه وأبدى تأييدهم واستعدادهم لمساعدته، وبالفعل أخذ يعدّ العدة لذلك بعد أن زٌردها من مدّى بقاؤه من الجندر رجع بها إلى مينا حيث وجد ترحيماً والتفاؤل حوله من قبل القادة حيث كانت كل عشيرة قد كونت جيشاً وتمّ اجتماع هذه الجيوش والفصائل مع قوات بنوجاتا في سهل سيبى وأعطيت القيادة العامة لهذه الجيوش لسونجاتا(28).

كان سومارو ملك صوصو مستاءً من المكانته التي وصلتها مملكة مالي ومن اتساع حدودها مع مطلع القرن الثالث عشر ذَآمر ضد مالي ولكن يبدو أنه قد حدث انشقاق في جهة صوصو حيث نشب الصراع بينه وبين ابن أخيه وقائد جيوشه في نفس الوقت ويبدو أن هذا الصراع كان قوياً لدرجة أن الأخير انضم إلى جيوش سونجاتا المعتمرة في سيبى، ووقع الاشتباك الأول بين جيوش مالي وصوصو وبعد معركتين متكافتتين كان اللقاء الحاسم في كيرينا سنة 1230 حيث

(27) ابن خلدون، الترجمة، ج، ص 20، الفلكشندو، ج 5، ص 292.
(28) ناني، ص 143.

272
تمت الغلبة لسونجاتا بفضل جيشه القوي والمنظم والملتهب حماسا وتآيدا لقائدهما.

لم يكن نصر سونجاتا نصرا عسكريا حاسما على خصم عند فحسب بل كان له أثر أكثر أهمية تمثل في توقيع عرى التحالف بين تلك العشائر التي كونت الجيش الذي أحرز النصر في كيرينا. وبعد أن حرم سونجاتا بلاده لاحق سومارو ولكنها ألقت منه فزع سونجاتا على صوصو وأخضعها واستمرت تحت حكمه خمس سنوات، وفي عام 1240 نقل عاصمة ملكه من جرنيا إلى مياامي التي بناها على أطراف نهر النيجير الأعلى متوسطة بذلك أنحاء الإمبراطورية التي امتدت من بلاد الهوسا شرقا حتى المحيط غربا وضمت مصادر الثروة المعدنية الرئيسية كمناجم الذهب والملح.

ولو حولنا تقسيم الأسباب التي جعلت سونجاتا يقدم على نقل عاصمته لوجدناها تتلخص في الآتي:

1 - رغبته في أن تحتل عاصمتها موقعا وسطا في إمبراطوريته إذ أن العاصمة القديمة كانت بعيدة عن مركز الدولة.

2 - علم شعوره بالأمان بين أفراد عائلته في عاصمته السابقة، خاصة وأنها محاطة بالجبال مما يجعل الاتصال بها أمرا صعبا.

3 - يمتاز موقع العاصمة الجديدة بالحصانة، ووجودها في سهل بجاري سهل نهر سنكراني الذي يصلح للملاحة طول العام وتحيط به نصف دائرة من المرتفعات كما أنها متنامسة لمناجم الذهب ومصادر الكولا والزيت وهي

(29) عبد الرحمن ذكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1968، ص 98.

(30) أمين الطبيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 160.

273
منتجات تدر أرباحا هائلة، وقد وصف لنا العمري طريقه بناء هذه الحاصلة
فقال: "إن البناء بالطين المذكور يكون بقدر ارتفاع ثلثي ذراع ثم تترك البناء
حتى يجف ثم يبنى عليه مثله حتى يتم الإنتهاء، أما الأسقف فقد كانت تصنع من
الخشب والقصب على شكل قباب. وتم التعرف على هذه المدينة عن طريق بعثة غربية بولندية أجريت حفرياتها منذ عام 1968 وقد جاءت نتائجها
مطابقة تماما لوصف العمري.

وبعد عام 1240 لم يشترك سونجانا في معارك حربية، غير أن قواده الذين
تدردوا على أساليب القتال وأقنعوها وأواصلوا عمليات الفتح والغزو حتى نقضوا
حدود بلادهم باسمه وضموا للمملكة بلاد ما وراء السينغال التي لم يسبق غزوها
وواصلوا حتى نهر جامبيا وبلاد النجران لقد حاول سونجانا استنباطا بعد أن وجد
أركان دولته أن ينظم الإدارة فوضع دستوراً لملامي كان عبارة عن تحديد لقواعد
العرف والحرامات التي لا يزال أثرها باق حتى الآن في تنظيم العلاقات بين
العشائر المختلفة. وفي عام 1255 توفي سونجانا بعد حكم دام حواليربع
فرن ولا يعرف السبب الحقيقي لوفاته خاصة إذا عرفنا أن الروايات الشفوية التي
استنقا منها تاريخ مالي تضارب حول ذلك فالأغلب يقول أنه مات مقتولاً في
إحدى الحفلات بسهم طالش وعن غير قصد، في حين أن البعض الآخر يرى أنه
مات غروفاً في مياه نهر سنكراني في ظروف يكتشفها الغموض. وبعد وفاته
توقف العمل بالبداية الذي كان متبعاً منذ القدم في تواريخ العرش أي بدأ خلافة
الحواش (الأخيرة واحداً بعد الآخر) فقد تولى ابن سونجانا الأكبر منسداً ولي
(علي) 1200 - 1270 وافتدى ستة سلفه في الحج إلى مكة ووزير مصر في عهد

(31) نيائي، ص 147 - 149.
(32) القلشندى، ج 5، ص 283.
(33) عبد الرحمن ذكي، ص 102.
(34) نيائي، ص 156.

274
السلطان بيرس في طريقه إلى الأراضي المقدسة.

وفي الفترة ما بين 1270 - 1307 حكم مالي سبعة أباطرة منهم منصى خليفة، شقيق منصى علي - الذي غلب عليه الحماقة فقد روى الفلاشيشدي أنه كان يرمي الناس بالسهام فيقتلهم، فنقم عليه الناس فقتلوه (35).

وتعتبر فترة حكم ساكورا أحد قواد سونجاتا 1282 - 1300 من أعظم فترات تاريخ مالي وقد كان ساكورا هذا أكثر أهمية من ملوك مالي السبعة الآخرين الذين حكموا حتى سنة 1307 فقد قدر له أن ينقذ الإمبراطور من الانهيار الذي كاد أن يعصف بها بنسب المؤامرات والدسائس التي كانت تحاكم حول العرش حيث فقد استولى على الحكم بالقوة وواصل فتوحاته لتوسع حدود المملكة حيث غزا تكروير وفتح بلاد كوكو وغزا ونهاة وجاو عاصمة سنغاي في الشرق (36).

وفي عام 1300 أدى فضيحة الحج في أيام السلطان الناصر قلاوون وفي طريق العودة اغتيل على أيدي بعض قطاع الطرق والتصويب (37). أما المؤرخ الحديث عبد الرحمن ذكي فيقول: "تابع ساكورا طريقه إلى أكسوم في الحبشة والسودان الشرقي ومن غير المعروف سبب ذلك، وبمجرد وصوله الهر هاجم عليه بعض الأهالي في الصومال فقتلوه (38)."

ولكننا نرجح رواية ابن خلدون لأنه يعتمد في معلوماته على مصادر موثوقة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه من غير المعقول أن يترك الطريق التي اعتاد سلفه على ارتدادها في غدوهم ورواجهم إلى مكة وتجه إلى الحبشة في السودان الشرقي.

(35) الفلاشيشدي، ج. 5، ص 295، ابن خلدون، العبر، ج. 1، ص 200.
(36) أحمد ذكي، ص 103.
(37) ابن خلدون، العبر، ج. 1، ص 200.
(38) أحمد ذكي، ص 104.
منسي موسى 1307-1332:

انتقلت الخلافة من أولاد سنديانة إلى أولاد إخوته أبي بكر واعتلى موسى أول أولاد أبي بكر العرش في سنة 1307 وقد بلغت مالي أوج قوتها وثرائها في عهد النبي موسى فقد استطاع قواده فتح تمبكتو وولاته ووصلت قوته إلى جاوي-غاغو في منطقة النيل الأوسط وأخدت لسلطانها الصفراويين الرجل الذين كانوا يثيرون الغريب، كذلك بسط نفوذه على أوران ونائيم وتارمكت ووصلت الإمبراطورية في عهده درجة عظيمة من التوسع فامتدت من تكرور غرباً حتى دندي شرقاً وفوتاجانون جنوبًا(39).

وقد وصفه ابن خلدون بأنه رجلًا صالحًا وملكًا عظيماً له في العدش أخبار تؤثر عنه(40). ولقد زاد من شهرة مالي وزيوع صيت المنسي رحلة الحج التي قام بها في 724 هـ - 1325 م التي وصفها لنا ابن خلدون والفقهشدي، وتحدث عن ذلك الثراء الأسطوري الذي كان يحمله معه والذي جعل الجميع ينبه بمحده، وقوته وثرائه، ويبدو أن أثر هذه الحجة ظلًا عالقاً في أذهان الناس مما دفع بأحد كبار موظفي الدولة المملوكية بعد فترة من الزمن تسجيلها في كتاب أسماه «الذهب المسبوك» في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ولقد وصف ابن خلدون قافلة المنسي فقال: «أنها كانت تتألف من ثمانية حملات من التبر وكل حمل يزن ثلاث قناطير وإنها صحب معه خمسة ذات في حلل موشية بالذهب يحمل كلًا منهم عصا تزن ستة أرطال من الذهب»(41).

وكان عدد الخرسان الذين رافقوه في الفتح ستة أف حارس وعلى الرغم من أن هذا الرقم يبدو كبيراً إلا أننا لا نستطيع ذلك الخصوصية بعد حادثة اغتيال ساكورة في طريق عودته من الحج ولهذا السبب أصبح سلاطين مالي يعدون بثقة ونظام

(39) هسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، ص 104.
(40) ابن خلدون، العبء، ج 5، ص 200.
(41) نفس المصدر، ج 6، ص 295.

276
رحلات سفرهم، فقد طلب المتهم من جميع المدن التجارية مساهمة خاصة في هذه الرحلة، وعندما وصل المتهم القاهرة أرسل للخزانة السلطانية هدية، كانت عبارة عن حمل من التبر، بل أنه وزع الذهب على كل أمير ورب وظيفة سلطانية.

لقد كان أسلف المتهم يحجون إلى بيت الله الحرام بصفة دائمة ولكن زيارته كأن لها صدى كبيراً حتى أنه يصعب على المرء أن يصدق وصف المؤرخين لها ولكن المؤرخين الأجانب أيضاً تحدثوا عنها وانتهروا إذ يقول أحدهم: «لم يصعب على من أتيح له أن يشاهد بعض الزعماء الإفريقيين هذه الأيام أن يصدق مثل هذه الرواية فالواعد منهم يحمل عصياً تلمع من الذهب اليت تحورته، وتبعه فتاة أخرى يحملها أتباعه وأتباعه».

وعندما وصل المتهم إلى القاهرة وعندما يرى السلطان الناصر قلاوون رفض أن يسجد أمامه وقال له بأنه ملكي المذهب لا يسجد لغير الله فأعفوه السلطان من ذلك.

وبعد أن أدى الزيادة الحج تأخر في مكة بعد انقضاء الموسم حيث حرص أثناء تواجده فيها على شراء كمية كبيرة من الكتب الدينية وخاصة فقه الملكية، رغبة منه في تثقيف أهل مملكته، مما التقى في موسم الحج بالشاعر الأندلسي أبو إسحاق المعروف بالطونجوقي حيث أقنعه بأن يصطحبه معه إلى بلاده حيث

(42) ينEDI، ص 160.
(43) الفلقندي، ج 5، ص 295.
(44) دافوسن (باباز) إفريقيا تحت أضواء جديدة، جمال الدين أحمد، دار الثقافة العربية، بيروت، ب. ت. ص 160.
(45) تقي الدين أحمد المقرزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، حققه جمال الدين الشياط، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1955، ص 110.
بني له قبة مربعة الشكل تعتبر من التحف النادرة في فن البناء، وكذلك شيد أبو إسحاق في تيمبكتو قصراً ومسجداً من الطوب المنلون له مثزنة وسقف من الأخشاب، ويبدو أن هذا الطراز المعماري الذي أدخله إسحاق قد نال رضا واستحسان سكان مالي الأثرياء فاستخدموه في بناء مساكنهم (46).

لقد كان لرحلة الحج تلك نتائج عديدة بالنسبة لتاريخ السودان الغربي في فتراته اللاحقة، إذ ازداد اهتمام مصر - المغرب - البرتغال والمدن التجارية الإيطالية بما مثماً شيئاً فشيئاً، أما في عهد المصري فقد توثقت علاقاته مع سلاطين مصر المماليك، والدليل على ذلك حي بولاق التكرور الذي ينسب إلى أحد الصلاحاء الكبار، وكان يوجد به جالية كبيرة منهم، كذلك خصص أحد أروقة الأزهر للطلبة والعلماء التكالرة (47) وتوثقت علاقة المنسى مع المغرب أيضاً حيث تبودلت الهدايا بينه وبين سلطان المغرب أبا الحسن. وعلى صعيد العلاقات الثقافية أرسل المنسى طلاب العلم إلى فاس والقاهرة لتلقي العلم على نفقة الدولة لكي يحملوا على عاتقهم مسؤولية التعليم مستقبلاً، فكان منهم الأئمة والقضاء والمعلمون في المساجد والمدارس التي افتتحها السلطان لتعليم القرآن في تيمبكتو وجنوب ونامي التي غدت من المدن الثقافية الهامة (48). أما من الناحية الاقتصادية فقد سيطرت الإمبراطورية في عهد المنسى على مناجم الذهب في وتنارة في الجنوب الغربي وفي نغارة وفي الشمال ومناجم النحاس في تكرا في الشرق وتتحكمت في طرق القوارب بين هذه المناجم شمالي جنوبياً، لقد مات منسى موسى بعد حكم دام حوالي ربع قرن وخلفه ابنه معايى (محمود) الذي

(*) لقد ذكر ابن بطوطة أنه عندما زار مالي رأى قبر أبو إسحاق الساحلي في تيمبكتو.
(46) جوليان، تاريخ إفريقيا، ص 43.
(47) محمود خيري عيسى، العلاقات العربية الإفريقية، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، 1977، ص 43.
(48) فداح، إفريقيا العربية، ص 23.

278
استمر حكمه أربع سنوات ثم خلفه منسي سليمان بن أبي بكر شقيق منسي موسى ودام حكمه أربع وعشرون عاماً.

منسي سليمان 1336 - 1358:

يرجع الفضل إلى الرحلات الصغرى ابن بطوطس الذي زار مالي عام 1353 في تزويدنا بعلومات وافية عن السلطان منسي والحياة في البلاد السلطاني وكيفية إدارة شؤون الإمبراطورية، حيث قال عنه أنه كان رجلاً بخيلًا وذكر أنه عندما قدم إلى مالي سلم عليه وانصرف توقع أن يرسل إليه هدية كبيرة كعادة الملك، ولكنه ذهب بضائعة هدية السلطان التي كانت عبارة عن قطعة للحم بقرى ورغا في خز وقذف لين، ويدو أن ابن بطوطس كان مترعماً في التنديد بخل السلطان إذ أن الأخير عاد فامر بإنزلاله في دار خاصة وقرر له نفقة تجرى عليه، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أنه وزع في ليلة القدر على القاضي والخطيب والفقهاء أموالًا يسمونها الزكاة، وأعطى ابن بطوطس منها ثلاثين مثقالًا من الذهب ثم أعطاه عن سفره مائة مثقال أخرى(49).

ولقد لخص لنا القلقشندي أعمال المنسي سليمان فقال: «حافظ المنسي على حدود الإمبراطورية كما تركها له أوشه موسى وشيّد المساجد والمدارس واستلم الفقهاء من مذهب الإمام مالك حرصاً عليه الفقه في الدين . . . وحرص على الصلوات وخاصة صلاة الجمعة التي كان لها تقديس عندهم»(50).

سنديانة الثاني 1360 - 1374:

انتقل الحكم بعد المنسي سليمان إلى ابنه تبتن حيث استمر في الحكم تسعة سنوات وتولى بعده سنديانة الثاني (ماري جافزة) وكان حكمه استبدادياً دام لمدة 

(49) ابن بطوطس ص 228.

(50) القلقشندي، صبح الأعشار، جـ 5، ص 297.

279
اربعية عشرة سنة، وقد ذكر ابن خلدون أن الفاضلي الثقة أبو عبدالله محمد بن وانسون و هو من أصل سجلماسة عاش في كوكو فترة من الزمن وصف سنديانا بأنه: «... أشاد ملكهم، وألفذ ذخترهم، وكاد أن ينتقص شأن سلطانهم وبايع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عند أبيهم، وهو حجر يزن عشرين قطراً، عرضه على تجار مصر المتزعمين على بلده فاتعاوه منه بأبخس نمن، حيث صرف ثمنه على بذله وإسراه ...»(51).

وقد أصابه علامة النوم - وهو مرض كثيراً ما يصيب ساكنة المناطق الحارة حتى أن الإنسان لا يكاد يفيق من النوم - واستمر على هذه الحالة ستين إلى أن مات في عام 1374(52).

منسني الثاني 1374 - 1387:

كان تقية عادلاً منصفاً لم يقت فثار والده، ولكن السلطة الفعلية لم تكن بيده بل كانت بيد أحد وزراءه الذي قضى على أمور الحكم وسيرها بحزم وتفسير وأعاد تنظيم الجيش وقاد عدة حملات إلى البلاد المجاورة مخترقاً حدود كوكو حيث حارب تكيداً تكررت وانتصر عليها حتى طلب أهلها الهدنة، وتميز حكم موسى الثاني ببداية هجوم الطوارق على تمكينو.

وفي نهاية القرن الرابع عشر سادت الاضطرابات والفوضى بسبب دسائس ومؤامرات القصر والتي كانت الأميرات ورؤتها في أحيان كثيرة، وانتهى حكام الأقاليم فرضت ضعف السلطة المركزية وحاولوا الخروج على سلطة المنسي(53).

(51) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 202.
(52) نياني، مالي والتوسع الثاني، ص 158.
(53) القلقشندي، صحيح الأعشار، جـ 5، ص 298 ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 1202، قداح، إفريقيا الغربية، ص 97.

280
وفي سنة 1387 توفي موسى الثاني واعتلى العرش بعده ولستة واحدة فقط
أخوه منسي - معا الذي بدأ به بحروب أهلية انتهت بقتله فاستولى على العرش
بعده صنديكي زوج أم موسى الثاني ولكن أطمح به بعد فترة وجيزة على يد أحد
أحفاد سنديانا الأول مؤسس الإمبراطورية والذي كان يحكم كيتأ (شمال غربي
العاصمة) حيث وجد الفرصة سانحة له فاستولى على الحكم تحت اسم مقام
ماغان الثالث في عام 1390 حيث بدأت على يديه سلالة كيتأ الجديدة التي
استمرت في الحكم حتى مجيء الاستعمار الفرنسي (54).

إدارة المملكة:

إن الإدارة وأنظمة الحكم تكاد تكون مشابهة في مختلف الممالك
الإسلامية في غرب إفريقيا خاصة بعد مرحلة انتشار الإسلام حيث أخذت
جميعها بالنظام الإدارية المعمول بها في المناطق الإسلامية كمصر وشبه الجزيرة
العربية ودول المغرب العربي، وقد كانت المملكة في مالي تدار من قصر
السلطان حيث ترك لنا الرحالة ابن بطوطة وصفا دقيقا لهذا القصر ذو الطبقات
المغشاة بصفات الفضية المذهبة حيث كان السلطان يجلس في مكان معين وعلى
جانبه الخطب والفقهاء والأمراء وكل من أراد أن يكلم السلطان من الرعية كان
عليه أن يتقدم إلى رجل مميز ويسير إليه بما يرى أن يقوله فيتقدم الأخير بدوره
إلى رجل آخر ينقل الحديث بدوره إلى السلطان، كذلك كان السلطان يجلس
إلى منضدة تحت شجرة كبيرة بعد انفجات صلاة الجمعة حيث يستمع إلى مطالب
الرعية ومشاكلهم (55). يبدو أن الأمن والاستقرار كان مستتبًا بفضل حسن
الأدارة، فكان المساك والمقيم في المملكة لا يخاف من سارق أو قاطع طريق،
كما أن أهل المملكة كانوا لا يتعرضون لمال وحاجات من يمر ببلادهم من

(54) ابن بطوطة، تحفة النظراء ج، 2، ص 228 - 239.
(55) نفس المصدر ص 242.
الغرباء ولو كان من القناطر المقنورة إنما يتكونه ببدة ثقة حتى يأخذه مستحقهٌ.\\n\\nكما زودنا الفلكشندي بمعلومات مختصرة عن الأنظمة الإدارية حيث قال:
كأن يوجد بها الوزراء والدائر والقضاة والداوين، وهي أنظمة إسلامية عرفت في مختلف البلاد الإسلامية الأخرى حيث كان السلطان يعتمد عليها في تسير شؤون المملكة، حيث أنه لم يكن يكتب شيئاً بل يوكل هذا الأمر إلى صاحب وظيفته وأن كتابتهم كانت بالخط الغربيٌ.\\nوالجدير بالملاحظة أن هذه الوظائف الكبيرة كانت موزعة بين كبار زعماء القبائل، ولم تتوفر لنا لسوؤ الحظ أية معلومات عن أنظمة الإدارة باستثناء القضاء حيث كان قائماً ومستعماً من الشريعة الإسلامية وكان ذلك طبيعياً بعد أن انتشر الإسلام في المملكة وكانت مكانة القاضي عميقة وكثيرة ما تولى هذه المهمة في بداية انتشار الإسلام قضاة مغاربة وقد كانت هناك محكمتان: محكمة ملكية برئاسة الملك وهي تنظر في جرائم الخيانة العظمى ومحكمة القاضي وهي تختص بالنظر في الجرائم العادية والخلافات بين المواطنين. وكان القاضي يعين من قبل الملكٍ. أما عن الجيش فقد تكونت نواته عندما أراد المؤسس سنديانا أن يحارب المملكة الصفو حيث شكله من عدة فرق عين على رأس كل فرقة رئيساً من أتباعه المخلصين وترأسها وظيفة القائد الأعلى للجيش وقيادة فرقة الفرسان المسلحين بالسيف في حين كانت فرقة المشاة تستخدام الأسلحة الأخرى كالسهام والرماح الطويلةٌ وكان عدد الجيش مائة ألف، عشرة آلاف مقاتل والباقي كانوا من الرحالةٌ.\\nويبدو أن جيش مالي كان قد بلغ درجة كبيرة من\\n\\n(56) الفلكشندي، ج، 5، ص 298.\\n(57) قداح، إفريقيا الغربية، ص 108.\\n(58) أمين أسرة، إفريقيا والعرب، دار الحقائق، بيروت، 1980، ص 20.\\n(59) الفلكشندي، ج، 5، ص 299.\\n(60) ناني، ص 175.

282
القوة وحسن الإعداد لدرجة أن بعض الأمراء المغاربة المخلوعين أرسلوا
سفارات لبلاد المنوي موسي لمساعدتهم على استعادت عروشهم الضائعة(61).

كذلك استطاع هذا الجيش القوي أن يوسع حدود مالي وأن يضيف إليها
الكثير من المناطق التي عجزت قبلها إمبراطورية غانا من ضمها إليها، وصمد
بفضل كفاءة عناصره أمام هجمات الوثنيين والطوارق الذين طالما كالوا
الضربات للمملكة إلى أن تمكنوا من إضعافها والإسهام في انهيارها.

وخلاصة القول أن التأثير في الجوانب السياسية والإدارية كان واضحا من
 خلال نظام الحكم وظهور المملكات الإسلامية وتأثر الشخصيات السياسية والدينية
الأفريقية بالإسلام ولقد اتضح لنا البون الشاسع بين نظام الحكم قبل انتشار
الإسلام وعده، حيث كان النظام القبلي هو النظام المسيطر وكانت أقوى القبائل
هي التي تحكم، ولكن بعد ظهور الإسلام وانتشاره بينهم تكونت المملكات
الجديدة ذات السمات والخصائص الإسلامية فحافظ الإسلام على شخصية كل
مملكة ودولة من هذه الدول التي أصبحت علاقاتها مع جيرانها من المملكات
الأخرى علاقة قائمة على الود والاحترام حيث يجمعها قاسم مشترك هو الإسلام
وتعاليمه السمحاء، وقد حاول ذلك بهذه الدول أن تقيم علاقات سياسية خارج
حدود مملكتها أو بالأحرى خارج إفريقيا حيث اتصل الحلفاء الأفارقة بالبلدان
الأسلامية وكونوا معها علاقات دبلوماسية وتأثروا بأنظمتها المختلفة، حتى أن
البعض من السلاطين الأفارقة طلبا من الخلافة العباسي أن منحهم لقب خليفة
لكي يستمدو حقهم الشرعي في ممارسة سلطتهم وهذا إن دل على شيء فإنما
يدل على مدى تأثر هؤلاء وقائعهم بالدين الإسلامي وتأثرهم به كما يدل على
مدى التأثير الذي أحدثه الإسلام في الحياة السياسية والإدارية في هذه المناطق.

(61) ابن بطوطة، ج 2، ص 240.
تطور الحياة الاجتماعية والثقافية:

كان لتحول غالبية السكان في مالي إلى الإسلام أثر بعيد في حياتهم الاجتماعية والثقافية، ولكن يبدو أن هذا التأثير أو التغيير لم يكن سهلاً ولم يحدث سريعاً كانتشار الدين ذاته وذلك يعود إلى الرواسب والتقاليد والأعراف الاجتماعية المرتبطة جيلاً بعد جيل حيث أن ذاتية الإسلام وخصائصه التي تميز بها منذ زووغه في شبه جزيرة العرب لم يصدم مباشرة بالواقع الموجود بل إنه أرسى تعاليمه ومبادئه وبدأ تأخذ طريقها جنباً إلى جنب داخل المجتمعات التي وصل إليها مع عادات وتقاليد وحياة هذه المجتمعات تاركاً بذلك أمر التمييز والمقارنة لسكان هذه المجتمعات بين ما عاشوا وجلبوا عليه وبين ما جاءهم به الإسلام من أمور سماحة وعادات طيبة تتناقض تماماً مع ما اعتادوا عليه من حياة سابقة. لذا فقد جاء هذا التقويم ببطء ولكنه ينبى على قناة تامة دون إكراه، ولكن هناك أموراً وسمات اجتماعية معينة تغيرت وتاثرت بدخول الإسلام منذ الوهلة الأولى وخاصة موضوع التعامل بين الأفراد (المعاملات اليومية) كانتهاء ظاهرة الربا والجشع في الكيل وأكل أموال الناس بالباطل وعدم الإيفاء بالوعد فهذه أمور سرعان ما تلاشت وحلت محلها تعاليم الإسلام ومبادئه.

أما عن العادات والتقاليد التي استمرت حتى بعد انتشار الإسلام فهي أمور تتعلق بقرارات الأفراد تجاه بعضهم البعض أو تجاه الحاكم أو شيخ القبيلة فعلى سبيل المثال يروي لنا ابن بطوطة: "أننا إذا مثل أحدهم لدى السلطان غياب نابه التي عليه بثوب خرقة بالية ونزع عمامته عن رأسه ودخل على السلطان رافعاً ذيله إلى نصف ساقه وبذل أمام السلطان وضرب الأرض بمرفقه ضرباً شديداً ووقف كالراكع وهو يستمع لكلام السلطان، وإذا تكلم أحد الناس أمام السلطان فرد عليه كلامه كشف ثيابه عن ظهره ورمى التراب على رأسه" (62). ويدعو أن

(62) نسخ المصدر.
عادة رمي التراب على أنفسهم أمام السلطان كانت متأصلة فيهم لدرجة أنه عندما زار الحاج موسى الونجراني بلاد المغرب مؤلفاً من المحسن موسى سليمان حمل معه قفة تراب ليلقيها على رأسه وجمده أمام عاهل المغرب.(63)

ونحن بدورنا نعجب من هذه التصرفات كما تعجب قبلياً ابن بطوطة وغيره من المهتمين بهذا الموضوع، إذ أن احترام الغير وتقديره حتى لو كان ملكاً لا يعني أن يفقد الإنسان احترامه لنفسه بتلك الطريقة التي تبدو فيها السداة ممزوجة بالجهل، لأن التذلل والركوع لغير الله عز وجل أمر مرفوض في الدين الإسلامي وياباه كل مسلم عمرو قلبه بالإيمان حتى أن السلاطين أنفسهم أدركوا هذا جيداً وطبقوه وذلك عندما رفضوا الركوع أمام سلطان مصر قلاوون كما سبق أن أشارنا.

لاحظ ابن بطوطة أثناء إقامته في مالي بعض الأشياء التي استهجنها منها أن الخدم والجوارи والبنات الصغار لا يسترن أمام الناس وهذا شيء غريب لأننا نرى على النقيض من ذلك عناية أهل مالي بأمور دينهم ومحافظتهم على الصلاة خاصة صلاة الجماعة وحفظ القرآن، كما أورد ابن بطوطة رواية مفادها أن السلطان غضب ذات مرة على بنات عمه فحقق منهم واستخرج بالجامع فعما عنهم واستدعاهون ومن عادتهن إذا دخلن على السلطان أن يسترجعون من ثيابهن ويدخلن عرايا، ففعلن ذلك ورضي عنهن(64) وإذا صحت هذه الرواية فإننا لنتعجب من ذلك أشدّ العجب أفلا يكون رضا السلطان عنهن إلا بتلك الطريقة المخالفة للشرع الإسلامي؟

كما ذكر القلقشندي رواية أخرى عن أمير حلب مصر فحواها أن المحسن موسى عندما زار القاهرة حكي له أنه من عادة أهل مملكته أنه إذا تشا لأحدهم

(63) نفس المصدر، ص 243.
(64) نفس المصدر، ص 243.
بنت حسنة أن يقدمها له أمة موطئة فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمين، فقال أمير حجاب مصر لموسى أن هذا لا يحل لمسلم شرعاً، فقال امسي ولا للملوك أيضاً فقال الحجاب ولا للملوك، واتسأل العلماء، فقال والله ما كنت أعلم ذلك وقد تركته من الآن؟

كذلك من رواسب الماضي التي استمرت حتى بعد الإسلام انتشار ظاهرة السحر حيث تعاطى عدد السحر في المجتمع المالي وسيطر على عقول البسطاء منهم وكانوا يعتقدون بفعول السحر ويؤمنون بأنه يؤدي إلىقتل بعض الناس وكثيراً ما كان السلطان يحكم على الساحر بالقتل.

ويبدو لنا من خلال عرض الممارسات السابقة أن الإسلام في مالي قد اتخذ لنفسه محلية متزامناً في كثير مما يتصل بالحياة من خلق وعادات اجتماعية، وإن كان معتقدين نقاوة ورعين إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من تأثير تلك الممارسات الوثنية التي سيطرت على حياتهم قبل معرفتهم بالإسلام.

أما عن التطور الديموغرافى فإن مالي قد شهدت تطوراً ملحوظاً إذ تراوح عدد السكان بين ستة وسبعة ملايين من البشر وأيضاً كان الرقم الحقيقي فإن الوعاء البشري في مالي يضم خليطاً من القبائل والأجناس بعدد انتهاءات العرقية والاجتماعية بصورة مثيرة ومدهشة، فسكان مالي يتوزعون بشكل عام على أصلين عربي وزنجي وبرغم أن هذه الأصول لا تعيش في عزلة غير بعضها وإنما تداخلت تجمعاتها السكانية بقدر تشابه مصالحها الاقتصادية، وهذه الأصول أفرزت عشر مجموعات من القبائل على الأقل تتعايش جنبًا إلى جنب في أرض مالي في الفترة الأخيرة، ومن هذه القبائل سبعة مجموعات ذات أصول زنجية هي: البومبارا، والسراكولي، وبوزو والمنينكا، والصناي، والرخون وبربو، أما

(65) القلقشندي، ج، 5، ص 296.
(66) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، 108.
القبائل العربية فإنها من أصول عربية بطبيعة الحال ولكن الفولانيين يختلط فيهم
العنصر العربي بالعنصر الزنجي، وسبعون بالمائة من السكان مسلمون وخمسة
وعشرون بالمائة وثنيون أم الباقى وهم خمسة بالمائة فهم مسيحيون وتلك نسب
متدولبة مستقرة في دوائر الحكومة (67).

أما بخصوص الجوانب الثقافية وتطورها في هذه المنطقة فإن انتشار
الإسلام ودخوله إلى هذا الإقليم وغيره من الأقاليم الإفريقية يعتبر من العوامل
الحامة والمؤثرة تأثيراً مباشراً في التاريخ الثقافي في القارة وقد حاول الإثيوبيون
التوافق بين ثقافتهم وعاداتهم المتوارثة وبين الثقافة العربية الإسلامية إلى أن
تغلبت الأخيرة بفضل ما تميزت به من صلابة وصيانة ومنطق، وقد استمر
الإسلام والثقافة العربية على نشاطهما حيث أصبحت بعض الأفكار والمدن
الأفريقية مراكز إشعاع للحضارة الإسلامية المزدهرة (68).

وتعود الجذور الأولى للثقافة العربية الإسلامية في هذه المناطق إلى
العصور الوسطى حيث كانت هي الزاد الذي حمله المسلمين الأوائل إلى تلك
المنطقة والذين كان هدفهم سامياً وهو نشر العقيدة الإسلامية وما يتبع ذلك من
نشاط تجاري وعن طريق ذلك استطاعوا نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية
حتى أن الفرنسيين عندما وصلوا إليها عام 1816 وجدوا التعليم العربي المتمثل
في المدارس الإسلامية والكتب القرآنية والمعاهد حيث كان تعليم اللغة
العربية منتشرًا وكانت لكل قرية أو حي من أحياء المدن الكبيرة مدرسة
خاصة (69).

(67) حامد عثمان، جـ، 1، ص 216.
(68) محمود مونتي، رأفت الشيخ، إفريقيا في العلاقات الدولية، دار الثقافة،
القاهرة، 1975، ص. 8.
(69) حامد تراوري، ص 88.
وقد أدى ذلك إلى ربط المنطقة بشمال القارة وشبه الجزيرة العربية بروابط دينية وثقافية عميقة وثابتة حيث انتقلت المؤثرات العربية الإسلامية عبر الصحراء إلى المنطقة وتع ذلك حدوث التفاعل بين الدين الجديد والثقافة العربية الإسلامية من جهة وبين الثقافات والأعراق المحلية من جهة أخرى مما أدى في النهاية إلى أن أصبحت الثقافة الإسلامية هي الأساس في النواحي الإدارية والمعاملات التجارية والتعليم وغيرها. وهكذا أصبح دخول الإسلام إلى المنطقة يعني الإسهام في تكوين مجتمع إفريقي خاص وذاتي مما أدى إلى بروز مراكز ومدن إسلامية تحمل طابعاً ثقافياً خاصاً ومتميزاً مثل مدينتي جين وتمبكتو اللتين ارتبط تاريخ مالي الثقافي والحضاري بهما ارتباطاً وثيقاً، لذا يصبح لزاماً علينا إلقاء الضوء عليها وعلى الجوانب المتعددة والمتعددة والتي جعلهما مركزين هامين من مراكز الثقافة العربية الإسلامية من ناحية ومركزين هامين من مراكز انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية بصورة خاصة وإفريقيا بصورة عامة منذ عهد المنسي موسى (70).

تقع مدينة جين التي توجد الآن في جمهورية مالي على خط عرض 35 شمالاً وخط طول 9 شرقي غرينتش وقد كانت في بدايتها بلدة صغيرة ظهرت في قلب دلتا نهر النيل على أنقاض إحدى مدن مملكة غانة ويقال أن اسم غانيا اشتقت من كلمة جين وهي أقدم مدن غرب إفريقيا وغانيا هو الاسم الذي أطلقه البرتغال على غرب إفريقيا في القرن السادس عشر، والهادئة الفرنسي ريبه كاليه هو أول أوروبي وصل إليها في 11 مارس 1828 وقد دخلت هذه المدينة الإسلام في بداية القرن الثالث عشر بعد انتشار المرابطين في غرب إفريقيا. وداعمها وزادت شهرتها في العصر الذهبي لإمبراطورية مالي الإسلامية، وقد وصفها المؤرخ عبد الرحمن السعدي بقوله:

(70) دونالد ويفر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ت. رائد بديري، دار الجيل، القاهرة، د. ن، ص 47.
إنها مدينة عظيمة ممونة مبكرة ذات سعة وبركة ورحمة، جعل الله في أرضها خلقاً وجبلها، وطبيعة أهلها التأمل والتعاطف والمواساة. وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح وأرباب الذهب، وكلا المعدنين المباركين ما كان مثلهما في الدنيا كلاً، فوجد الناس في التجارة إليها كثيراً وجمعوا من الأمواج ما لا يحسب.

وقد أيد هذا القول المؤرخين الأوروبين الذين قالوا عنها أنها كانت سوقاً عظيمة من أسواق المسلمين يجتمع فيها تجار الملح من إقليم تغازا (Tahada) على مسيرة يومين إلى الشمال من توديني (Tauoddeni)، وتجار الذهب من مناجم باكوكو (Bakoko) ويفضلا تجعت القبائل في تمبكتو من جميع الجهات المجاورة وكانت أشبه بمركز ثقافي ينافس تمبكتو في هذا المضمار حيث ازدهرت الدراسات الدينية والفقهية فيها وظلت على هذه الحالة تمارس نشاطها الثقافي في المدارس والمساجد التي ألحقت بها المعاهد للدراسات الإسلامية (72) وعن فقهائها يقول السعدي:

فقد ساق الله لهذه المدينة المبكرة سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل شبّ منهم "مسعم كنكي" الذي كان فقيهاً صالحاً جليل القدر في نصف الليل يخرج من داره إلى الجامع لنشر العلم إلى الإقامة ومن بعد الصلاة إلى الزوال، ثم يرجع إلى داره، ثم من بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر، وهكذا كانت عادته مع الطلبة (73).


وانظر أيضاً:

ويعتبر مسجده الكبير رمزاً وعلامة لا تخطئها العين فحيثما ذهب المرء
يلمع جداً من عمارته الشاهقة الصريرة، وقيل أن هذا كان في الأصل مقرًا لقصر
ملك كبير؛ إذ يروى أنه عندما أسمل هذا الملك في نهاية القرن السادس عشر
الهجري أي حوالي 1200 م حا حذوه رعيته وجمع كل العلماء في مملكته
وكان عددهم 4200 عالماً حيث طلب منهم أن يدعو الله أن ينصر مدينته ثم هدم
قصره وبنى مكانه مسجداً كبيراً تعبيراً لجاهل لسلاجقة الإسلام (74).

أما المدينة الثانية التي كان لها مركز ثقافي مرموق فهي مدينة تمبكتو التي
كانت لها شهرة كبيرة في المجالين الثقافي والتجاري ولقد اختلقت الروايات
حوش نشأتها وتطورها، إذ يقول عنها حسن البوزاز: "تمبكتو اسم مدينة بناها
الملك منى سليمان عام 610 هـ (1214 م) على بعد نحو اثني عشر ميلاً من
أحد فروع النيل" (75).

وهناك رواية تقول إن قصتها بدأت في الصحراء، حول بقر ماء كانت تُخف
عندها قوافل الطوارق لترنوي وعند هذه البقر كانت تقيم امرأة تدعى "بوكتو"
عرف المكان باسمها تمبكتو وهي تعني في لغة الطوارق مكان بوكتو واستمر
اسمها على هذا الحال بمرور الزمن وأن عمر هذه المدينة لا يتجاوز 880 عاماً
أي أنها أنشأت حوالي عام 1110 م (76).

أما عن تطورها فهناك رواية تقول بأنه نتيجة لظهور الدعوة الإسلامية في
العصور الوسطى ونشاطها خصوصاً بعد إقصاء المسلمين من غرناطة حيث
خرجت جموع كثيرة من المرابطين يدعون سلمياً إلى الإسلام مستعملة في ذلك

(74) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ت حسن إبراهيم حسن ط 4، مكتبة
الهضبة المصرية، القاهرة 1957، ص 355.
(75) حسن البوزاز، وصف إفريقيا، ص 165.
(76) حامد عثمان، المسلمون في العالم، ص 221.

290
اللغة العربية والتجأ نتيجة لذلك عدد من العلماء والشعراء من الأندلس عن طريق المغرب (مركز) وتونس إلى مدينة تمبكتو التي كانت خلال القرن السادس عشر أهم مركز تعليمي في غرب إفريقيا(77) وإن اختفت الروايات في تاريخ نشأتها إلا أنها تتفق على أنها مدينة إسلامية عربية لم تعترف دينًا غير الإسلام، ويعتبر أهلها بالمأثرة التاريخية القائلة إنها المدينة التي لم يسجد على أدبها لغير الرحمن، ويقول السعدي في هذا الصدد: إن تعرف عبادة الأوثان، ولم تعبد غير الرحمن، وإنما سقطت قطة وخرج المسلمون فيها فورًا من المذاهب كانت تمبكتو الملأج والعلاقة(78).

لقد كان تمبكتو علاقات ثقافية وطيدة مع مدن الشمال ومصر والمدن المزدهرة ثقافيًا مثل فاس والقروان وغدامس وتلمسان وجامعة الزيتون وجامعة الأزهر، وكانت حركة الدعوة الإسلامية التي وجدت طريقها إلى غرب إفريقيا من التجار والدعاة الذين كانوا يفدون إلى هذه المدينة قد بُ络ت مع بداية العصر الحديث حياة الشعوب في المنطقة وطبيعتها بالطابع الإسلامي وبالثقافة الإسلامية وأصبح الإسلام بمثاباة الأيديولوجية لكل الأنظمة القومية التي استمرت حتى القرن السابع عشر (79). ولقد شكل الإسلام وثقافته في هذه الأقاليم عائداً قوياً أمام التضليل الفرنسي فيما دعم بالإفصاح ماج (Mage) إلىقوله: إن أكثر الأمراض التي تعاني منها إفريقيا الغربية مردها إلى الإسلام(80).

ومما يميز تمبكتو جامعتها التي تمثل إحدى المنارات للتقدم الفكري

(77) عبد القادر زيادية، ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن السادس عشر، المجلة التاريخية المغربية، العدد 7، 1977.
(78) السعدي، ص 173.
(80) Mage (H) Voyage dans la Soudan occidenttal (1863- 1866), Paris, 1980, P.303
والثقافي في العالم الإسلامي وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي كامتداد للصحراء الكبرى حيث اعتبرت امتداداً طبيعياً للشمال الإفريقي وحرصت القوافل التجارية على اتباع الخلف الصحراوي هذا فضلاً عن قوافل الحج، كل هذا ساعد على تطوير وتغذية الجو التعليمي نتيجة لما يحمله هؤلاء الرحلة من أفكار وأخبار عن العلم والمعلماء والكتب والتأليف الجديد وحلقات التدريس والمناظرات وغيرها ولقد تطورت الحياة الثقافية في تمبكتو تطوراً ملحوظاً منذ عهد الموسي موسى الذي اجتمعت إليها عدداً كبيراً من رجال العلم والثقافة، وأصبحت قبالة لصالح الزائرين ومن أهم المعالم الثقافية في العالم الإسلامي للتدريس في مدارسها التي بلغت مئات وخمسين مدرسة في نهاية القرن السادس عشر، وكذلك في جامع سنكري وهو الجامع الذي أسس في عام 1450 وتطور إلى جامعة شهية بجامعة الأزهر(81).

لقد أصبح المسجد مركزاً للدراسة الجامعية التي تقوم على علوم الدين والشرعية وفقه اللغة، وأصبحت ملتقاً لطلبة العلم من كل إفريقيا الغربية وقامت بنفس الدور الذي قامت به معاهد القاهرة الدينية(82).

وقد أسندت الإمامة في هذا المسجد في كثير من الأوقات إلى علماء مغاربة وخاصة في الفترة المبكرة من انتشار الإسلام في مالي نذكر منهم عبد الرحمن البلبالي، أبو القاسم التوائي، ومنصور الفزاني(83).

(81) قمر الدين محمد فضل الله، "للمحة تاريخية عن مملكة سنغافور الإسلامية" مجلة الدعوة الإسلامية، طرابلس، ص 223.
(82) محمد عبد الفتاح إبراهيم، إفريقيا من السنغال حتى نهر جوبي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ص 164.
(83) أحمد الفيروي "الجاليات العربية المبكرة في السودان" مجلة البحوث التاريخية، العدد 1، السنة الثانية، مركز الجهاد، طرابلس، ص 249.
كذلك كان علماء تمبكتو خلال رحلاتهم كثيرة الزيارات لجامع الزيوتة وفاس والقاهرة وأن علماء فاس وتلمسان كانوا يشارونهم في المسائل العلمية والقضائية (٨٤)، كما شهرت تمبكتو عالمياً ببيع المخطوطات المغربية والتي أصبح التجار عن طريقها يحصلون أرباحاً هائلة فاقت كثيراً ما يحصلون عليه من السلع الأخرى ومن بينها ما تركه لنا المؤرخ العالم أبو العباس أحمد ابن أحمد المعروف بأحمد البابا السوداني(٨٥) الذي تخرج من هذا الجامع الجامعة وقد ألف ما يزيد على الخمسين كتاباً في مختلف العلوم وما يزال معظمها مخطوطاً حتى اليوم، وتكررنا لما لهذا العالم فقد أطلق اسمه على عدة منشآت على رأسها مركز البابا للتوثيق والبحوث التاريخية، وقد اختارت اليونيسكو مدينة تمبكتو مقرأ لهذا المركز لأهميتها التاريخية من جميع الناحية الدينية والعلمية والتاريخية والحضارية وقد تمكنت هذا المركز من جمع أكثر من ألف مخطوطة عن طريق الشراء أو الإعارة أو الهبة وفي موسم الأخطار تُساعد المكتبات القديمة المهجورة وتفتح المكتبات والكتب النادرة (٨٦).

وكل أسرة في تمبكتو تمتلك مكتبة عامة بالكتب وكان الناس يحفظونها في غرف مغلقة بدون نوافذ وقد أمكن إقناع أصحابها بضرورة فتح نوافذ تلك الغرف على نفقات المركز حفاظاً على المخطوطات الموجودة فيها (٨٦)، كل هذا


(٨٤) من أهم مؤلفاته "نيل الابتكار بتطور الدلبج" حيث اشتمل على مجموعة هائلة من المعلومات إلى ذكر مخطوط "الرد على الشابيه المرابط عرفه وصحبه" تأليف الفقيه عمر بن محمد الأنصاري القسنطيني الموتى عام ١٥٥٢ وقد افتقر بذكراها.

انظر:

Felex du Bois, P. 254- 255.

(٨٥) حامد عثمان، ص ٢٢٥.

(٨٦) نفس المصدر.

٢٩٣
إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذه المدينة والتطور الثقافي الهائل الذي شهدته ومدى تخلف الإسلام وثقافته في هذه الأقاليم.

مرحلة التدهور والانهيار:

بعد مراحل التطور والتقدم الحضاري والعلمي الذي شهدته مالي نتيجة دخول وانتشار الإسلام فيها وتفاعل حضارة وثقافة الشمال الإفريقي بحضارة جنوب الصحراو وكلا بنيت على أسس إسلامية، بدأت مالي تشهد مرحلة أخرى هي مرحلة الانهيار والسقوط وإن كانت هذه طبعة وسن الحضارات الإسبانية إلا أن الملفت لنظر هنا أنها بالنسبة لمالي فقد كانت سريعة وقاسية ولقد اكتشفنا هذه المرحلة بالذات الغموض حيث أنها نجد صعوبة متناهية في سد ثغراتها ومعرفة دفاتر الأمور حولها حتى أنه يصعب علينا الإلمام الكامل بأسماء السلاطين وأخبارهم وأعمالهم وقد تميزت هذه المرحلة (مرحلة ما بعد القرن السادس عشر) بميزة هامة في تاريخ هذه المملكة وهي تحول اهتمام الإمبراطورية تدريجيا نحو الغرب وتركز التجارة في السواحل الغربية وبدء ظهور دور البرتغال على المسرح السياسي في غرب إفريقيا بعد احتلالها لساحول عام 1415(87)، ونتيجة لذلك لم يعد التجار المغاربة وحدهم هم المتعاملون مع إفريقيا الغربية وبدأت أخبار البرتغاليين ومعها المصادر الأوروبية تحل محل المصادر والحواليات العربية عن مالي وخاصة الأقاليم الغربية منها مع كل أسف فإننا لم نستطع الحصول على المصادر العربية التي تهم بتاريخ الممالك السودانية أو ما يطلق عليها المصادر السودانية خاصة وأن المصادر العربية بعد ابن خلدون لم تعد تقدمنا بأي معلومات لهم إلا إذا استثينينا الحسن الوزان في مؤلف وصف إفريقيا أو عبد الرحمن السعدوي في معلوماته القوية حول تاريخ

(87) ماديا نال، "تدوير إمبراطورية مالي", تاريخ إفريقيا العام، ج 4، إشراف نياني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1988، ص 182.
الممالك السودانية وربما يرجع ذلك إلى أن مركز المملكة قد أصبح يتجه كما ذكرنا نحو الغرب مع بداية التواجد البرتغالي إذ أن تجارة مالي مع العالم الإسلامي قد تحولت تدريجياً نحو الساحل الغربي في حين ظلت التجارة التي احترقاها المسلمون على حالها لم تتغير.

لقد بدأ التدهور التدريجي لمملكة مالي في القرن الخامس عشر وكان العامل المباشر في مملكة غانا الصنفية التي بدأت في الظهور والانتشار في النجع الأيمن شرقي مالي حيث استولى عليها أملاك مالي الشرقية والشمالية وسيطر الطوارق والبربر على ولايا وتمبكرو (88).

وجاء البرتغاليون ليحكموا الدور وليسوا في إنهاء مالي - كما ختى هي من قبل نهاية مملكة غانا - وذلك عن طريق تدخلهم في الحياة السياسية للغرب الأفريقي في عدة شكلهم في بسط سيطرتهم على المناطق الساحلية سعوا إلى كسب ثقة الحكام المحليين حيث أوقفوا بعثات دبلوماسية إلى موسى الثالث وأولين الثاني (على الثاني) وكان الهدف المعلن لهذه السفارات هو مناقشة قضايا مرتبطة بالتجارة، ولكن الهدف الحقيقي كان العمل على دراسة موقف وتقييم المناخ اللاقتراض على هذه المملكة الضييعة والمنهجية وسعوا إلى تحقيق ذلك عن طريق إرسال المكتشفين الذين كانوا كالذئاب في جلود الأحجار (89).

ويبدو أن هؤلاء المكتشفين قد درعوا أحوال المملكة دراسة جيدة حيث أخذت البرتغال نتيجة لذلك تعمل جاهدة على استغلال الأحوال المضطربة في مالي وتدخل في المنازعات الداخلية بين الطامعين في السلطة والورثة الشرعيين وسعوا أيضاً لكسب ود وولاء الرؤساء الصغار في المناطق الساحلية وتحريضهم على الثورة أو الاستقلال عن سلطان مالي، ويبدو أن هؤلاء لم يدركونا نوايا

(88) نعم قدام، إفريقيا الغربية، ص 59.
(89) نفس المصدر، ص 60.
البرتغاليين حيث نرى السلطان محمد يطلب المساعدة منهم ضد الثائر كولي
تانكيلة، كما كرر طلب النجدة مرة أخرى عندما هاجمه قبائل الموسي الوثنية
فانته، البرتغاليون هذه الفرصة ودخلوا منطقة غامبيا وتركزوا في حوض نهر
الكازاماتس (أحد فروع نهر السنغال) إلى الجنوب من غامبيا في النصف الأول
من القرن السادس عشر (90).

ونشأت في نفس هذا الوقت دولة الولوف بتشجيع من البرتغاليين، كما
تعرضت المملكة لهجمات متكررة من مملكة السنغال وحاول السلطان محمود
الثالث أن يعد ولو بعض من هيبة مالي الضائعة فهاجم جنوب في عام 1599
ولكن محاولته باطنة بالفشل بسبب خيانة أحد الرؤساء المحليين (91).

واستمرت الحركات الاستقلالية لبقية الأقاليم في مطلع القرن السابع عشر
بدأت مملكة أخرى في الظهور في أواسط التيجير من تكتل قبائل البامبيا الوثنية
حوت مدينة سيفو التي أخذت توجه الضربات المتتالية والأليمة للمملكة حيث
اقطعت منها البقية الباقية من أجزاءها الشمالية ولم يبق لحكمها سوى تلك
الإمارة الصغيرة التي نشأوا فيها أولهم ألا وهي كنيشافا والتي لم تسلم هي
الأخرى من الهجمات.

وهكذا فإن عظمة مالي وشهرتها التي وصلت أوروبا في عهد منسى موسى
قد أخذت بالرحل، وما كان القرن السابع عشر يطل حتى انطفأت شعلة عاصمتها
تمبكو التي كانت مشتعلة ومضيئة في سماء غرب إفريقيا، وكانت كل دول
وقبائل المنطقة يسيل لوابها من أجل السيطرة عليها وقد اكتشف الرجل الأبيض
وعرف دورها الثقافي والرائد وإشعاعها الحضاري نجاها غازيا ودخلها
الفرنسيون عام 1894 وحولوها إلى أطلال كما حولوا الكثير من المدن
الأخرى.

(90) نفس المصدر، ص 62.
(91) تال، تدهور مالي، ص 195.
إن جمهورية مالي الحالية لم تشكل إلا جزءاً بسيطاً من تلك الرقعة الشاسعة التي كانت تحتلها إمبراطورية مالي من قبل والتي كانت تتضمّن أراضي ما يعرف اليوم بالسنغال وغامبيا وموريتانيا بالإضافة إلى الرقعة التي تشغلها دولة مالي حالياً.

وخلاصة القول فإن مملكة مالي الإسلامية كانت من أعظم ممالك السودان الغربي وكانت طموحة تسعى جاهدة لبناء عظمتها ومجدها وهي دولة لم تكتف باعتناق الإسلام والحراش على مظاهره وعلمه بل حملت رايتها وبلغت دعوته وقامت بدور مهم في نشر الإسلام في السودان الغربي. وبعد هذا الدور من أهم الأدوار في مراحل انتشار الإسلام في هذه المناطق حيث انتشرت جميع فتوحاتها الحربية بالدعوة إليه، كما أخذت هذه الدول تعمل جاهدة على تطبيق الشريعة والقيم الإسلامية رغم استمرار العادات والتقاليد الوثنية حتى أصبحت الحياة السياسية والإدارية والثقافية وحتى الاقتصادية ذات سمات وخصائص إسلامية متطورة.

(92) إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية في القارة الأفريقية، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1984، ص 240.
الفصل التاسع

مملكة سنغافورة الإسلامية
مملكة سنغاي الإسلامية
1468 - 1591

أولاً: الإسلام والتشكيكات السياسية

تمتد مملكة سنغاي على ضفتي نهر النيجير إلى الشمال من الداهومي عند مدينة داندي إلى جنوب فولتا العليا وشمال نيجيريا(1)، وتعتبر آخر ممالك السودان الغربي التي ازدهرت في المناطق الواقعة ما بين حوضي نهر السنغال ونهر النيجير وهي تشابه مملكتي غانا ومالي في استجابتها للإسلام ومؤثرات الثقافة العربية الإسلامية الوافدة من الشمال الإفريقي والتي انتشرت انتشاراً واسعاً في تلك الجهات خلال قرون منذ أن توطدت الإسلام في الشمال الإفريقي في القرن الثامن الميلادي وتولى المرابطين نشر الإسلام بهذه المملكة إبان توسعهم في السودان الغربي في القرن الحادي عشر الميلادي وانتشرت توطن دعائم الثقافة العربية الإسلامية ذات السمات المغربية كما أتبع سكانها المذهب المالكي(2).

لمزيد من المعلومات الجغرافية عن السنغاي راجع:
- إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية، ص 242.
- سنينكي موري سيسوكو "الصينفي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر".
- تاريخ إفريقيا العام، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ص 199 وما بليها.
- عمر الدين محمد فضل الله، المبحث التاريخي عن مملكة سنغاي الإسلامية، مجلة.
وقد كانت السنغاي قبل انتشار الإسلام بها تدين بالدين الإسلامي منذ حوالي القرن السباع الهجري، عندما بدأت قبائل المنطقة العربية تحتوي على نفوذ سياسياً على الزونج من سنغاي الذين استقرعوا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة داندي واستطاع هؤلاء أن يعودوا أسرة حاكمة تسمى دانمين، فقد تحكم هذه البلاد حتى سنة 1325 م، وقد اتخذوا كوكيا عاصمة لهم بقيادة زعيمهم زاكس.

وأما يوسف له أن نجد سوى القليل عن تاريخ سنغاي فيما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر، وما وصلنا هو عبارة عن ذكر الملوك وبعض أعمالهم وتكوين بدء مملكتهم وإسلام أول منكم وهو زاكس.

ويسبق الإسلام سنغاي أخذت المملكة تخطو خطواتها الأولى نحو الإسلام، ثم خلفه زاهين كرونه وكولن وتابعيه من بعدها أخرون حتى جاء سنغاي الأول على كولن، وله على أسرة جديدة الحكم وهي أسرة السنغاي التي أسسه في القرن الخامس عشر، ويفصحون أن هذه الأسرة جاءت من كوكيا وطردت جماعات المهندنة من جاوي.

والمحتوى في بعض ملوك هذه الأسرة بحالة عاصمة إمبراطورية المهندنة، وأقامها في النجف، وقد زادت الحرب من إمكانات النشاط في المملكة وأصبح مملكة جاوي الإسلامي تحت منطقة نهر النيجر، بما أن سنغاي مجاورة لمالي التي كان المهندنة سادتها فحدث حوصل

الدعوة الإسلامية، العدد الرابع، 1987، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ص 212.

(3) حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا، ص 112.

(4) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدولة الإسلامية، ص 135.

(5) سنابيكي، ص 203.
احتكاك ومنافسة بينهما وكانت في كثير من الأحيان الغلبة لسنغاي ولكن دارت الأيام دورتها واستعادت مالي مكانتها وتطورت حتى أصبحت دولة عظيمة كما رأينا، غير أن الازدهار الذي حققه مملكة مالي في تلك الفترة سرعان ما تحول إلى تفكك وضعف نتيجة للصراع على السلطة، ولم يستطع السلطان منى سليمان أن يتصرف لمحاولة تمزيق مملكته فاستعاد السنغال بعض أراضيها من مالي واستقلت ولابنها، ثم انتقلت زعامة السودان الغربي بعد وفاة منى سليمان عام 1360 م تدريجيًا إلى مملكة سنغاي.

ويُعتبر علي كولون بن زايباس الذي اشتهر بالملك سني علي 1462 المؤسس الحقيقي لمملكة سنغاي، وقد أطلق على نفسه لقب السنى تشبهاً برسول الله وهو الملك الثامن عشر في سلسلة ملوك سنغاي وفي عهده بدأت المملكة تدخل طور التوسع على حساب القبائل المجاورة، وذكر الوزان أن مملكة سنغاي عرفت أطراف القوة والضعف وتدهور أوضاعها قبل أن يتولى أمرها سني علي والأسيكو.

لقد قام الملك سني علي حين تم تأريخ سنغاي بدون هام في توطيد دعائم هذه الدولة، فقد خاض عدة حروب لفرض توسيع رقعة مملكته، وكان محاربًا عظيمًا صامداً أمام عدد كبير من الأعداء وشن حروب على الطرائق واستعاد تميمتو في عام 1468 إذ سار إليها في اتجاه الجنوب وعبر النهر بالقوارب على الضفة اليسرى لنهر تميمتو، إذ يذكر الرواة إن زعماء المدينة

---

(6) فير الدين فضلاً الله، ص 216.
(7) محمد عبد الفتاح إبراهيم، إفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1961، ص 112.
(8) الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ط 2، محمد الحجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1961، ص 662.
(9) نعيم قداح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، القاهرة، وزارة الثقافة، 1960، ص 662.
وعلمانها تركوها وأسرعوا بالهرب عبر الصحراء ولم يفك حصارها إلا في عام 1486(10).

وقد شكك الكثير من المؤرخين في صدق إسلامه واعترفوا تباعاً مباذاً للإسلام على تقيض حلفائه من آل أمكا وعلى الأخص السلطان اسميا محمد الكبير، وقد برر البعض الآخر من المؤرخين بأن سني علي كان يعتقد بأن علماء تمبكتو يتصرفون وكانهم يمثلون دولة داخل دولة، الأمر الذي حاول أن يكسر شكوكهم حتى لا يتحرشوا بسلطته(11).

أما سايسة في الحكم فعلى غرار مملكة مالي أسسها امداداً من الأقاليم وأمتدت عضماتها إلى مملوك يحملون لقب قاري ائامدا، كما عين قاضياً في تمبكتو، وكان جميع ولاة المملكة يتعونه بصورة مباشرة، وبذلك أصبحت سنغاي دولة مركزية تشرف على جميع الأقاليم المجاورة ونهض في عهده الاقتصاد حيث شجع الزراعة وبنى بعض السدود بوادي النهر(16) أما عن وفاته فيقال بأنه أثناء عودته من إحدى الغزوات داهمه سيل جارف في الطريق فأطبله وخلقه ابنه أبو بكر الذي رفض العلماء الإبقاء عليه في الحكم لضعفه واختاروا بدلاً منه وزيره محمد نوري الذي عرف فيما بعد بأسكا محمد(17).

(10) محمد عبد الفتاح إبراهيم، ص 112.
(11) قصر الدين فضل الله، ص 217 وانظر أيضاً: إمين الطي، تاريخ المغرب والأندلس، تونس.
(12) عبد الرحمن السعدي، ص 64.
(13) محمد عبد الفتاح إبراهيم، ص 112.
(14) عبد القادر زباديه، مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الجزائر، بدون تاريخ، ص 106.
(15) محمد عبد الفتاح إبراهيم، ص 113.
(16) سينيكي، ص 205.
(17) انظر: عبد الرحمن زكي، ص 139، وحسن إبراهيم حسن، ص 113.

304
أسكيا محمد الكبير 1492 - 1528:

بعد وفاة السني علي عام 1492 كما ذكرنا، خلفه ابنه أبو بكر ولكن محمد أبي بكر نوري وهو من كبار قادة السني لما بلغه وفاة الملك أضم في نفسه الملك وتحتفل في ذلك أمور كبيرة وقد أثنت العلماء كما ذكرنا، فجمع جنوده وخاص معركتين ضد ابن السني وهزمه وأجبره على الفرار إلى قرية أنظمة القرية من جاور وقتي فيها إلى أن توفي في عام 1493 وبعده انتهت أسرة زا بعد أن حكمت سنغاي حوالي ثمانية قرون(18).

ويقال إن بنات السني علي عندما سمعن بانتصار أبو بكر وتوالى العرش ف мнائيات نور (إسكيا) ومعاناه ليس هو فلما سمع ذلك أمر ألا يلقبو إلا به فقالوا أسكيا محمد(19) ويقال إنه من أصل سوداني من عشيرة نوري المنحدرة من التكرور وأن أصلهم من صنهاجة وملكوا بلاد السودان(20).

لقد عرف أسكيا الكبير منذ توليه زمام الأمور في سنغاي بأنه كان عسكرياً وإدارياً مقتدر، حيث قام باستغلال الفقهاء والقضاة ورجال العلم وأحسن معاملتهم وقربهم إليه ونال احترامهم وتقديرهم وقبوه بالإمام المستنصر والخليفة العادل والسلطان الظاهر(21) وقد قاد بعدة أعمال وإنجازات أهمها التنظيمات الإدارية فرغم اتساع المملكة فقد قسمها إلى ولايات وكلف كل ولاية بوالي

(18) لمزيد من المعلومات راجع: السعدي ص 71 وزكي ص 138.
(19) محمد عبد الفتاح إبراهيم ص 116.
(20) محمد مزين المغرب وبلاد السودان خلال القرنين 16 - 17، المؤرخ العربي، عدد 4، الدار البيضاء، 1982، ص 214، ونظراً أيضاً: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري الاستقصاء لأخبار دور المغرب، ج 5، الدار البيضاء، 1955، ص 103.
(21) قمر الدين فضل الله، ص 218.
المعتمد من العاصمة وهذه الولايات هي كروما وهي غرب النيجر وبالاسا في الجنوب الغربي للعاصمة ودندى وهي تقع إلى الجنوب من العاصمة، وأخيراً ولاية بانجو حول بحيرة ديبو (22).

كما أوجد مناصب جديدة وخصّص بها المقربين إليه، منهم مفتش الضرايب والمشرف على الغابات وأيضاً على الشيوخ القبلية، كما اهتم بالجانب الاقتصادي حيث أقام مشاريع متعددة تعود على المملكة بالثروة والاستهلاك حيث حفر القنوات على شاطئ النيجر لزيادة الأراضي الزراعية وأوجد الأوزان والمكابر الموحدة (23).

كما نظم خزينة الدولة وجدد إيراداتها ومصروفاتها وقد ساعد في ذلك استيلاءه على مناجم تعازه حيث خلق ذلك نشاطاً تجارياً واسعاً وتمعت البلاد برخاء عظيم وجذب إليها التجار من طرابلس وفاس وتلمسان، كما كثر بها العلماء والأطباء ورداً لمكتوب مكتابها العلمية كمركز للدراسات والثقافة الإسلامية، وقد أشرف العالم الفقيه عبد الكريم المقيقى التلمساني على هذه الغاية (24).

وقد غلب الجهاد الإسلامي على توسيع مملكة سنغافري في عهده، فقد عرف أنه لم ينخدل إلى الراحة بل كان يواصل الخزو والفتح من أجل التوسع والحفظ على مملكته، ولذلك زادت رقعتها عن رقعة إمبراطورية مالي وامتدت حدودها إلى الغرب الأقصى كما شملت شرقاً بلاد الهووسا واتصلت بأراضي سلطنة بوروند، وجزء من الصحراء في الشمال ووصلت في الجنوب والشمال الغربي إلى بلاد التكرور وبذلك جاوزت حدود إمبراطورية مالي بحوالي سبعمائة

(22) بخصوص التنظيمات الإدارية انظر: عبد الرحمن زكي، ص 139 والسعيدي ص 34 وزياد، ص 34.
(23) قنا، ص 73.
(24) الطبيبي، ص 310.
ميل (25) نشر خلالها الإسلام وأعلن الدين الإسلامي ديناً رسمياً للدولة وكان أهم حدث في حياته هو خروجه لآداء فريضة الحج عام 1497 م حيث حرص على أن يأخذ معه عددًا كبيرًا من العلماء والأعيان ليظهروا بذلك بمعظم الملك الصالح، بالإضافة إلى جملة من الدواهي التي تحمل الأمتعة والذهب، وكان خلال مروره في كل بلدة ينفق بسخاء حيث قيل إنه أنفق خلال هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب (26)، كما أشترى أرضاً وبنى عليها مأوى يأوي إليها حجاج بلاد السودان الغربي. وأثناء عودته استقبل في القاهرة استقبالاً رسميًا حافلاً، أما في مكة فقد قلدته شريفها برادة وعمامة وسيف وأقام على شرفه حفلًا خاصًا (27)، كما تسلم خلال هذه الرحلة من آخر أمراء العباسيين لقب الخليفة الأول على بلاد التكروك أو السودان الغربي (28).

كما قابل الإمام شيخ الحفاظ جلال الدين السيوطي وأخذ عنه الكثير في العقائد الإسلامية وسمع منه جملة من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه (29). وعند عودته إلى جاو تأثر بما رأى في مصر من نظم وإدارة وثقافة وعمل على تطبيقه في مملكته فشجع الطلبة على تحصيل العلوم الإسلامية وقرز إليه العلماء واتخذ خزائن للكتب، وفي عودته ازدهرت مدينة جاو كمركز للثقافة

(25) أوفيفر، رولاناديو، موغر تاريغ إفريقيا، ت دولت صادق، القاهرة، الدار المصرية للتأليف، 1965، ص 100.

(26) السعدي، ص 76، انظر أيضاً: محمود كيت البتكيتي، تاريخ الفناغ في أخبار البلدان والجبال وأكابر الناس، نشر هوداس وتلميذه نيوه، باريس، 1964، ص 19.

(27) محمود خيري عيسى، العلاقات العربية الإفريقية، ج 6 القاهرة، دار الطباعة الحديئة، 1977، ص 74.

(28) ابن أمير، إفريقيا والعرب، دار الحقائق، 1980، ص 22.

(29) رفيق الخشاب، إبراهيم الشهاداني، إفريقيا، جنوب الصحراء، بغداد المكتبة الوطنية 1978، ص 27 و 40، انظر أيضاً الطبيبي، ص 310.

308
العربية في غرب إفريقيا وخاصة بعد إقامة جامع سنكرى الذي يشبه في وجوهه كثيرة الجامع الأزهر في مكانته العلمية.

وقد حاول بعض المؤرخين الأوربيين المتعاملين على الإسلام والذين أرادوا أن يواصلوا الحرب الصليبية بكتاباتهم المتخصصة أن ينالوا من حركة الجهاد التي تبناها أسكيا الكبير وغيره من المجاهدين الأفارقة ووصفوا انتشار الإسلام في هذه المرحلة بأنه يبني على الإكراه والفساد واستعمال السيف، ويبدو أن هؤلاء قد نُسوا أن حروب الجهاد ضد الوثنيين جاءت من منظور الغلبة السياسية للمسلمين في السودان الغربي وفي نطاق الدفاع عن النفس، ومن ثم يؤكد ذلك مشاركة الوثنيين الجماعات الإسلامية الوطن الواحد وقليلاً وقليلاً في روح التسامح الفكري.

أما نهاية أسكى محمد فقد عين عام 1517 بلغ به الكبار مبلغه فتوقفت فتوحاته، وبدأ التنافس بين أبنائه ولم يعهد بالولاية لأحد منهم عند وفاته، وكان ابنه موسى يسعى للوصول إلى الحكم بالقوة مع جماعة من أنصاره وأجبر أخاه على التناسل عن الحكم لصالحه في عام 1528 وقد بدأه أخيه العداء فقضى فترة حكمه في نزاع مع أفراد عائلته، ولم ينجز شيئاً يعتبر التزوير لصالح المملكة واستمر في الحكم حتى اغتيال وتخلصوا من طرفه، وقد خلفه أسكى محمد الثاني الذي حكم من عام 1531 - 1537 حيث بابه سكان مدينة منصور في إقليم جنوب بعد مقتل موسى مباشرة واستطاع أن يقضي على الصعب خلال فترة حكمه وكان يحب مظهر الفخامة وقد توفي هو الآخر مقتولاً من طرف أخيه إسماعيل (31) الذي حكم لمدة عامين وامتنع بشجاعة وقد قاد حملة ضد الوثنيين في الجنوب الغربي من المملكة، وقد انتشر في عهده مرض الطاعون الذي فتك بأعداد كبيرة وقد توفي وهو يقاتل الوثنيين، وبعد وفاته عام 1539.

(30) قمر الدين فضل الله، ص 319.
(31) عبد الرحمن زكي، ص 144.
عاد الجيش إلى جاوة ليختار ملكاً يخلفه ووقع الاختيار على أسكيا إسحاق الأول 1539 - 1549 (32)، ويعتبر إسحاق الأول أحد أهم الملوك الذين حكموا سنغاي في عهد الأسكيين حيث استطاع إعادة الأمن إلى نسابه، كما قام بعدة فتوحات في أماك مالي، وكتب إليه السلطان السعدي أحمد الأعرج يطلب منه تسليم تغازة للمغرب وكان ذلك في عام 1546 فاجابه: "لست إسحاق الذي يلبي طلبك، انظر حتى بولد إسحاق آخر" (33)، وأرسل حملة لغزو المغرب الجنوبية ولكنه توفي عام 1549.

ومن ملك سنغاي المشهورين أسكيا داود (1549 - 1582) الذي يعتبر من أبرز الملوك وقد اشتهر بحنكته السياسية وطول فترة حكمه وهو يلي أسكيا محمد الكبير في حسن الإدارة ويدع المنظر وتحديد دماء الدولة ونجح إلى حد كبير في دعم سلطات الدولة الداخلية إذ لم تحدث أي ثورة ضده طيلة حكمه الطويل، كما إنه لم يوقف عن الحرب سنة واحدة، وقد رأى منذ البداية مساعدة المغرب وكان السبب في ذلك معرفته بأهداف المغارة وعدم قدرة جيشه على محاربتهم ونجح في احتواء الأزمة التي اقترعت السلطان المراكشي الشريف محمد القائم والتي كانت أن تؤدي إلى حرب بين سنغاي ومراكشي، وذلك بعد إنقاذ الأخير بالاستيلاء على مناجم الملح في تغازه عشية، غير أن أسكيا داود والسلطان المراكشي الجديد أحمد المنصور السعدي استلحا على أساس أن تدفع مراكش لسنغاي عشرة آلاف أوقية من الذهب نظر استنجد مناجم تغازه في العام (34)، وبعد وفاة أسكيا داود تولى الحكم ابنه أسكيا محمد الثاني 1582 - 1586 وحدث في عهده أن جاءت بعثة مغربية تحمل هدية خاصة من السلطان أحمد المنصور وكان الغرض منها التحمس على أحوال مملكة سنغاي واستقبالها

(32) عبد القادر زيداني، ص 43.
(33) السعدي، ص 99.
(34) قمر الدين فضل الله، ص 221.
أسكيا محمد بكل ترحاب وأرسل معهم هدية للسلطان السعدي، وفي آخر عهده أرسل السلطان حملة تتكون من مائتي فارس فقط احتلت مناجم تاغازة ولكنهن تركوها بعد قليل.

تصاعدت الأحداث وبلغت ذروتها في عهد أسكيا إسحاق الثاني 861 - 1591 الذي حكم سنغاي وهي في غاية الضعف لم تفرقه وقفة مواردها وسكانها بل لأنها منذ وفاة مؤسستها لم يستمر فيها نظام ولم يعمل أحد على تقويتها كما أنهكتها الحروب، وعند توليه الحكم ثار عليه حاكم تمبكتو وقضى إسحاق سنة كاملة في محاربة هذا الثائر، وقد راكب ذلك أن أصيبت الملكة بآفات خلقية مستعصية جعلتها لقمة سائقة للتوسع المراكشي وفي هذا الصدد يقول السعدي عن أهل سنغاي: "... إنهم بدلاً نعمة الله كفراً وما تركوا شيئاً من معاصرته تعالى إلا ارتكبوها جهراً".

سنغاي والمغرب:

إن العلاقات بين الدولتين علاقات قديمة نظراً للتقارب الموجود بينهما ورغم المساحة الصحراوية التي تفصلهما إلا أن هذه الصحراء كانت تمثل عامل قويًّا من عوامل الاتصال الحضاري - السياسي - الثقافي - التجاري، وقد زادت هذه العوامل قوة وتماسكاً بعد انتشار الإسلام في تلك الرعوب السودانية وبالتالي ازدادت قوة الاتصال التي كانت مستمرة بينهما طوال العصور الوسطى، ونظراً لهذا التقارب الموجود بين حدود المغرب الجنوبية وبين كثير من الممالك السودانية مثل مالي وسنغاي وغيرهما فقد حدث اتصال وتبادل في مجالات شتى ففيما يخص تبادل السلع كانت التوافل التجارية مستمرة بين مالي وتمبكتو وجاو وبين سجلماسة وتجار تامورداً عبر الطرق الساحلية والأوسط.

ويمكن القول إن العلاقات المغربية السعادية لم تخرج في البداية عن

(35) السعدي، ص 44.

311
كونها علاقات تبادل تجاري وفكري أكثر من أن تكون لها علاقة بالسياسة، ولكن مع ظهور السعديين وقيام دولتهم تغيرت وأخذت مسارًا سياسياً بين الدولتين، وقد بدأ اهتمام السعديين بالسودان منذ عهد القائم بأمر الله غير أنه في الحقيقة لم يهم بها بطريقة رسمية إلا أحمد المنصور الذي تدخل في عام 1526 وكتب أسكي إسحاق الأول في أمر تسليم معادن تغازه وفي عام 1544 أرسل محمد الشيخ سلطان المغرب إلى إسحاق أيضاً بشأن المنازل عن المعدن فكان الرفض من نصيبه هو الآخر، وأكثر من هذا أرسل الملك السعدي الفين من الطوارق وأمرهم أن يغزوا على المغرب(36)، وكان رّد الفعل العثماني إرسال حملة عسكرية عام 1557 قوامها حوالي ألف وثمانمئة فارس للغارة على تغازه فتم قتل حاكمها وعدد كبير من الطوارق الذين أمسكوا بهم حاملي الملح على جمالهم(37).

وكانت عملية توسع أحمد المنصور في السودان مرتبطة بعدم تمكنه من التوسع شرقاً نظراً لوجود الجزائريين، وربما كان السبب في ذلك هو الاستيلاء على معدن الذهب أهم صادرات السودان، وربما كان الهدف من ذلك هو نشر الإسلام في المناطق التي لم يصل إليها حتى هذه المرحلة، وقد اهتم المنصور بجنوب المغرب حيث بدأ خلافه مع مملكة سنغاي حول واحة تغازه التي كان المغاربة يحصلون منها على الملح لكي يدعو للسعوديين ثمن الذهب. وانتهز المنصور هذا الخلاف وأرسل حملة للسيطرة على هذا الإقليم رغم أن التجار نصحوا بعدم استخدام القوة، إلا أنه خالف النصيحة وأرسل حملة عسكرية تتألف من عشرين ألف جندي، كما ضمت هذه الحملة عدداً من الإسبان الأسرى، واهتم بتجهيز الجيش وآلة الحرب وأمر القاود بجامعها بمراسلة القبائل ليؤهمهم بما يحتاجون إليه من إبل وخيل وغيال ومدافع وعجلات لحمل محمد مزين، ص 44.
(36) الناصري، ص 117 وانظر أيضاً، السعدي ص 135. 312
البارود والرصاص كما جَهَز السفن والمجاذيب، واستمر بتجهيز هذا الجيش ثلاث سنوات إذ خرج يوم الحادي عشر من ذي الحجة عام 998 م وأعطى قيادته للباشا جَوْزَر وهو شاب إسباني نشأة من غرناطة وقع في أسر المغاربة وهو صغير وتربي في قصر الملك وامتاز بحسن الإدارة والتنظيم (38).

وبدأ الحملة سيرها نحو جبال أطلس إلى الجنوب واستأنفت المسير في الصحراء حتى وصلت إلى تارابار على نهر النيل ومنه إلى جاو، وأدر أسكيا إسحاق الثاني نوايا المنصور فسحب قواته من غربي جاو، كما أرسل إلى الزعامة في الصحراء أمرهم بردم الآبار حتى لا يستفيد منها جيش المغرب، ولكن الرسل الذين أرسلهم قبض عليهم بعض قطاع الطرق في الصحراء، وبعد استراحة قصيرة لجند جَوْزَر استأنف السير إلى جاو وهاجموا في الطريق بعض الطوارق وأرسل إلى أسكيا يطلب منه التسليم لإيقاف البلاد من الدمار ولكنه رفض (39).

وفي يوم 22 نوفمبر 1599 التقت الجيشان حيث قدرت قوات أسكيا بثلاثين ألف من المشاة وألف وخمسمائة من الخيالة، ولكن أسلحته كانت بدائية مقارنة بأسلحة المغاربة التي تكون من المدافع والبارود ولذلك سرعان ما مزقتهم هذه الأسلحة فولوا الأدبار وحكمت رقابهم سيفون جند جَوْزَر، وفي هذا الصدد يقول الناصري: «كان السودانيون ينادون نحن مسلمين، نحن إخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم، وفَرَ أسكيا إسحاق مع مجموعة من قومه وتقدم جَوْزَر فدخل قلعة الملك واستولى على ما فيها من الأموال والمجنات، وكتب إلى المنصورة يخبره بالنصر وبعث إليه الهدية التي فيها عشرة آلاف متقيل ذهب وثلاثون من خياب الرقيق (40).»

(38) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، المطبعة الفنية الزهراء 1987، ص 104.
(39) مزيين، ص 222.
(40) الناصري، ص 133.
وبعد ذلك أرسل إسحاق من الغابات التي اتجأ إليها يطلب فتح باب المفاوضات مع جوذر وعرض عليه الصلح مقابل مبلغ كبير من الذهب يعطي للمنصور الذي لقب بالذهبي، على أن يعود الجيش إلى المغرب، وعرض أمر هذا الصلح على المنصور غير أنه لم يوافق على شروط الصلح وأمر بعزل جوذر من القيادة وأرسل محمد بن زرقون باش مع ثماني رجلاً وطلب منهم طرد أسكيا إسحاق من السودان والقضاء عليه، كما أمر بقطع جوذر إلى البلاد، ووصل ابن زرقون إلى تيمكتو بعد سبعة أسابيع وتسلم قيادة القوات، وأول عمل قام به هو صناعة القوارب، في هذا الصدد بورد السعدى أنه أمر بقطع الأشجار الكبيرة في داخل تيمكتو ويجرط الألواح وتصبوا الدفوف الخليفة وأبواب الدور وركبو منها قاربان وأنزلهم في النهر بعد سبعة أيام. ثم ترك حاميه في تيمكتو واتجه إلى الجنوب باشا عن أسكيا إسحاق والتقى الجيشان وتم الصر لابن زرقون الذي رأى بعد هذه الأحداث أنه لا يمكن الاستيلاء على سنغاي من الناحية العسكرية، لذلك عين من قبل أسكيا آخر ليحكم ناحية عن المنصور، غير أن رجلاً ظهر في سنغاي، لم يعرف بسحابة المنصور وأتباعه وهو نوح الذي أصبح ملكاً بعد اختياره على بلاده واستطاع أن يبي جيشاً مدرياً على جيش الأمويين في صدور ألبان بلاده وكوٍن جيشاً مدرياً على جيش الأمويين حيث استفاد من طبيعة البلاد وعزم على شنّ حرب إبادة، واستطاع خلال أربع سنوات أن يكبد المغارة خسارة فادحة وفاتسجَّا الجيش المغربي خلال هذه الفترة الأمويات بسبب صعوبة الإمدادات.

وكان نصر الجيش المغربي في معركة سنغاي التي ذكرناها سابقاً إيجاداً بتفكك الروابط بين ممالك سنغاي وقبائلها التي خضعت لحكومة مركزية فترة

(41) السعدى، ص 139.
(42) جلال يحيى، المغرب الكبير في العصور الحديثة، جـ 3، الإسكندرية الدار القومية للطباعة 1966، ص 45.
 طويلة فساد الفوضى وانتشرت أعمال النهب والسلب وانتهت بعض القبائل
هذه الفوضى فاعتدمت بعضها على بعض.
وعليه أية حال فقد أساء حكام المغرب إلى شعب سنغاي، ونتيجة لذلك
آل الحكم إلى القبائل وانتشرت المجاعة التي دامت خمس سنوات، وفي عام
1637 خرجت آخر فلول الجيش المغربي من تمبكو بعد أن قضى على
إمبراطورية سنغاي، وذلك لعدم مقدرتهم على مد نفوذهم إلى البلاد والسيطرة
عليها فكانت نهاية سنغاي على أيديهم بعد أن خسروا عدة آلاف من خيرة
جنودهم، وأصبحت تحكمها القبائل بعد أن كانت مملكة تحكمها القوانين.

ثانيا: الجوانب الحضارية

1- التنظيم السياسي والإداري:
أ- الجوانب السياسية:

تتميز سنغاي بتنظيم سياسي وإداري رائع التركيب والمتميز بالسلطة
المركزية المنظمة والملكية المطلقة وهو النظام الذي وضعه أسكيا محمد والذي
يهدف إلى خلق وحدة قوية من الأجزاء المختلفة للمملكة، وكان النظام الملكي
هو القائم في جاو على أساس الشريعة الإسلامية وكان الحكم وراياً في الأبن
الأكبر كما هو الحال في الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت، وأحياناً يضطر أحد
المختصين لتغيير هذه القاعدة غير أن الأمر يعود إلى ما كان عليه بعد وفاته،
وكان الملك له سلطة شبه مقدسة وكان موضع تقدير وتقدير، وكان يقيم في جاو
ويتخذ لنفسه حرساً خاصاً يختاره من أقرب المقربين إليه من الأقرب والضباط
وقد ورع أسكيا محمد في أيامه هذه المهمة على أولاده(43) وقسم الحرس إلى

(43) سنيسكي، ص 208 وقائمة ص 113.

315
فرق، فمنهم من يقف لاستقبال الوفود وحراسة القصر، وفرقة تراقبه حيث ينتقل من مكان إلى آخر، ومنهم الضاربين على الطبل في المناسبات كما أن للملك مجلس شبيه بالمنصة يحيط به الحراس.

ووجد البعض يطلق على هذه المملكة خلافة على غرار الخلافة الإسلامية في تلك الفترة خاصة بعد ذهاب أسكتيا محمد لآداء فريضة الحج عام 1494 حيث يذكر أن الخليفة العباسي آنذاك قد عينه لدى عودته إلى بلاده كوكيل عام على كل إفريقية(44)، كما يذكر أن شريف مكة أعطاه خلافة البلاد النكروت أي السودان الغربي، وأنه قد قلده بردة وعمامة وسيفًا كما تسلم من آخر الأمراء العباسيين لقب الخليفة الأول على بلاد النكروت(45)، ويذكر الناصري في كتابه الاستقصاء أن أسكتيا محمد قابل في مصر الخليفة العباسي إذ كان رسم الخلافة البابية لا زال قائماً بها، فلما اجتمع الحاج أسكتيا محمد بالخليفة طلب منه أن يذن له في إمارة بلاد السودان وأن يكون خليفته هناك ففوضه الخليفة العباسي النظر في أمر ذلك الإقليم وجعله نائباً على من وراء من المسلمين(46)، وفي عهده قسمت البلاد إلى مقاطعات ووضع لكل مقاطعة ولي وكان هذا الوالي هو الحاكم المدني والعسكري في إقليمه الذي ينوله.

ووجدت وظائف دائمة حول الملك منها الكمال أ丈 مدير البناء وبوبي كوبجي في رئيس السوق والكواربانادامو ووزير الأملاك الحكومية، كما وجدت وظيفة نائب الملك يعرف كاتناري التي أوجدتها أسكتيا محمد وأعطاه لأخيه عمر مزياغ(47) كما أن هناك منصب وزير اللاء ورئيس الأسطول ويطلق عليه لاراين فاما وزير الغابات سافارما ثم أخيراً ناري مونديو أي وزير الزراعة

(44) عبد الرحمن زكي ص 140.
(45) أمين الخليلي، 310، ومحمد عيسى خيرفي، ص 74.
(46) الناصري، ص 103.
(47) زيادية، ص 57 وما يليها.

316
والوقوف، أما الولاة فأغلبهم من أبناء المناطق التي يعملون فيها ويراعون فيها تعيينهم وسعيهم وإخلاصهم للملك والبعض من بعضهم الآسكيا في أي وقت، وكان هؤلاء الولاة يخضعون لفترة محددة يمارسون فيها كافة السلطات ما عدا السلطة القضائية وكانوا يحملون لقب فارما أو فاربا، وأهم واجبات الوالي جمع الضرائب وتقديمها للملك وكانت تدفع سنوياً بالإضافة إلى الهدايا في المناسبات والأعياد، وعند مرور موكب الملك بالمنطقة، وكانت المملكة تنقسم إلى إقليمين كبيرين هما كومينا في الغرب ودندالي في الجنوب الشرقي، ويتولى أمره أحد أمراء الأسرة المالكة وفي أغلب الأحيان كانت تسند مهامه إلى ولي العهد، وكان حاكم كورومبا يدير كافة إقليم غرب دندالي، أما إقليم دندالي فكان الحاكم يشرف على الجنوب الشرقي من المملكة، وكانت مهامه في الغالب تسند لأحد كبير موظفي الديوان، بالإضافة إلى الإدارة الغير مباشرة للبلدان التابعة والخاضعة منها مالي ودولتي الهولسيا وكانوا واتحاد الطوارق، وكان حكامها يعينون من قبل الآسكيا وظليهم دفع الجزية بانتظام ويقدمون فصائل الجيش إذا طلب الملك ذلك، ويفضل هذا النظام تمكن المملكة سنغاي من السيطرة على كافة المنطقة المعروفة بغاو (GAO)، وفي نفس الفترة التي ظهرت فيها إمبراطوريتي غانا ومالي حيث نجحت في السيطرة على كل مناطقها، كما أنها أضافت إليها مناطق جديدة بداية من الصحراء الأطلسي غربًا إلى بلاد حوصا في نيجيريا الحالية وكذلك تعتبر أوسور إمبراطورية قامت في غرب إفريقيا قبلاً.

ب - الجيش:

كانت سنغاي بفضل ما تمتلكه من موارد وإمكانات مادية قد تمكنت من إعداد قوة وجيش مسلح دائم وقادرين على حمايتها وتحقيق استقلالها وفرض إرادة

(48) سنغاي ص 209.
(49) محمود شاكر، مالي، دمشق: المكتب الإسلامي، 1977، ص 48.
الملك وكان هذا الجيش يتمتع بمكانة مرفوعة لاعتماد الملك الكلي عليه في فتوحاتهم وحماية عروضهم، وقد بدأ نظام التجنيد الإجباري في عهد النبي علي، ودخل الجيش في عهد أسمكا محمد في دور التنظيم حيث وضع لكل فرقة نظامها الخاص، كما حددت الأدوار الخاصة بكل فرقة في الحرب، منهم المشاة والفرسان والخيالة والمساعدون وكان القائد العام للجيش هو الملك، وقد قسم الجيش إلى فصائل وجعل الأشراف على فصائله في الأقاليم تحت سلطة لواء، كما أن طبقة العبيد كان لها دور هام فيه(50).

لقد تطور الجيش بما يناسب انسجام المملكة وتقدمها، ويقال أيضاً أنه اعتمد على المرتزقة وبعض القادة منهم، وقد توصل بعضهم إلى مناصب عالية جداً بفضل مؤهلاتهم، وكانت أقسام هذا الجيش هي الخيالة التي كانت غالبية الضرب بالإضافة إلى الحرية، وفرقة الفرسان وتتكون أسلحتهم من الدروع الحديدية بالإضافة إلى الرماح والترس وهي من صنع محلي.

أما فرقة المشاة فإنها تشكل قسماً كبيراً من الجيش ويحملون القوس، وقد عرف عن هذه الفرقة شجاعة أفرادها، فمنهم الفئاتيون وكتائب الاستطلاع، أما أسلحتهم في الحراب والسهام وأيضاً الأسلحة الحادة أحياناً، كما أن الحرس الملكي موجود بصفة دائمة في جيش سنغاي أثناء المعارك، وأهم عمل تقوم به هذه الفرقة حراسة الملك والحاشية والضرب على الطبول والتفخ في الأبواب أثناء مسيرة الجيش.

أما الأسطول، فقد كانت سنغاي تمتلك قوة بحرية على النهر وخاصة في جاوة وتمبكتو، كما أنها كانت أسطولاً حريباً لحمل الجنود عندما ينتقلون من مكان لآخر على أطراف النهر وقد بلغ عدد قوارب الأسطول ألفي قارب(51).

(50) سينيسكي، ص 212.
(51) دنysis بولم، الحضارة الإفريقية، تأ. شاهين، بيروت، دار الحياة، ص 110، وانظر =
كما استخدم الجواسيس لمعرفة مدى قوة العدو ومسالك أرده، وإجمالًا كان جيش سنغاي نظامياً من حيث القيادة والتدريب والتوزيع، غير أن الأسلحة كانت قديمة والدليل على ذلك أنها لم تجد نفعاً أمام الأسلحة النارية التي لم يعرفها من قبل والتي استعملها المغاري أثناء غزؤهم لهم.

القضايا:

كان تعين القضاة من حق الملك وكان الإسكيا هو أمير المسلمين بفضو قاضي الأركان الأول يخضع للاحكام الإسلامية المستمدة من المذهب المالكي. وكانت له الكلمة القاطعة ورأيه الأعلى، وكان القضاة لا يقبلون تولي هذا المنصب بسهولة فقد كانوا يرفضون بشدة ولكنهم تحت إلحاح وضغوط الملك واستعماله للقوة التي يلمنا إليها في بعض الأحيان فإنهم يقبلون الأمر على مضض، ويساعد القاضي الحاكم والكتاب والمؤثرون وينظر القاضي في الأمور التي تنصل بالجماعات كالحالات الجنائية والتجارية وأيضاً الأحوال المدنية والأخلاقية، ويتولى الإشراف على أموال البيتى وتقسيم التركات وتوقيع العقود الخاصة، ويلاحظ أنه كانت هناك صلاحيات واسعة للقضاء الذين تميزوا واشتهروا بثاليتهم في الاستقامة وأداء واجبهم ولهم منزلة وحرة لا يجوز للسلطة الوصول إليها.

أما القاضي الثاني فيتخصص بالجزء الأكبر من المملكة ويراعي في حكمه تقاليد كل منطقة.

2. الحياة الاقتصادية:

تمكنت سنغاي بفضل موقعها الجغرافي من السيطرة على الطرق التجارية إذ كانت تقع على نهر النيل الذي يختقها من الغرب إلى الشرق والذين تميز

= أيضاً شارك الإسكيا جوليان، تاريخ إفريقيا، ت عوض أباظة، القاهرة، دار النهضة، 1986، ص 84 (52) زيادية، ص 74.
بخصوصية الدائمة، وأهم مواردها الاقتصادية هي:

أ - الزراعة والمواشي:

لقد تتنوع المزرعات في سنغاي وكانت مورداً أساسيًا للسكان الذين استعملوا الأسمدة التي اتخذوها من فضلات الحيوانات وأحسن الري بحفر الترع بالنيجر الأوسط (53) وقد تتنوع المزرعات ومن بينها الحبوب، وكان الأرز من المحصولات الرئيسية وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة إذ قال: "إن مدينة كوكو مدينة كبيرة على نهر النيل، ومن أحسن المدن بها الكثير من الأرز"، كما وجده الخان والشعر الذي كان يزرع في المناطق الشمالية والتح мя، وهو قليل بالإضافة إلى زراعة البقلولات، كما توفر الفواكه والخضروات ومنها البطيخ والقزح بالإضافة إلى القطن ويزرع في المناطق المحيطة بالنيجر كذلك الكتان وقصب السكر والكركم والتين.

كما اعتنوا بالحيوانات فاستفادوا منها الصوف والجلود، وكانت البقر والمواز زري في الأطراف الساحلية، وكانت هذا المواشي تشكل موردًا هامًا للألبان والمثلج وخاصة لسكان المدن، كما مارسوا صيد الأسماك النهارية بكثرة وكانت طريقتهم في ذلك بداية (54).

ب - الصناعة:

اعتمد السنغاليون في صناعتهم على الزراعة والثروة الحيوانية، ولكنها كانت صناعة بسيطة كما وجدت الصناعات الحرفية وخصصت لها دكاكين خاصة، إذ يذكر الوزان أن هذه الدكاكين منتشرة بكثرة في المدن وحتى في القرى (55) وقد تتنوع الصناعة بتنوع المواد الأولية والمعدات منها كالذهب.

(53) جوليان، ص 85.
(54) سنديكي، ص 218، وزيدية، ص 246.
(55) الوزان، ج 1، ص 246.

320
المتوفر بكثرة في الأسواق بالإضافة إلى النحاس، كما وجد الحديد الذي قامت عليه صناعات كبيرة بالإضافة إلى صناعة الأقمشة والمجوهرات التي تعتمد على الذهب والنحاس، كذلك صناعة الفخار التي كانت مزدهرة ازدهاراً كبيراً أيام الأسكيين، وهذه الصناعات كلفها تكال لا تزيد عن الحاجة المحلية.

ج- التجارة:

تعتبر التجارة من أهم الموارد التي اعتمدت عليها المملكة التي سيطرت
كما أشارنا على الطرق الرئيسية التي تمر بها هذه التجارة عبر الصحراء الكبرى،
وقد كانت هناك تجارة داخلية تمثلت في الأسواق المحلية التي يرتادها الناس في
المحلات القريبة منهم، كما توجد بعض الدكانين البسيطة وكانت أغلب البضائع
تباع في العراء، ولكن إضافة إلى ذلك كانت توجد الأسواق الكبيرة وأغلبها يقع
في شمال البلاد وكانت تجري عن طريقها حركة الاستيراد والتصدير، وكانت
توجد في تمبكتو وحاو ولانا وكوكو، أما الأسعار فإنهما تختلف من وقت لآخر
خاصة أسعار الرقيق الذين كانت تختلف أسعارهم حسب ظروف السوق،
وإجمالاً فقد تحكمت الدولة في الأسعار واستطاعت أن تسيطر على مناجم
الملح وأن تحد أسعاره التي جنت منها أرباحاً طائلة(56) ويدرك حوقل أن
الممالك الإسلامية في السودان الغربي كانت حاجتهم إلى الملح ملحة لأنها لا
قوام لهم إلا به، وربما بلغ حمل الملح في دوائر السودان أو أقاصيه ما بين
مائةين إلى ثلاثمائة دينار(57).

كما اشتهرت المملكة بتجارة الخيول التي تعتبر أرفع شيء في السودان
ولذلك لا يستطيع شراؤها إلا الأغنياء من الناس.

KAKE (P) MEMOIRE DE L'AFRIQUE, P. 4.

(56) ابن حوقل، ص 98.

321
أما الاستيراد فكانوا يجلبون الحبوب من الخارج مثل القمح والزبيب والتمور وبعض الفواكه المجففة، والأغذية التي كانت تأتي من المغرب ومصر.

ومن أوروبا عن طريق المغرب، كذلك كانت تستورد السيفون.

أما بالنسبة للعملة فيذكر الوران أن سنغاي أثناء مروره بها كان الناس يتعاملون بالذهب دون سكه (58) بينما يذكر البكري أنه في أسواق تاموكية يتعامل الناس بالدرهم الصلب (59) أي غير المكتوب عليها، بينما يذكر زباديه أنه وجد في صفريات جاو كثير من الدرهم والدنانير الفاطمية والمغربية والمملوكية مما يدل على أنها طريق تجاري وردت على سنغاي عوامل أخرى واستعملت في أسواقها (60)، بالإضافة إلى الذهب استخدم النحاس في المعاملات المالية، كما وجد نظام المقاضية بشكل واسع، ولاهمية الملح القسري في حياة أهل السودان صار عملة شرعية، وقد كانت مواردهم منه لا تكفي الاستهلاك المحلي ومن ثم ازدادت رغبتهم في ملح الشمال الإفريقي الذي أصبح السلعة الرئيسية التي يجلبها لهم التجار العرب إلى جانب الأشياء الأخرى، ويقول عنه ابن بطوطة: "المسافر إلى هذه البلاد لا يحمل زاداً ولا ماء ولا ديناراً وإنما يحمل قطع الملح والزجاج الفيشرتي من تلك البلاد ما يطلب منه مقابل ذلك (61)، والمقايضة المنظمة لعبت دوراً هاماً في النشاط التجاري، وكفالة رؤوس الأموال في جنوب وتمبكتو كان هو السبب الآخر في رواج التجارة، وفي الحقيقة فإن السودان الغربي منذ القدم اتصل بسكان الشمال الإفريقي عبر الصحراء وكان أساس هذا الاتصال التجارة وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية، وكانت هذه التجارة تتم عن طريق القوافل مختارة لعدة منافذ، وأشهر هذه الطرق الطريق الممتد من

(58) الوزان، ص 130.
(59) البكري، ص 184.
(60) زباديه، ص 207.
(61) ابن بطوطس، تحفة الانتظار، ص 443.
تغازي إلى تبكتو والمعروف بطريق الذهب، وكذلك الطريق من طرابلس
الغربي عبر فزان، ويتهي عند كنام، والطريق الذيبدأ من توناني الجزائرية إلى
كوكو في أواسط النيجير، وأخيرا الطريق الذي يأتي من المغرب الأقصى محاذياً
ساحل الأطلسي إلى بلاد تكرور.

وإجمالاً، تستطيع القول إن التجارة كانت تسهم في اقتصاد المملكة وكانت
تدرب أرخاء والثراء عليها وقد ساعد على نجاحها توفر الأمن الذي نعت به في
عهودها الأولى كذلك علاقاتها الخارجية الواسعة.

3- الأوضاع الاجتماعية:

كان المجتمع في سنغاي سواء في المدينة أو القرية يتميز بأهمية الروابط
الأسرية وكانت الأسرة هي العنصر الأساسي لهذا المجتمع، الذي ورد الكثير
من العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في مملكة مالي الإسلامية التي تشهدت
بالعرب المغارية في زيها وفنيها المعماري (62)، وكان المجتمع ينقسم إلى ثلاث
طبقات الأولي طبقة العائلة المالكة الاستردادية وهم النبلاء والقواد وولاة
الأقاليم وحاشية الملك واحتضنت هذه الطبقة بالوظائف الكبرى وعددها قليل
ولكنها تمثل وتتحكم في الثروة وتعيش في ترف، وقد ملكت هذه الطبقة من
الأمتيازات ما يجعل القوانين لا تطبق على أفرادها كما تطبق على بقية الناس.
أما الثانية في الطبقة الوسطى والتي لم تكن تشكل نسبة مرتفعة وهي تضم
cالقضاء والأئمة وعائلات موظفين بالإضافة إلى المدرسين ويتقاضون من خزينة
السلطان رواتب معينة وهم لا يملكون ملكيات واسعة مثل التي اختصت بها
الطبقات الأولى، بالإضافة إلى التجار وكان أغلب من الأجانب، وكانت التقاليد
الملكية تقتضي احترامهم ومعاملتهم كأفراد البلاد وذلك لكونهم مسلمين، أما
وضعهم القانوني فهم ضمن الطبقة الوسطى، أما الطبقة الثالثة فهم العبيد والخدم.

(62) قمر الدين فضل الله، ص 120.
ويقومون بالأعمال في الأسواق والمنازل والحقول لحساب غيرهم وعددهم يفوق نسبة عدد السكان نتيجة الفتح والتوزيع الذي شهدته المملكة خاصة في عهد السنى علي وأمكيا مكرم وكان ذروتهم السياسي والعسكري ثانوي جداً.

وفي الأعياد والمناسبات مثل يوم نور العيد الملك يتزينون بالملابس المغربية ويفضلون هذه الأيام في الغناء والصخب وفق الطفول والموسيقى، أما الملك والحاشية وكبار الموظفين فإنهم يتزينون بأساور وسلسلة من ذهب.

أما في عادات الوفاة فإنهم يسيرون خلف الجنازة في خشوع كبير، ويدفن الميت في الغالب يوم وفاته، ولكن الطبقة الأولى مثل الملوك والولاة والمواطنون الكبار فإنهم يدفنون بعد أيام من وفاتهم، وكانت للأسرة الحاكمة أي الأسكين بمجرة خاصة في جار.

وكان القاضي هو الذي يفصل في معظم الخلافات التي تحدث بين الناس.

ويعد إليه بأموال اليماني والغائبين.

أما الفلاحون فكانوا يعيشون في مساكن مستدرة في تجمع واحد وكانت هذه المساكن من الأكواع، وإجمالاً كان المجتمع في سنجاي مجتمعًا بسيطًا عنصره الأساسي هو الروابط الأسرية التي شكلتها بنيته الاجتماعية.

4- الحياة الثقافية والفكرية:

أعيد تيار الثقافة العربية الإسلامية طريقه إلى سنغای مرتباً إليها من المراكز الثقافية والفكرية في المغرب الأقصى والأندلس، ولم تطف الصحراء حائزاً دون هذا النشاط، فمع بداية القرن الحادي عشر الميلادي أخذ الإسلام كما رأينا في الانتشار حسب المناطق التي وجد بها وترك بصماته على العقائد الموجودة والحياة الاجتماعية والثقافية والواقع أن اتصال سنغای بالمغرب كان

(63) انتر سينسكي ص 216، والسعود ص 221 زบายدة ص 218.
(64) قداح، إفريقيا الغربية، ص 115.
له أثر واضح في الأثر بحضارتها وأخذهم الإسلام على المذهب المالكي والكتاب على الطريقة المغربية (65)، وقد عمت هذه الثقافة غاناً ومالي وتراجعت جميعها بالثقافة العربية الإسلامية الواقعة من الشمال الأفريقي والتي اتسعت رقعتها في تلك الجهات، وقد كان أثر الإسلام واضحً، في تنقله من المفاهيم الخاطئة التي كانت سائدة وتسهير على عقول الناس مثل السحر وخاصة في عهد المملكة الأموية حيث اجتهد في القضاء عليه واعتبره أورهاماً لا تلبق بدولة مسلمة متفحّمة على العالم، وقد كان أهل سنغاي يعانون ما يسمى الهولى أو القرائن، ويعبدون الجن ويتعاملون على كسب رضاهم أي أن معبدهم كان يضم عدداً كيبراً من الآلهة، منها إله النهر وإله الصواعق، وكانت أسرة السني والاسكي يحظون باحترام الناس وكانوا في نظرهم يحكون المجتمع من الأرواح الشريرة، وقد ساعد على القضاء على هذه البدع انتشار الإسلام بينهم ووجود العلامة والفقهاء بينهم حيث تمت الاستعانة بإرشادات كبار العلماء مثل السيوطي (66) حيث تمت محاربة الأرثام وفرض نظام القضاء على المذهب المالكي وتمت الدعوة إلى الجهاد ضد قبائل الموسي والوثنية.

وقد عرفت سنغاي في أيام الأسكين كل المعافر التي توصل إليها العالم الإسلامي سواء عن طريق الكتب التي ترد إليها بكميات كبيرة أو عن طريق التجارة والتفصيلاء، وتحقق هذا الازدهار الثقافي بفضل ما تمتزج به سنغاي من اجتذاب عدد من العلماء المسلمين وتكريم العلماً لهم أعظم تكريم وعملهم في مجال التدريس والقضاء، وبدأ الإنتاج والتبادل الثقافي فألفت العديد من الكتب في فروع الفقه والمنطق واللغو والتحكى، ألفها علماء سودانيين ومن

(65) نعييم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، ط 2، الجزائر، الوطنية للنشر، 1977، ص 85 وانظر أيضاً، فضل الله، ص 119.
(66) السعدي، ص 76.
المغرب العربي، وكانت جميع أنواع المعارف تدرس باللغة العربية وهي لغة الكتابة الرسمية.

وكان المعلمون في جميع جهات المملكة على اختلاف طبقاتهم يحظون باحترام كبير سواء من الأهالي أو السلطة، وتلقى أبناء سنغاي علومهم في جامعتي الفرويين بفاس والأزهر بالقاهرة وهم الذين اجتهدوا حتى بلغت علومهم القمة وصارت مدنهم مراكز لهذه الحركة الفكرية.

(67) زبادية، ص 38.
(68) عيسى، العلات حرية، ص 74.
ثبت مصادر ومراجع الكتاب
أولا: المصادر العربية

1 - الكتب:
أ- المصادر:
- أبو عبد الله البكري، المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب، بغداد، مكتبة الثني، د.ت.
- أبو القاسم ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.
- أبو بكر بن محمد الحمداني، البلدان، مطبعة بيروت، 1981.
- أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1974.
- أبو العباس ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ 7، حقيقه إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1971.
- ابن عذاري المراكيش، البيان المغريب في أخبار الأندلس والمغرب، حقيقه إحسان عباس، بيروت، 1971.
- أبو الحسن علي بن سعيد، كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، بيروت، المكتبة التجارية، 1970.
- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ 1، بيروت، مؤسسة الأعمالي، 1971.
- ابن بطوطس، تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ 2، القاهرة، المطبعة الخيرية، 1904.
- أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، جـ 1، بيروت، دار صور، 1960.
- أحمد بن علي القلقشدي، صبح الأعشا في كتاب الأعشا، جـ 15، القاهرة،
  الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت.
- البلاذري، فتح البلدان، دار المكتبة العلمية، بيروت، 1970.
- تقي الدين بن أحمد بن علي المصريي، الإسلام بأذكار من الحبلى من ملوك
  الإسلام، القاهرة، 1923.
- تقي الدين بن أحمد بن علي المصريي، الذهب المسبوق في ذكر من حج من
  الخلفاء والملوك، حفظه جمال الدين الشهاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف
  والترجمة، 1953.
- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ط 2، د. محمد الحجي، بيروت، دار
  الغرب الإسلامي، 1983.
- حمدم بن حسين الجملي، سيرة الحبلى، القاهرة، 1941 دائرة المعارف
  الإسلامية، المجلد الخامس، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
- زكريا بن أحمد الفرواني، آثار البلاد وأذكار البلاد، بيروت، دار صادر،
  1967.
- السلادو أبو العباس أحمد الناصري، الاستقدام لأذكار المغرب الأقصى،
  الدار البيضاء، 1954.
- شمس الدين أبو عبد الله الدمثقي، حفظة الزهر في عجائب البر والبحر، دار
  أوتو بيرغ، 1923.
- عبد الواحد المركاشي، المعجب في تلخيص أذكار المغرب، ط 1، القاهرة
  مطبعة الاستقامة، 1946.
- عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باريس، 1964.
- عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، قوام البلدان، باريس، 1964.
- عرب فقيه الجيراني، فتح الحبلى، جـ 1، نشر رئيث باسه، 1909.
- لسان الدين بن الخطيب، أعمال أعلام فمن بوع يبرع قبل الاحتلال، حفظه أحمد
  مختار العبادي، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964.
محمد عبد المنعم الحميري، الروض العطار في خبر الأنطار، حققه إحسان عباس. بيروت، دار القلم، 1985.
محمد بن عبدالله بن محمد بن بطوطة. رحلة ابن بطوطة. بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1966.
محمد بن فضل الله العمري، مسائل الأنصار في الممالك والأمصار. ج 1، نشر أحمد زكي باشا، القاهرة، 1924.
مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار. تحقيق سعد زغلول، الإسكندرية. 1958.

المراجع:
- إبراهيم طرخان، إمبراطورية البوسنة الإسلامية، القاهرة، 1963.
- أبو الوفا الغنيمي. مدخل إلى التصوف الإسلامي. دار الفكر، ب. ت. 1972.
- أبو بكر باه الفوني، تاريخ فوتي السنغالية. القاهرة، 1956.
- أحمد سويلم العمري، الإفريقيون والعرب، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1967.
- أحمد شibili، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج 6، ط 14، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1983.
- إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية في القارة الإفريقية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- أرنولد توماس، الدعوة الإسلامية، ت. حسن إبراهيم حسن، القاهرة، 1971.
- أمين توفيق الطبيبي، بحوث ودراسات في تاريخ المغرب والأندلس، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984.
- الفرد بـ، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، ت، عبد الرحمن بدوي،
بنغازى، دار ليبيا للنشر والتوزيع والإعلان، 1969.
- تاريخ إفريقيا العام، المجلد السابع، إفريقيا في ظل السيطرة والاستعمار،
البوسكي ادفرا، 1990.
- حسن إبراهيم حسن، انتشر الإسلام في القارة الأفريقية، ط 2، القاهرة مكتبة
النهضة المصرية، 1964.
- حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، جـ 1، القاهرة،
1960.
- خالد عثمان، المسلمين في العالم، قضايا وتحديات، جـ 1، مالطا، دار
إقرأ، 1990.
- حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دول
النوتلاني، مطلع القرن 12 الهجري، الرياض، جامعة الإمام محمود بر
سعود، 1981.
- جان بول رو، الإسلام في الغرب، ت، نجده هاجر، بيروت، دار الغرب
الإسلامي، 1960.
- خالد الصوفي، محاضرات في تاريخ العرب الحديث، الجامعة الليبية
بنغازى، 1981.
- داتز، الحضارة الإسلامية والتاريخ الأفريقي، ت، محمود نسيم، بيروت 1969.
- دافيسون (بازل)، إفريقيا تحت أضواء جديدة، ت، جمال الدين أحمد
بيروت، دار الثقافة العربية، بـ.
- دينس بولم، الحضارات الأفريقية، ت، دار الحياة، بيروت 1965.
- دونا لدوينغر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ت، رائد بدوي، القاهرة، دا
الجبل، بـ.
- ديفروسون، لمحة من تاريخ إفريقيا، ت، مركز البحوث والدراسات
الأفريقية، طرابلس، مطبعة الثورة العربية.

332
- زاهر رياض، الممالك الإسلامية، القاهرة، 1970.
- سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ج 2، ت حسن إبراهيم حسین، وآخرون، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1967.
- سينكي مودي سيسوكي، الصناعي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، ج 4، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1988.
- شارك أندره جوليان، تاريخ إفريقيا، ت طلعت عوض أباظة، القاهرة دار النهضة المصرية، 1962.
- شوفي الجمل، كشف إفريقيا واستعمارها، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1971.
- صلاح الدين الأوبي، الإسلام والتمييز العنصري، ط 2، سوريا، دار الأندلس 1981.
- صفي الدين محمد، إفريقيا بين الدول الأوروبية، القاهرة، 1955.
- عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1961.
- عبد الله محمد زروق، قضايا التصوف الإسلامي، الخرطوم، دار الفكر للطباعة والنشر، 1985.
- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المسلمين والاستعمار الأوروبي لافريقيا، الكويت، عالم المعرفة، 1989.
- عصمت عبد الحفيظ دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981.
- عثمان صالح سي، تاريخ أرتيريا، بيروت، شركة النهار للخدمات الصحفية، 1974.
- عبد القادر محمود، الفلسفة الصوفية في الإسلام، مصادرها ونظرياتها
ومكانتها من الدين والحياة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1966.
- فتحي غيث، الإسلام في الحبشة عبر العصور، القاهرة، 1962.
- ماهر صباحي رزق، غاناً أرضاً وشعباً ودولة، طرابلس، ومركز البحوث والدراسات الإفريقية، ب. ت.
- محمد فتح الله الزبادي، انتشار الإسلام وموقف المستشرقين فيه، دمشق دار قتبة، 1990.
- محمد أحمد حسونة، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، القاهرة، دار النهضة ب. ت.
- محمد عبد القادر أحمد، المسلمون في غينيا، القاهرة، 1986.
- محمد عبد الفتاح إبراهيم، الثقافات الإفريقية، القاهرة، مكتبة الأنبول المصريه 1965، إفريقيا من السنغال حتى نهر جوبيتا، القاهرة، مكتبة الأنبول المصريه 1967.
- محمود متولي ورآفت الشيخ، إفريقيا في العلاقات الدولية، القاهرة، دار الثقافة، 1975.
- محمود خيري عسیى، العلاقات العربية الإفريقية، القاهرة، دار الطباعة الحدیدة 1977.
- مراجع عقيلة الغناي، قيام دولة الموحدین، بنغازی جامعة قارونس 1988.
- مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدین، بنغازی-جامعة قارونس 1988.
- مقداد بايحن، فلسفة الحياة الروحیة، بيروت، دار الشروق للنشر 1985.
- نعیم قداح، حضارة الإسلام وحضاره أوروبا في إفريقيا الغربية، دمشق، مكتبة أطلس 1963.
- إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1990.

334
ج - البحوث:

- إبراهيم حركات، "دور الصحراء الإفريقيا في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط" مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير 1981، طرابلس، ن.

- أحمد الشامي، "نظرات في هجرة المسلمين إلى الحبشة" المؤرخ العربي، العدد 16، بغداد 1981.


- أحمد سعيد الفيني، "الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان" مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1981، طرابلس، مركز الجهاد.

- إدريس الحرير "العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلاد جنوب الصحراء وأثريها في نشر الإسلام" مجلة البحوث التاريخية، العدد الثالث 1977، طرابلس، مركز الجهاد.

- أمين الطبي، "وصول الإسلام وانتشاره في كان وبرنزو" مجلة الدعوة، العدد الرابع 1987، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية.

- أمين الطبي، "دور المرابطين في نشر الإسلام في السودان العربي" مجلة الثقافة العربية، العدد الثاني 1987، الجمهورية، مؤسسة الثقافة.
الأمين عبد الكريم «الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في أثيوبيا إلى نهاية بالوفراندو» نظم تجارة تأمديه، وجاوكروي ووكوري في إطار تاريخ الاتصالات الثقافية على امتداد طريق التجارة عبر الصحرا، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1981، طرابلس، مركز الجهاد.

- جبريل بياطي (ماللي والتوسع الثاني للماندنغ) تاريخ إفريقيا العام، ج-4، باريس، اليونسكو، 1988.

- تيرننس دالاس، (تجارة القوافل بين ليبيا ومصر) دور عبد الله الكحلا، مجلة الباحثون التاريخيون، العدد الأول، 1981، طرابلس، مؤسسة موطن الجهاد.

- حسين مؤمن، (أعمال ودورها في نشر الإسلام في إفريقيا) مجلة كلية الآداب، بنغازي، 1969.

- عبد العزيز كامل (الرسول والتفرقة العنصرية) المؤرخ العربي، العدد 16، بغداد، 1981.

- عبد المولى الحربية (الإسلام وأثره في التطورات السياسية والفكرية والاقتصادية في إفريقيا جنوب الصحراء) مجلة البحوث التاريخية، العدد الثالث، 1989، طرابلس، مركز الجهاد.

- عبد القادر زيازي (ملاحم الحركة في تمكينو خلال القرن السادس عشر) مجلة البحوث التاريخية، العدد السادس، 1971، طرابلس، مركز الجهاد.

- عطية مخومتو الجيوري، (فرنسا ومشكلة الحدود الليبية) مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1989، طرابلس، مركز الجهاد.

- عمر أحمد سعيد، (دور حركات التجديد الإسلامي في إفريقيا) مجلة بحوث نصف شهرية، العدد السادس، فبراير، 1981، الخرطوم، المركز الإسلامي الإفريقي.

- عمر طلعت زهران، (الإسلام في مديحقر) مجلة الأزهر، المجلد 22، وقع، القاهرة، جامعة الأزهر 1950.

- قمر الدين محمد فضل الله، "المحطة التاريخية عن مملكة سنغافور الإسلامية" مجلة الدعوة الإسلامية، العدد الخامس، طرابلس، 1984.

- كاتي، د. أ.، "مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان" مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير 1981، طرابلس، مركز الجهاد.

- محمد مرزوقي، "العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر" مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1985، طرابلس، مركز الجهاد.

- محمد السيد غلاب، "الوطن العربي والاتصالات العالمية" المجلة، العدد 67 القاهرة، 1962.

- محمد مزين، "المغرب والسودان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر" المؤرخ العربي، العدد 31، الجزائر، المركز الوطني للدراسات التاريخية، 1987.

- ماتالين، "تدهور إمبراطورية مالي" تاريخ إفريقيا العام، ج-4، بيروت، المطبعة الكاثوليكية 1989.

- محمود عبد الله نجم، "إفريقيا والاستعمار" مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1989، طرابلس، مركز الجهاد.

- محمود حسن، "دراسات في التاريخ الأرتيري" بحث غير مشور، جامعة قاروس، بنغازي، 1978.

- نوري أحمد، "العلاقات العربية الإفريقية" مجلة السياسة الدولية، العدد العاشر، القاهرة، 1970.

- يوسف فضل حسن، "البحر الأحمر في التاريخ"، محاضرات الموسم الثقافي الأول، طرابلس، مركز الجهاد، 1989.
د - رسائل وأطروحات.

- إبراهيم موسى جوب، "القولانيون ودورهم في نشر الإسلام بغرب إفريقيا"، رسالة ماجستير، جامعة الفاتح، طرابلس 1983.
- سعید عبد الرحمن الحنديري، "الحياة السياسية في تشاد منذ الاحتلال الفرنسي حتى نهاية حكم تمبلباي"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي 1989.
- فريال قاسم حميد، "الرحلات الاستكشافية الإنجليزية في ليبيا"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي 1990.
- كمال ضو الدقير، "دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بنغازي 1996.
ثانيـا: المصادر الأجنبية

- Arnauld (H), L'Islam ells politique, Paris, Payot 1929.
- Canc (L), L'Europe et L'Afrique, Paris, 1945.
- Carbou (H), La Recion du Tchad et du Ouadia, T. II, Paris le rouk, 1912.
- Copans (L), Histoire de L'Afrique Noire, Dakar, 1982.
- Despoid (L), L'Afrique Noire, Paris, P.L. 1062.
- Gueneron (L), Lrs Garamantes, Paris, P.U. 1962.
- Gargeaves (T), West Africa, the forme frenche states enelwood cliffe N.J Frentice, Hall, 1976.
الفهرس

الموضوع

الإهداً................................................. 5
توطنه .............................................. 7
الفصل الأول: ...........................................
15 شعوب إفريقيا قبل نهاية القرن الخامس عشر .......................... 17
أهم المجموعات البشرية للشعوب الإفريقية ................................. 18
أ - الشعوب السودانية .................................. 20
ب - شعوب البانتو ..................................... 40
ج - الشعوب الحامية والسامية .................................... 52
الفصل الثاني: ...........................................
61 علاقة شعوب العالم القديم والوسيد بإفريقيا ........................... 63
أ - محاولة الشعوب القديمة والوسيلة اكتشاف إفريقيا واستغلالها ...... 64
ب - التدخل العربي إلى دواخل إفريقيا .................................. 73
الفصل الثالث: ...........................................
91 العوامل التي ساعدت على حركة انتشار الإسلام في شرق إفريقيا أو جنوب الصحراء .................................................. 93
أ - العوامل الذاتية ..................................... 94
ب - العوامل الخارجية .................................. 100
ج - العوامل المتعلقة بالقرأة ذاتها ...................................... 139
الفصل الرابع: انتشار الإسلام في الحبشة وشرق إفريقيا.
أ - الحبشة في عصور الإسلام الأولى
ب - الحبشة وشرق إفريقيا فيما بين الفريقين
الفصل الخامس: الصومال.
أ - محلة ما قبل الإسلام.
ب - محلة انتشار الإسلام ودور الصومال في نشره في المنطقة.
الفصل السادس: المملكة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي.
أ - التشكيلات السياسية وانتشار الإسلام في البوسا.
ب - انتشار الإسلام في كايم - برتو - ووادي.
الفصل السابع: مملكة غانا.
أ - الأوضاع السياسية والاجتماعية قبل الإسلام.
ب - انتشار الإسلام وتأثيراته على غانا.
الفصل الثامن: مملكة مالي.
أ - التشكيل السياسي والاجتماعي للمملكة مالي قبل الإسلام.
ب - انتشار الإسلام والتطورات التي أحدثتها.
الفصل التاسع: مملكة سنغاي الإسلامية.
أ - الإسلام والتشكيلات السياسية.
ب - الجوانب الحضارية.
ثبت مصادر ومراجع الكتاب.
الفهرس.
رقم الإيداع 3347 / 98
دار الكتب الوطنية - بنغازي